العشاق الخمسة

يوسف الشاروني

لوحة للفنان سيد عبد الرسول



العشاق الخمسة

(١٩٥٤)

الشارونى، يوسف.

العشاق الخمسة: (١٩٥٤)/ يوسف الشارونى. ــ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

١٧٦ ص ؛ ٢٤ سم .

تدمك ٤ ٢٤٦ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ــ القصص العربية القصيرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٥٤/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 246 - 4

ديوى ٨١٣,٠١

العشاق الخمسة

(١٩٥٤)

يوسف الشارونى



٢٠١٠

الإخراج الفنى والغلاف :

مرفت عنتر النحاس

العشاق الخمسة

فى إحدى الأماسى جلس يتلو عليهم من شعره الغنائى الحلو ، فلما انتهى منه قال:

- إنه لا يمكنك أن تعرف قلب المرأة، فواحدة قد تكون مدلهة بحبك ثم تنصرف إلى صديقك تحدثه كلما رأتك مقبلا ، وأخرى لا تبادلك عاطفة ولا عطفا ثم تظهر اهتمامها بك كلما هممت منصرفا، وثالثة قد تكون ذهبية الشعر ناعسة الطرف هشة الأعضاء ولها قلب ظامئ إلى الحب والتحطيم والندم ..

ثم سعل سعالا يوشك أن يكون مرضا، واستأذن فى الانصراف وابتلعه الصمت والظلام .. ولم يعد إليهم من يومها ، منذ عشرة شهور ، منذ أخبروهم أن العلة اشتدت عليه ..

ولقد أبلغوهم منذ أسبوع واحد أن حامدا قد مات..

ذلك أنه فى منتصف القرن العشرين بعد الميلاد، كان يعيش فى مصر جيل من الشباب ، شاهدوا الماضى ينطفئ وراءهم ، وشاهدوا المستقبل لغيرهم ، ولم تستطع أقدامهم أن تثبت فى الحاضر .. وكان هذا الجيل يقرأ الأدب على ضوء مصابيح بترولية، ويتابع دراساته وهو يستمع إلى ضجيج المذياع فى أقرب مقهى .. وكانوا يبحثون عبثا عن الفرح، فمن حولهم تنتشر الأوبئة والأوجاع، كما كان يشقيهم قلق وحرمان، وهم يكافحون فى بطولة حتى تتحطم أعصابهم وتمزق الوحدة أحشاءهم، فيفقدوا الثقة فى أنفسهم وفى العالم .. ومن هذا الجيل كانت مصر تتطلع إلى القادة الذين سينقذونها من الانحلال والتأخر ومن كل ضروب الشقاء الذى تعانيه.

ولقد رأيتهم تلك الليلة، رأيتهم بنفسى بعد أن عبرت مع صديق منهم ذلك الزقاق القصير الرطب المؤدى إليهم وهو يشير إلى الدكاكين التى يجدون فيها وسائل معيشتهم، فهناك "

مكوجى الأمراء " يتعهد ثيابهم بالغسيل والكى، وهناك " صالون السعادة" يتعهد شعورهم بالقص ولحاهم بالحلق، وهناك " مطعم الحرية" يتناولون فيه طعامهم أحيانا، و "بقالة الأمانة" يجدون فيها حاجتهم من السجائر والبن والسكر والشاى، ثم " مقهى الوطنية" يجلسون فيه لاسيما فى أيام الصيف .. وكان الزقاق ينتهى بباب خشبى كبير، دفعناه فأحدث صريرا مسموعا، ثم صعدنا درجات السلم الخشبى المرتفع الطويل وأنا أتوكأ على عصاى، وكأنما أشياء خفية تتكسر دائما تحت أقدامنا .. خمس طبقات صعدناها حتى وصلنا إلى غرفة فى أعلا البناء .. وكانت القاهرة قد استنشقت فى ذلك اليوم عبير الشتاء المتفتح لأول مرة، وخلفت الشمس بعد مغيبها نورا إلهيا ناصعا غمر الأفق الغربى زمنا غير قصير، وبدا القمر فى الشرق متدثرا يخطو بين سحبه الناعمة المترفة البيضاء، وأخذ النسيم البارد يلفح أسطح المنازل ، ويغمر فى عنفوانه الشاب هذه الغرفة ذات السر الكبير، ماضيا فى رحلته الليلية خلال المدن والقرى والصحارى والبحار ..

ولقد رأيتهم جميعا والوجوم يختلط بروح التهكم فى وجوههم وساعة الجامعة تدق قريبا منا تسع دقات، وهناك سرير وسط الغرفة، وأرفف متشبثة بجدرانها مرصوصة فوقها كتب فى الفن والفلسفة والأدب، ومنضدة ملطخة عليها أدوات مبعثرة للرسم، ولوحات قلائل معلقة فوق الجدران .. وفى الركن الغربى مصباح بترولى يرتجف ، رأيت على ضوئه صورة رائعة كأنما تنبعث من حلم فرعونى قديم، حيث إيزيس العذراء جالسة ترضع من ثديها الناضج البكر ابنها الصقر حورس ، وفى شعرها وعينيها لمحات من نور الله .. وكانوا يكادون ينتهون من طعام لم أتبين منه إلا بقايا الخبز ثم رائحة الأذرة المشوية .

ويبدو أن روح الشاعر كانت قد تسربت فى مطلع هذا الشتاء إلى شمسه الغاربة وقمره المتدثر ، ثم اطمأنت إلى هذه الغرفة فى ذلك الهزيع من الليل ، وكانت الآن قد تسللت إلى قلوبهم وانتشرت على وجوههم وغمرت لوحة إيزيس الجاثمة تحت المصباح المرتجف ، وهم يتحادثون ويتناقشون ..

وفجأة لمحت فى يد صديقى صورة لفتاة حسناء ربما كانت فى العشرين من عمرها ، فرفعت بصرى إلى صورة العذراء التى قيل لى إن صاحبها أتم رسمها بالأمس فقط، محاولا أن أدرك أية صلة كامنة بينهما ..

وانتهى الطعام، وساعة الجامعة تدق عشر دقات ، والبحث قد تشعب بحيث شمل نقاشا حول المذاهب والقيم .. وفى مصر كان بعض شباب الجيل يحاول ما استطاع أن يتعرف على زعماء الفن والفكر فى العالم ، وأن يصل إليه ضجيج الحضارة التى تنهار .. وذلك فى نفس الوقت الذى كانت فيه القنبلة الذرية قد اختُرعت ، والأدوية المهدئة للأعصاب قد انتشرت ، والبشرية كأنما تعانى المخاض ..

كانوا يحسون أنه يجمعهم جيل واحد ورعب واحد وأمل واحد، ويضمهم كذلك شخص واحد .. هو تلك المرأة التى أقبلت صورتها فى هذا الهزيع من الليل تشيع بعض الطمأنينة فى أرواحهم القلقة الأسيانة ..

وكانت سلوى فتاة من إحدى محافظات الوجه البحرى ، أقبلت إلى القاهرة كى تنتظم فى جامعتها ، وهى تحمل معها جسدا فى التاسعة عشر يزدحم خيالات وأوهاما، وتتدفق منه روح بكر شاعرية .. وكانت قد جربت مواهبها المتفتحة فى بيئتها الصغيرة المحدودة ، فأدركت إلى أى حد تستطيع برقتها وإرادتها أن تشيع المرح والطموح فيمن حولها ..

وفى الجامعة تعرفت بحامد، وما لبث أن قدمها لزملائه .. وكانوا فى ذلك الحين لا يزالون يجربون إمكاناتهم ويختبرون قواهم الكامنة ، فهم جميعا يرسمون وينحتون ويقرضون الشعر ويعزفون الموسيقى .. وكان لقاؤهم فى أكثر الأحايين عارضا تفرضه عليهم هذه المشاركة العامة فى السعى الحثيث إلى اكتشاف ذواتهم .. فلما أقبلت سلوى ، بروحها المتوثبة الخلاقة وظرفها ولباقتها ، وجسدها النحيف المتيقظ ، أخذوا ينتظمون جميعهم ، ويجد كل واحد منهم نفسه فى يسر وسهولة ، ويسرى فى جسده شىء خفى من الرعشة والسرور ، وهو يكشف شيئًا فشيئًا - وفيما بينه وبين نفسه - عن السر العظيم الدفين الذى لا يبوح به لأحد حتى سلوى نفسها .. ورغم أن كلا منهم أيقن أنها تحبه دون الباقين ، إلا أنه لا يحب أن يفسد على الآخرين متعتهم، ولا على نفسه هذه الرفقة التى يجد فيها السعادة والغبطة والرضا، فيقنع أن يحبها وأن تحبه دون حاجة إلى هذه الرُعاية الخاصة التى قد تلفت الأنظار وتفسد الأمور..

وهكذا وجد أحدهم أنه رسامها ، ووجد آخر أنه عازفها ، ووجد حامد أنه شاعرها، وظن صديقى أنه مثَّالها ، وأخيرا أقبل خامسهم - كان أصغرهم - ورأى أن يفلسف هذا جميعه ، وتخصص كل فى دراسته واستقر فى معهده ، وأصبح مجالهم الخاص لا يسمح لإنسان أن يتنفس بينهم بلا موهبة ولو كانت مدَّعاة .. حتى هى مضت تجرب إمكاناتها فإذا بها تقرض الشعر .. وكان هذا تشجيعا كافيا لأن يكون الشاعر أول من ينقض هذه المعاهدة الصامتة فيذيع حبه على الآخرين ، تساعده على ذلك وسيلته فى التعبير ، بينما الآخرون يحرصون على إخفاء ما يعتلج فى صدورهم ، يتلمسونه فيما يبدعونه من فن فى رفق هو أقرب إلى التلميح ويشيعونه فيما يعبِّرون عنه بغير أن يبرزوه ولا أن يفصحوا عنه .

فى ذلك الوقت كان شباب الجيل ينتشرون ما بين المقاهى يقتلون الوقت وبين الطرقات الكبيرة يتسكعون وراء الفتيات ، وقد ربط بينهم إحساس بالشقاء والفزع، وتأرجح ما بين اليأس الكبير والأمل الأكبر .. وكان الشيب يدب فى أفوادهم والشيخوخة تشيع فى أرواحهم وهم لا يزالون فى شرخ الشباب .. وشباب الفلاحين فى قرى مصر وريفها يذوون ويتساقطون فى الأرض .. فى أرضهم .. بل فى أرضنا الخصبة السوداء..

وقاموا برحلات معا يشاهدون فيها آثار القاهرة وضواحيها وتلالها ، واشتركوا جميعهم فى ضروب من النشاط الثقافى والفنى والسياسى، وأخذ ماضيهم يزدحم بالذكريات .. وكثيرا ما كان يقوم بينهم خلاف أو شجار ، ثم تهل عليهم سلوى بقامتها النحيفة ورقبتها الطويلة ، فيتحول الصياح إلى همس ، والهمس إلى صمت ، وهى - كالغزال - تحنى لهم فى أدب جم رقبتها الرفيعة الملساء ، فيردون عليها تحيتها وهم يلمحون فى عينيها ذلك الوميض الدافئ، فتنبعث فى قلوبهم رغبة خرساء لا تلمح هى منها إلا رقة تنتشر على محياهم وحماسة تنتشر فى حركاتهم ، حتى إذا تفرق شملهم ، وخلوا إلى ما يبدعون ، وجدوا فى طريقة أدائه ما يعطيهم الجرأة على أن يعترفوا إليه قليلا وأن يصارحوا أنفسهم كثيرا بما يختلج فى أرواحهم . فإذا مضوا قليلا فى إبداعهم ، توقفوا لحظة وخشوا ألا يصل الإفصاح أو التعبير إلى نهايته ؛ وكثيرا ما كانوا يشكُّون فى قوة وصدق وقيمة ما يمارسون، فلا يلبثون أن يدَعوه أو يؤجلوه ..

أما حامد فما أذاع حبه عليهم حتى انتشر الارتياح بينهم، وشاعت الغبطة فى نفوسهم، ووجدوا فى ذلك حجة ضد ما تتهمهم به أنفسهم من إشفاق وتهيب .. وانتابهم إحساس نبيل سعيد وهم يشجعونه على أن يبوح لها بوسيلة ما عما يكنه من عاطفة نحوها، ثم يدفعونه ويلحون عليه ، حتى استطاعوا فى إحدى ليالى الشتاء الباردة وأمام جمرات المدفأة أن ينتزعوا منه قسما على أن يفصح لها، وفى ليلة أخرى جلسوا يحتسون من الشاى ما غلوه للمرة الثالثة وهو يعاهدهم على أن يدرج خطوة نحوها .

ثم يصبح الصبح ويقبل الضحى ويوغل النهار وهو مهيب يرجو الإفصاح ويخشاه ، مدركا أن الاعتراف أمامهم - وفى شعره - هو التعبير ، وأن الاعتراف أمامها هو الفعل ، ومكتفيا بالتعبير دون الفعل وبالمعاناة إلا معاناة الحصول - وتمضى الأيام وما أدى بهم اعترافه لهم إلا أن بلور أمامهم جانب الرغبة فيهم، فأوهن كل سعى فى نفوسهم ، ووجدوا ما يبررون به عدولهم عما يحاولونه ويوجسون منه ألا يبلغوه ..

- ومضت سنتان ونحن نحيا هذه الحياة ، ثم حدث شىء لم يكن فى الحسبان..

وكان هذا الحديث شرحا ، موجها إلى ، والغرفة قد امتلأت بدخان اللفائف حتى أخذت الأشياء والوجوه تبدو من خلال ضباب شفاف، وساعة الجامعة تدق إحدى عشرة دقة ، والمطر يهطل فى الخارج بغزارة ، ويتسرب بعضه من سقف الغرفة سائلا على الجدران فى تلكؤ ، والعذراء إيزيس لا تزال ترتجف ، ولا تحسب أن هذا تعبير شاعرى، بل أرجوك أن تصدق أنها كانت حقا ترتجف ، واللهب يرتجف ، وجميعنا نرتجف .. وصديقى - الذى يبدو أنه لم يمر بهم منذ زمن - يقول :

- سمعت أنها أنجبت طفلا ..

- بل طفلا وطفلا ..

ـ وكان زوجها مريضا ..

ـ والآن صحيح معافى ..

ـ وهل تراها أحرقت أشعارها ؟

ـ مثلما أحرقها حامد ...

ـ وهل تراها أحبت حامدا حقا ؟

ـ بل هو أحبها حقا ..

ـ لكنه لم يبح لها بشىء فى غير شعره ؟

ـ مثلما لم تبح له بشىء حتى فى شعرها ..

وقال أحدهم يتم شرحه لى :

– فذات صباح أقبلت تخبرنا أنها ستزف عما قريب إلى أستاذ لها ، وتدعونا إلى حضور يوم الزفاف ..

– ومن يومها سعل حامد وظل يسعل ثلاثة أعوام حتى مات ..

وكان صاحب هذه الجملة الأخيرة قد نطق بها فى انفعال وتأثر كأنما ليؤكد قيام هذه الصلة التى يشير إليها من طرف خفى بين رحيل سلوى عنهم وموت شاعرهم .. ثم صاح – كأنما تنبه أخيرا ـ وقال :

ـ لماذا تسردون هذه القصة ؟ لقد أعدتموها من قبل مئات المرات ، هيا نقدم شيئا خيرا من هذا لضيفنا حمدى ..

وأشار إلىّ ، وأمسك عصاى يتأملها كأنما يدبر مؤامرة .. وعاد يقول :

ـ أين ماء الصودا ؟ لقد قبضت بالأمس أجر أحد الدروس ، وعندى الليلة لكم زجاجتان ..

وكان جالسا على بساط فوق الأرض ، فانحنى قليلا متكئا على ذارعه اليمنى ، ثم مد يده اليسرى تحت أحد الرفوف وأخرج زجاجتين .. وطفح البشر على جميع الوجوه ، فمنذ رحل صديقهم عنهم إلى المصحة وهم لم يقيموا احتفالا..

وكان أحدهم جالسا على منضدة الرسم يعبث ببعض الأدوات التى أزاحها عنها ، وآخر جالسا فوق السرير يشاركه فيه صاحبه ، وأنا جالس فوق مقعد كان من الخيرزان يوما ما ..

.. وبدأ أحدهم قصة لم يتمها لأنه نسى ما بدأه ، وقام أكثرهم ثملا يخطب فوق المنضدة فقاطعه صديقى وأجلسه ، ثم أصبحت المشكلة الرئيسية هى كيف دخل السرير من الباب ،

واستنتج أحدهم أنه لابد أن يكون السرير قد نشأ صغيرا فى هذه الغرفة ثم ظل ينمو حتى أصبح بهذا الحجم ، لكنهم استسخفوا هذا الحل مما أغضب صاحبه غضبا شديدا، وهنا تدخل صديقى وعرض حلا آخر ، ذلك أن تكون قطع السرير قد أُدخلت من الباب مفككة ثم رُكبت أجزاؤها داخل هذه الغرفة ، غير أن هذا الحل الجديد ضاع بين الضجيج لأن أكثرهم ثملا وقف على المنضدة يريد أن يخطب من جديد ..

ولمحت وجها يصيح ضاحكا فى وجه آخر ويقول :

- وأنت متى تفسخ خطبتك التى عقدتها منذ ثلاثة أعوام ؟

- بل ستحتفلون معى بعد أسبوع بعقد الزواج ، ولولا وفاة صديقنا لربما كان الليلة احتفالنا هذا ..

- بل لعله لولا وفاة صديقنا لما انتويت ذلك أبدا ، ولولا زواج سلوى لما كانت خطبتك أبدا ..

وتحرك نحوى صاحب الوجه الثالث يصيح ثملا :

- فما اعتزم الخطبة هذا العربيد إلا يوم أبلغوه زواجها، وما يعتزم الزواج إلا يوم أبلغوه وفاة صديقه ..

وضحكوا وتشاجروا ، ثم ضحكوا وغضبوا ، ثم ضحكوا وضحكوا .. وتلك لوحة إيزيس الندية وما انتشر حولها من لوحات قلائل فى جميعها إفصاح وعبور ، وهذا أحدهم يتهيأ للاحتفال بزواجه بعد أسبوع . ولئن كانت خطبة هذا العربيد الماضية نوعا من الانتحار الذى يدفع إليه اليأس ، فلقد بدا لى أن زواجه الحاضر هو نوع من الخلاص الذى يفديه الألم ..

ولقد غادرنا الغرفة نحن الخمسة جميعا، حين انتصف الليل إلا قليلا ، وبقايا المطر تسَّاقط رذاذا رقيقا، ولا هدف لنا سوى الاندفاع - ربما حتى ينبلج الفجر -فى طرقات خالية باردة متسعة معتمة ، تتصل ببعضها بعضا فلا تفضى إلى شىء..

وكانت جميع الدكاكين قد أُغلقت ولم يبق إلا المقهى وصاحبه يهم بإغلاقه، والسماء توشك أن تصفو مما تلبد بها من غيوم فى أول الليل ، والقمر يبدو هادئا صامتا فى منتصف الطريق بين الأرض والسماء ، وطرقات المدينة تمتد كأنها الأبد، وتلتمع فى أرضها المبتلة أضواء المصابيح المنتصبة فى يقظة وسكون ، ويختلج فيها نسيم نَدِىّ تشيع فيه عذوبة حبلى بالحركة والحياة ، وهم يحسون فى هذه الحرية الليلية الساكنة اللامتناهية أنهم يَسَعون كل شىء ولا شىء يسعهم ، فانطلقوا يترنمون ويصخبون، ثم يتناقشون ويتهامسون ، ثم يضحكون ويضحكون..

غير أنى كنت أحسن أنهم يفعلون ذلك لآخر مرة فى حياتهم ، وكنت أدرك أن وفاة صديقهم أرعبتهم ، غير أنى كنت أدرك أيضا أن الألم هنا هو بدء الطريق .. فأنا أعلم أن المأساة ليست

سوى جانب من جوانب الحدَث ، بل أنا أعلم أكثر من هذا : أن كل مأساة تحمل معها عنصر خلاصها ، وأن النور يضىء فى الظلمة..

ففى ذلك الوقت كانت قد اكتُشفت طريقة لمعالجة شلل الأطفال ، وكان قد ابتُكر أسلوب جديد لحفظ المعادن والآلات من الصدأ ، واختُرعت آلة تحل مائة ألف مسألة فى دقيقة واحدة، ، وتوصل العلماء إلى أخرى تقيس ما يكون تخانته أقل من الشعرة البشرية بثلاثمائة ضعف ، واكتُشف قطب مغناطيسى آخر فى شمال الكرة الأرضية ، وأُجريت تجارب لإعادة الحياة بعد الموت ، وكان حكم الإعدام قد أُلغى فى بعض جهات العالم ..

العيد

فى الظهيرة أقبلت أمى ، وكانت تحمل معها شمامة تفوح منها رائحة نفاذة . قدمتها لسيدتى الكبيرة على سبيل الهدية . وأحسست بفرح وفخر وطمأنينة وأنا أنظر إلى وجه أمى ، ومضيت بسرعة أعد نفسى للذهاب معها ، فارتديت ثوبى الجديد المخطط بخطوط حمراء ، وقد خاطته لى سيدتى لأرتديه فى العيد ، كما ارتديت حذائى المطاط الذى ضاق على سيدى فأعطاه لى ، ورغم اتساعه بالنسبة لقدمىّ إلا أنى كنت أشد على رباطه حتى لا يكاد يفلت منهما ، ثم ذهبت إلى صندوقى الصغير الذى أحتفظ فيه بأشياء أنتقيها من القمامة قبل أن أعطيها للزبال ، كان ملآن بأوراق مكتوبة وصور ملونة جميلة، فمددت يدى إلى عروس كانت سيدتى الصغيرة تهانى قد حطمت ذراعيها وساقيها فألقاها سيدى فى صفيحة القمامة ، والتقطتها أنا واحتفظت بها لأن وجهها كان لا يزال سليما وستفرح بها أختى فرحا عظيما .. وأختى سعدية ليست صغيرة ، لأنها تتكلم وتمشى ، لكن ليست لديها لعب كالتى تلعب بها سيدتى .. ليست لديها لعبة واحدة ، لا هى ولا صابر ابن خالتى ..

وسمعت أمى وسيدتى عليَّه هانم تتناقشان بشأن ميعاد عودتى، كانت أمى ترجوها أن أبقى معها لآخر يوم من أيام العيد، وكانت سيدتى تريدنى أن أعود فى اليوم التالى .. وأصرت سيدتى على ذلك وألحت ، فلم يسع أمى إلا أن تذعن لها .. وأدركت أننى لن أقضى إلا ليلة واحدة مع أمى ، وأحسست بكآبة حتى كدت أبكى ، لولا أننى سمعت سيدى يقول : أنا جبت لك هدية يا عبده للعيد ..

فزايلتنى الكآبة وخفق قلبى ، ترى ماذا تكون اللعبة ؟ .. وغاب لحظة ثم عاد وبيده ساعة صغيرة حمراء ، علمنى كيف أدير عقربيها من مسمار جانبى ، ووضعها حول معصمى الأيسر ،

وأنا أطير فرحا .. وقدمت لى سيدتى بدورها خمسة قروش ، وتأملت القطعة الفضية فى يدى، لم تكن أول مرة أمسك بمثلها فى يدى ، لكنها كانت أول مرة أمتلك فيها مثلها .. وقبل أن أغادر المنزل وضعت تحت إبطى لفة كبيرة ، فلما سألتنى أمى عما بها أجبتها بأنه ثوبى القديم سأرتديه عندما أصل إلى بلدنا لئلا يتسخ الثوب الجديد..

وفى الطريق وجدنا أخى رجب ينتظرنا .. وسرنا معا نقصد موقف السيارات التى تمر بقريتنا ، وأقبلت إحداها وقد ازدحم الناس فيها وعليها ، وحاولنا عبثا أن نركب ، ومضت السيارة ونحن لا نزال واقفين فى مكاننا .. وهمست أمى فى أذن أخى بكلمات لم أسمعها ، وشردت أنا بفكرى فى قريتنا ، وتذكرت خور السيل الملىء بالرمل ، وكيف كنت أذهب إليه مع أصحابى نلعب فيه فى الليالى الصيفية المقمرة قبل أن تغمره المياه فى موسم البطيخ ، ثم تأتى أمى لتأخذنى بالقوة وهى تحدثنى عن الضبع الذى يهبط الجبل ليأكل الأطفال الذين يجدهم فى الخور ، فأخاف وأحجب عينىَّ بثوبها الأسود الطويل ..

وفجأة مات والدى ، وبكته أمى كثيرا ، ولم أعد أذهب إلى الخور ، ونمنا بدون عشاء ..

وبكت أمى ذات مساء وأخبرتنى أنا وأخى رجب -وهو يكبرنى قليلا -بأنه ليس لدينا مال نأكل به ، أنا وأمى وأخى وستى العجوز التى تجلس طوال النهار أمام بيتنا لا تعمل شيئا .. وفى اليوم التالى أخذتنى أنا وأخى إلى البندر ، هو الى سيدته روحيه وأنا عند سيدى كمال وسيدتى عليَّه ..

وتلفتُّ إلى أمى فرأيتها لا تزال واقفة إلى جانبى ، بينما كان رجب قد اختفى ولما يعد .. وأحسست بانقباض، وسألت أمى أين ذهب رجب ، هل تاه ؟ واغرورقت عيناى بالدموع ، وأحسستها تجرى على وجهى .. وسمعت أمى بكائى فقالت لى إنه ذهب إلى الموقف العام حيث تبدأ السيارات سيرها ليحجز لنا مكانا ..

ولم أصدق كلامها ، فالزحام شديد ورجب قد ضل عنا ، وأمى تخدعنى لكى لا أبكى .. ومسحت دموعى بظهر يدى ، وبكيت من جديد ، وسالت الدموع ومسحتها من جديد .. ولاحت لنا سيارة مقبلة ، فحدقت فيها طويلا، ولمحت هناك .. فى إحدى نوافذها، يدا تلوح لنا ، فلما اقتربت رأيت وجه أخى يطل علينا وهو يضحك فى انتصار ، حتى لقد شاهدت فمه مفتوحا ولسانه يتأرجح بين أسنانه .. وانحشرت بين الراكبين أشق طريقا لأمى حتى وصلنا إليه فوجدناه قد حجز لنا مقعدا نحن الثلاثة ، فجلسنا عليه ونحن ننضغط وننحشر لنفسح مكانا للآخرين ، بينما كان هناك قفص من أقفاص الدجاج يحمله رجل يجلس خلفى ، وكان القفص يضغط بشدة على عظمة كتفى كلما اهتزت السيارة هزة عنيفة، وحاولت أن أقف لكى أستريح، لكن أمى نهرتنى وأمرتنى أن أجلس حتى لا يحسبنى قاطع التذاكر كبيرا فيطلب عنى أجرا ..

أما رجب فكان يجلس على جانبى بينى وبين أمى. ولاحظت أنه لا يضع ساعة حول معصمه، وأن ثوبه ليس جديدا مثل ثوبى، فقلت له:

ـ شوفت يا رجب الساعة اللى هداها لى سيدى..

ونظر إليها رجب، ومد يده يحاول انتزاعها، فأبعدت يدى عنه، وفى نفس الوقت الذى انغرس فيه القفص فى كتفى الأيسر كان رجب يلكزنى بشدة بمرفقه فى جانبى الأيمن، حتى صرخت من الألم، وبدأت أبكى، ورجب يقول لى همسًا:

ـ هاكسرهالك لما نوصل البيت.

وخشيت على ساعتى منه، وحاولت أن أستعين بأمى، لكنها كانت بعيدة عنى، بينى وبينها رجب.

وكان قاطع التذاكر قد مر بغير أن يطلب أجرًا عنى، وحسبت أننى أستطيع أن أقف الآن لأبتعد قليلاً عن أخى وعن قفص الدجاج، لكن أمى عادت وأمرتنى بالجلوس لأن المفتش قد يمر.

وعندما وقفت السيارة أمام قريتنا، هبطت أمى أولاً ثم هبطت أنا وأخى قفزًا، وسرنا على الجسر قليلاً وقد ظهرت المنازل.. وتركت أمى وأخى وعدوت بأقصى ما أستطيع إلى منزلنا خوفًا من أن يحسدنى الناس لأنهم لا يرتدون ملابس جديدة كملابسى ولأنى أبيض البشرة أحمر الخدين أصفر الشعر، فإذا رأونى لن يلبثوا أن يقولوا " صلاة النبى، صلاة النبى على عبد الفتاح، شوفوا يا أختى أبيض زى الفل" وسمعت ولدًا يقول:

ـ حاسب يا جدع إنت بتجرى كده ليه!

وقابلنى آخر فتصدى لى وهو يقول:

ـ إزيك يا عبده..

فسلمت عليه بسرعة واستأنفت عدْوِى وهو يصيح ورائى:

ـ يا جدع مالك مكروب كده على بيتكم؟

وعندما دخلت بيتنا وجدت خالتى كفاية تطبخ لنا، وحين رأتنى قابلتنى وهى تقول:

أهلا ، أهلا يابن أختى.

وأخذت تقبِّلنى. وكنت قد علمت من أمى أن خالتى قد لجأت إلى منزلنا لأنها غاضبة من زوجها الذى يشتمها ويضربها كلما ذهبت إليه فى الحقل لتغسل له ملابسه أو تحمل إليه طعامه.. ثم دخلت فخلعت حذائى وثوبى النظيف وارتديت الثوب القديم.. وأخفيت الساعة فى الصندوق الكبير الذى تضع فيه أمى ملابسها.

وعلى الأرض لمحت ابن خالتى صابر وبجانبه أختى سعدية، فاتجهت نحوهما وأعطيت العروس لسعدية ثم قلت لابن خالتى الذى كان يبكى:

- اسكت يا صابر، هديك تعريفة من اللى معاى..

لكنه أمه قالت لى:

- خلى التعريفة معاك وبكرة الصبح خده هات له من العيد حاجة يلعب بيها..

وعندما جاءت أمى كانت العتمة فى المنزل، فأضاءت المصباح البترولى ووضعته فى الطاقة ثم جلسنا نتعشى وقد وضعت أمى الطبق الكبير أمامنا وحوله الحصير مفروشا على الأرض، وكان بالطبق صحون الحساء والعيش وذكر الأوز الذى ربته أمى انتظاراً لهذه الليلة. وكنت جوعاناً لأننى لم أتغد غداء كافيا فى منزل سيدتى، وذلك لفرحى واستعجالى السفر..

فلما أكلت قمت وغسلت يدى- كما علمونى فى منزل سيدى- وجلسنا نشرب الشاى، شاى أول دور، وشربت الكوب الصغير بسرعة، ثم انتظرت ثانى دور وأنا جالس ورأسى إلى ذراعى، بينما كان أخى رجب يلعب مع أختى سعدية وهى تصرخ قائلة:

- يا عيال فطسونى، فطسونى..

فيضع رجب يده على فمها حتى لا تستطيع أن تتكلم، وعندما يتركها تقوم وتضربه.

وأحسست ألما شديدًا من قبضته فصحت فيه لكى يتركنى، وحاولت أن أضربه فلم أستطع، وأقبلت أختى ورجب يقول لها:

اضربيه يا سعدية، اضربيه يا بت..

فقلت لها متوسلاً:

- لا يا سعدية دنا أخوك..

فى هذه اللحظة بينما كنت ممددا وظهرى على الأرض وعيناى تلمحان نجوم السماء، انهال رجب علىّ ضرباً فى جانبى الأيمن حتى أحسست الألم شديدًا كأنه صبغة اليود التى يضعها سيدى على كل جرح أصاب به. فبكيت من شدة الألم، ولو كنت طفلاً صغيراً لصرخت.

وأقبلت أمى عندما رأتنا نتعارك وصفعت أخى على وجهه فبكى بدوره، لكن بطريقة جعلتنى أمتنع عن البكاء ثم أضحك، فمسحت دموعى وأنا أقول له:

تستاهل!!

ولم يكن عمى شحاته بين الجالسين، فاستأذنت أمى لكى أذهب إليه وأناديه ليشرب الشاى معنا، لكنى قابلته فى الطريق، فلما رآنى حيانى وحييته وأخبرته بأنى كنت ذاهباً إلى منزله لأدعوه لتناول الشاى معنا، فحذرنى من الذهاب إلى بيته قائلاً:

إوعى تروح لحسن فيه هناك ناس كتير قاعدين، عشان عاملين ليلة للميتين قريِّب.

فألححت عليه أن يأتى إلى بيتنا ليشرب الشاى حتى قبل أخيراً، وعندما دخل سلم على أمى وهو يقول لها:

- كل سنة وانتى طيبة..

وبينما نحن نشرب الشاى، شاى تانى دور، كان منزلنا يمتلئ بضيوف كثيرين، حتى اضطرت أمى أن تصنع الشاى ثلاث مرات فى تلك الليلة..

كانت هناك امرأة عمى وخالتى ستهم التى تعيش مع جدى ولا يريد أن يزوجها لأحد لأنها تقوم بخدمته. وجلسوا يتسامرون بينما كان النسيم يهب رقيقا رطبا فيشيع النعاس فى أجفانى المتعبة، فانحنيت فى حجر عمى شحاته لأغفو قليلاً، لكن أمى صاحت فى:

قوم يا واد اختشى.

فأجبتها:

وانت مالك، مش عمى؟

فردت قائلة فى فتور:

يا واد عيب.

وأخذ النعاس يثقل على، وأنا أسمع أصواتهم وضحكاتهم كأنما تأتينى من الحقول البعيدة..

وحلمت حلما مفزعاً وأنا بين النوم واليقظة، حلمت أننى فى الحقل مع أمى وعمى، وطلب منى عمى أن أركب على النورج لكنى رفضت فاتجه نحوى يشدنى من أذنى ويحاول إلقائى فى الترعة، وسمعت أمى صراخى وأنا أرتعش، فصحوت منزعجاً ووجدت عمى يوقظنى بينما كانت أمى تنادينى . وكانوا كلهم قد انصرفوا، وقد فرشت أمى الحصير، فذهبت نحوه واستلقيت عليه، وأنا لا أزال أتحسس أذنى. فقد كانتا كبيرتين على عكس وجهى الأبيض الجميل- حتى أن سيدى كان كثيراً ما كان يقول لى عنهما "دول زى ودان الحمار يا واد يا عبده" ثم يشدهما من أسفل حيث تتسعان حتى لأخالهما تنفصلان عن بقية رأسى وأنا لا أعرف هل هو هازل أم جاد.

وبينما كان النعاس يغالبنى كان يقفز إلى ذهنى خليط من الذكريات كان أوضحها هؤلاء الأوغاد الذين يقابلوننى فى شارع البندر كلما أرسلنى سيدى أو سيدتى إلى السوق وهم ينظرون إلى قبقابى وسلتى وثوبى المتسخ ثم يشيرون نحوى قائلين:

ـ أهو الواد الخدام، أهه الواد الخدام ابن الكلب.

فأتألم وأود لو أستطيع أن أرد عليهم بالمثل، لكنى ابتعد عنهم بسرعة. وظلت هذه الصورة تتكرر أمامى حتى استغرقنى النعاس.

وفى الفجر استيقظنا مبكرين، ما عدا ابن خالتى صابر الذى ظل يبكى طوال الليل حتى أن أمه لم تستطع النوم. وغسلت رأسى فى الطشت وأمى تصب الماء من كوز بيدها، ثم أخرجت الكحك استعداداً للذهاب إلى "القرافة" وارتديت ثوبى النظيف وحذائى. كما وضعت ساعتى حول معصمى لكى يراها أولاد البلد. وكانت أمى تنوى الذهاب حافية، لأنها لو لبست حذاءها لتهامس الناس قائلين: شوفوا يا اخواتى سنية فرحانة ازاى.. لكن خالتى كفاية قالت لها: " حتروحى حفيانة، لازم تلبسى، رجليكى تلم تراب، خلى الناس يقولوا اللى يقولوه". وهكذا لبست أمى (الكتانيلة).

وفى طريقنا وقفنا بمنزل عمى فوجدناه ينتظرنا مع زوجه، وقد قطع لنا سعفاً لنضعه على قبر والدى. ثم استأنفنا سيرنا وعبرنا على "النقطة" وعلى خور السيل- وكان الآن شديد الحرارة بسبب الشمس- حتى وصلنا إلى المقابر. وهناك رأيت "ناس الدنيا" ما بين رجال وسيدات وأطفال.

وذهبت أمى وجلست مع الناس قليلاً ثم استأذنت وانفردت على قبر والدى ووضعت فوقه السعف ثم جلست، ولمحت دموعها تنحدر من عينيها فى صمت أول الأمر، ثم أخذت تنهنه، وكانت تتوقف من حين لآخر لتتمخط وتمسح دموعها ثم تستأنف بكاءها من جديد ودموعها تسح منها بغزارة، وانزعجت لبكائها وانتظرت أن تنتهى منه سريعاً، فلما استمرت حاولت إسكاتها وأنا أربت على ظهرها متوسلاً، لكنها كانت كأنما لا تحس بى، فأقبلت امرأة لا أعرفها تقول لها: " اسكتى يا بت. بصى لابنك شوفيه بيقولك إيه" لكنها لم تسكت إلا بعد زمن طويل وأنا جالس أحدق فيها بعد أن يئست من محاولاتى معها، وتمخطت للمرة الأخيرة، ومسحت عينيها بطرف ثوبها ثم التفتت نحوى تقبِّلنى وقد احمرت عيناها احمراراً شديدا وكأنما انتفخ أنفها قليلاً..

وإلى جانب المقابر كان الباعة قد افترشوا الأرض أمامهم ووضعوا عليها اللعب من شخاشيخ وحلقات وبالونات وأساور، كما كان أمامهم خبز وسمك وكنافة وكوكاكولا، فطلبت من أمى أن أذهب إليهم لكنها أمرتنى أن أنتظر قليلاً، بينما كان الشيخ نصر الأعمى يقرأ على مقبرة بجانبنا. فلما انتهى من قراءته نادته أمى قائلة:

ـ تعالى يا عم الشيخ نصر، اقرأ سورتين على حسن وسورة على أختى سعد الهنا.

فأتى وجلس القرفصاء ومضى يهز رأسه هزاً يضحكنى كلما تذكرته.

وعدت أطلب من أمى أن أذهب لأشترى اللعب، فسمحت لى فقمت ووقفت أمام الباعة أتأمل فيما يمكن أن أشتريه وأنا أسأل:

- الكورة دى بكام يا عم؟

- بقرش صاغ.

-لأ بتعريفة.

- يفتح الله.

- طب والشخشيخة بكام ؟

- بتعريفة.

- ادينى اتنين.. والصفارة بكام؟

- بقرش صاغ.

- طب هات صفارتين..

ونظرت فى يدى فوجدت أنه لم يبق إلا قرشان أريد أن أشترى بهما كنافة ومشمشاً، لكن هناك حلق أود أن أشتريه لأختى سعدية، غير أنى نظرت إليه فى أسف وحسرة.. وحملت اللعب وصررتها فى منديل معى، ثم ذهبت إلى بائعى المأكولات فاشتريت كنافة بقرش، وأخذت حملى ذاهباً إلى أمى حيث كانت تجلس مع أقربائنا فأعطيتها قطعة من الكنافة كما أعطيت عمتى وخالتى ورجب وسعدية، ولم يبق لى من الكنافة إلا قطعة صغيرة لكن طعمها كان لذيذا جدا، وأعطيت القرش الباقى لأخى ليشترى لى به مشمشاً.. وكان الشيخ نصر قد انتهى من قراءته، ومد يده نحو أمى، فوضعت فيها برتقالة وثلاث كحكات ورغيفين ثم قمنا عائدين إلى منزلنا..

وعندما وصلنا إلى المنزل ذهبت تواً إلى صندوق الملابس، وأعدت فيه ساعتى قبل أن يعود أخى رجب، ورأيته بعد قليل مقبلاً يحمل معه المشمش، لكنه ما أن فتح المنديل حتى رأيت جميزا! وأنا لا أحب الجميز ولا أذوقه، فزعقت فى أخى وبعثرت له الجميز على الأرض، فالتقطته أختى سعدية.

أما أنا فمضيت أوزع هداياى: شخشيخة لصابر وأخرى لأختى وصفارة لابنة خالتى واحتفظت بصفارة لنفسى. وهز صابر شخشيخته وهزت أختى شخشيختها وصفرت ابنة خالتى فى صفارتها وصفرت أنا أيضاً بصفارتى، وامتلأ المنزل بالضجيج وأخذت أقفز مرحا وهم يقفزون مثلى ويهزون لعبهم، بينما أمى تبتسم وتقول:

- يا رب حوش العين..

وكان الظهر قد أقبل، وأنا أكاد أموت جوعاً لأننى لم أفطر فى الصباح، فقد خرجنا مسرعين إلى المقابر. وكانت خالتى كفاية قد طبخت لنا "المبرومة" فأردت أن آكلها بسكر لكن أمى قالت لى إنه ليس لدينا سكر..

وبعد الغداء كان على أن أعود إلى سيدى بالبندر فذهبت لأودع جدى وعمى شحاته وعمى مسعد.. ثم رافقتنى أمى إلى محطة الأتوبيس وهى تقول لى:

ـ خلى بالك، خليك ناصح، عشان أنبسط منك..

ثم قبلتنى.

وأقبلت السيارة فركبت فيها وأنا أودع أمى، وكنت أغالب البكاء لئلا يلمحنى الراكبون ويرون دموعى فيقولون "إيه المره ده". وكانت أمى قد أعطتنى قرشاً ونصف قرش، ورغم أننى ظللت جالساً فى مقعدى ولم أقف إلا أن قاطع التذاكر حين مر بى أخذ منى النقود، والواقع أنى أنا الذى قدمتها إليه بمجرد رؤيته، ثم أعطانى تذكرة صغيرة حمراء ظلت فى يدى حتى تركت السيارة. وكان الزحام شديداً فى أول الأمر لكن الناس كانوا يهبطون واحداً بعد الآخر.

كنت أعود حزين القلب لأنى تركت أخى يقضى بقية أيام العيد هناك، أما أنا فأعود بعد يوم واحد لأكنس الأرض وأمسح البلاط وأذهب إلى السوق عشرين مرة فى اليوم.

وكانت الصفارة التى اشتريتها فى الصباح لا تزال فى يدى وقبضتى قد امتلأت بالعرق ففتحتها قليلاً لأجففها. وتنبهت إلى أن الساعة ليست فى معصمى، وانزعجت لحظة واحدة تذكرت بعدها أنى نسيتها بصندوق الملابس فى بيتنا، وكنت أحب أن تكون معى الآن..

وعندما وصلت السيارة إلى البندر ، وقفت أمام المنزل الذى أعمل به، فنزلت وحدى لأول مرة بدون أمى، واتجهت نحو الباب الكبير ثم صعدت السلم وطرقت الباب وعندما فتحوا لى استقبلتنى عيونهم وسيدتى تسألنى:

ـ إنت انبسطت يا عبده ؟

وأحسست عينى تغرورقان بالدموع، فقد تذكرت قريتى وأمى وأخى رجب الذى لا يزال يلعب مع سعدية فى العيد هناك. ولمحوا الدموع فى عينىّ وأنا أمسحها بظهر يدى، وتساءلوا عن سببها فى دهشة، ولم أجرؤ أن أقول الحقيقة، وكان علىَّ أن أقول شيئاً يصدقونه، فأجبت من خلال دموعى:

ـ أصل أخويا رجب ضربنى امبارح بالليل..

ثم أضفت من عندى:

ـ وكسر لى ساعتى..

قديس فى حارتنا

كان عم إسماعيل رجلا فيه من طبائع الناس الخير والشر، له لحظات فرحه ولحظات غضبه. وأنا أعرفه منذ زمن طويل ، منذ كنت صبيا ألعب مع أصدقائى فى حارتنا.

وإنى لأذكر كيف راقبنا مجيئه مع عروسه الشابة ليسكنا طابقاً فى حارتنا هذه، وكيف تتبعنا عملية نقل الأثاث، وتعلقنا خلف العربات التى كانت تحمله، وكيف كانت أمى والجارات ينظرن من خلف الشبابيك إلى المراتب الفاقعة والحلل النحاسية والمقاعد المستطيلة الخشبية كأنما يحاولن أن يعرفن قيمة العروسين من نوع الأثاث ومقدار جودته.

وقد سمعهما سكان حارتنا يتضاحكان حينا ويتشاجران حينا كما يفعل معظم الأزواج. لكن مجرد التقائى العارض بهذا الرجل كان أحيانا ما يدفعنى إلى الإحساس بشىء مسيطر كأنما أنا تحت رحمة انفعالاته ونزواته، رغم أنه لم يحدث منه ما يؤيد هذا الإحساس سوى بريق يتخطف فى عينيه لا يلبث أن ينقل القلق إلى عينى.

ولقد حدث ذات يوم أن تشاجر عم إسماعيل مع زوجه الشابة ولم يتم على زواجهما العام، فضربها فى الحائط بعنف، وكانت توشك أن تضع طفلها الأول.. وكما سمعت- فيما بعد- أنها كانت مريضة بضعف القلب. فما دفعها إلى الحائط للمرة الثالثة حتى وجدها قد سقطت بين يديه. ويبدو أن العم إسماعيل قد أدرك أن الأشغال الشاقة- على أقل تقدير- هى جزاؤه فاهتدى إلى حيلة تنقذه من السجن..

إنى واثق أنها لم تكن سوى لحظة من لحظات الغضب الهائل رغم أن أحدا لم يسأل ماذا كان الأمر ولا ما هى أسبابه، ولقد تصنع الجنون أثناء المحكمة، وقرر الطبيب أن به بعض الشذوذ الخطر، فأحيل إلى مستشفى الأمراض العقلية..

نعم، نعم إنى أعرف أن الإنسان يجب أن يكون أكثر ضبطا لعواطفه وانفعالاته، وألا يبلغ به الشطط أن يضرب زوجه الحامل حتى الموت. ومع ذلك فتكاد تكون لكل منا هذه اللحظات. لكن حظ عم إسماعيل - السيئ أو الحسن - هو أن هذه اللحظة قد فرضت نفسها عليه فيما بعد..فرضها هو أولاً على نفسه بتصنعه الجنون، ثم أكده الطبيب وقرار المحكمة ثم وجوده فى مستشفى الأمراض العقلية مدى خمس سنوات. وعلى هذا النحو الذى ما توقعه- كل ذلك أذل نفسه فما أضحى له طاقة للتهجم على أحد.

وحين غادر المستشفى عاد إلى حارتنا يريد أن يؤجر مسكنا بها، فما له ملجأ ولا أصدقاء إلا هنا، وما فكر فى الالتجاء إلى أقاربه ولا أن يعرفوا عنه شيئا لأنه كان يخافهم، فقد كانت زوجه التى قتلها ابنة عمه. ولم يجد سوى غرفة بمنزلنا تجاور السلم.. وطفق يبحث عن عمل..

كان يبدو متبرما بالحياة خائفا من وجوده. ما يكاد يبدأ العمل حتى تجرى وراءه الحقيقة المخيفة أنه كان فى مستشفى الأمراض العقلية، وأنه ذبح زوجه الحسناء، وفى رواية أخرى أنه أكل منها. وما تكاد الحقيقة والإشاعات معها تصل إلى مقر عمله حتى يخشى كل فرد أن يلحق -دون غيره- بمصير الزوجة إذا غضب معه إسماعيل وانفرد به فى زاوية هنا أو هناك. ويبدأ التهامس حوله والعيون تحدق فى جزع منه. فما الهدوء والتجهم اللذان يكسوان وجه الرجل إلا الرماد الذى يخفى وراءه الجنون واللامعقول، أو المهلك والمخيف. وما ينقضى الشهر حتى يعى عم إسماعيل ما يشاع حوله، ولا يعود يطيق العمل والمكان فيتركه باحثاً عن غيره..

وهكذا أصبحت حياته قلقاً وتجوالاً، فإذا كان المساء دخل إحدى الحانات، فلا يكاد يستقر بها حتى يسمع همسا يعلو حتى يصبح لغطاً ، فإذا شرب كأسا أو كأسين صاح فى الجميع: والله العظيم لست مجنوناً، أبداً لست مجنوناً.. وبذا أخذت حاله تسوء.. وكلما حاول أن يقنع أحدا بأنه كان مجنوناً فى يوم ما، كان هذا دليلا جديدا لدى مستمعه على جنونه حتى ليخفى ابتسامة تكاد تنفرج عنها شفتاه. وقد يجلس إلى أحدهم يحدثه فيتقبل الرجل حديثه ويناقشه، حتى إذا أدرك من خلال الحديث أن هذا ليس سوى عم إسماعيل الذى ترامت إليه الأقاصيص عنه، حدق فيه محدثه وهز رأسه، فقد فقدت الكلمات فجأة معانيها وكأنما أصبحت تخرج من رأس فارغة. وهذه اليد قد تمتد إليه فى أية لحظة لتذبحه ثم تأكله، فيتحين أول فرصة ليتخلص منه. وهكذا كان وجوده فى مكان ما معناه فزع خافت يشوب طمأنينة الناس وأمنهم، وإثارة خفية لكفاح داخلى بأن هذا الرجل لا يثير الضر ولا يدعو إلى الريبة لكن جواره لك بالرغم من ذلك يستلزم كثيراً من الحيطة والحذر.

فى هذه الأثناء كنت قد كبرت وتزوجت وأنجبت لى زوجى طفلاً ثم طفلين. ولم يكن عم إسماعيل يقص علىَّ ما يعانيه قليلاً ولا كثيراً، لكنى كنت أحيانا ما أسمعه من آخرين وأحيانا

ما أشاهده بنفسى.. وأعتقد أن عم إسماعيل كان يدرك أننى لا أصدق قصة جنونه. وكان إدراكه هذا من خلال الأحاديث القليلة التى نتبادلها أحياناً، ومن خلال نظراتى وحركتى المطمئنة الدائمة إلى جانبه وأنا أدخل وأخرج من مسكنى الذى يحتل هو غرفة خارجية منه.

لكن حدث ذات يوم أن عرض لى كتاب يبين فيه مؤلفه أن ليس بين الجنون والتعقل حدود فاصلة، وثمة تدرجات دائمة بين الصحة والمرض كالتى بين البرودة والسخونة، وأن أكثر المجانين تكون تصرفاتهم سليمة فى كل شىء إلا فى شىء واحد إذا أثرتهم فيه بدت عليهم أعراض المرض.. فلماذا لا يكون العم إسماعيل مجنوناً بهذا المعنى إذن؟ أن أحداً لا يشير أمامه إلى حادث زوجه والجميع يتجنبون ذلك بحدسهم، وإذن فأنا أعرف الجانب المجنون فى العم إسماعيل..

وقد حدث بعد ذلك بأيام قلائل أن جاء عم إسماعيل وأنا مستلق مسترخ على مقعدى المتأرجح يسألنى على غير عادته ما إذا كان هو حقاً مجنوناً كما يقول له الآخرون. وكان يبدو عليه يأس وألم هائلان، والبريق القلق قد ازداد تألقاً فى عينيه، حتى أننى أحسست الخوف الحقيقى لأول مرة حين نظرت فيهما.. ولم أستطع أن أعرف من ذا الذى أثار هذا الاضطراب العميق فى حياة الرجل، لكن خوفى منه جعل بى رغبة حقيقية وخطره إلى تصديق كل ما يقال عنه. ويبدو أن كل ما كان يرغب فيه هو أن أنفى عنه التهمة ببساطة، لكننى لم أفعل ، بل قلت له فى سذاجة كل ما قراته أخيراً فى الكتاب، حاسباً بذلك أننى أوضح له أن ليس ثمة شىء اسمه الجنون بالمعنى الذى يفهمه الناس، لكنه فهم أننى أردت أن أخبره بطريقة غير مباشرة أنه كان على درجة من درجات الجنون..

ويبدو أن أعماقنا تتكشف مهما أردنا إخفاء ما بها، فأنا فى الواقع ما نقلت إليه إلا إيمانى الذى تزعزع فى تعقله..

منذ ذلك اليوم قرر عم إسماعيل مغادرة دارنا واتخاذ الخرابة المجاورة مسكنا له رغم ما أبديت له من شديد الاعتراض، وهو اعتراض كنت أود فى أعماقى ألا يستمع إليه، فما عدت أطمئن منه على زوجى وأولادى. ولم يكن قد أفلح فى الاستقرار فى وظيفة ما.. وكانت حالته المالية قد ساءت. وكما أنى كنت آخر من فقد ثقته فى الرجل فيبدو أننى أيضا كنت آخر من فقد فيهم الرجل ثقته. وهكذا انفصل عن عالم العقلاء حيث أنى كنت فى الواقع الخيط الأخير والوحيد الذى يربط بينهم وبينه، وأصبح يتعيش من الشحاذة. ومع ذلك فقد ظلت غرفته بدارنا زمنا وهى لا تزال له، يلجأ إليها فى الليالى العاصفة الممطرة. وأصبح جنونه هو أن ينفى عن نفسه تهمة الجنون. ولم يعد يعرف الواحد أكثر من الآخر، فقد استوى لديه الأصدقاء والغرباء وأصبح يحس أنهم جميعاً من عالم الآخرين، مجرد وجودهم أمامه معناه اتهامه بالجنون، فيدافع عن نفسه بكلمات يدهش لها من لا يعرفه. وهو يحس كأنما هناك

خطر هائل يوشك أن ينقض عليه ويمكن لهذه الكلمات أن تدفعه عنه حتى يعبر بعيداً. وكنت أحيانا ما أطل من نافذة بيتى على المنزل الخرب، فأرى عم إسماعيل يقوم من فراشه المهلهل ويطبقه فى عناية، ثم يشعل النار وقد وضع أحطابها فى مكان لا يصل إليه البلل ولا المطر إذا كان الوقت شتاء، ثم يحمل الماء ليعد الشاى ، ثم أشاهده يخرج حافظته ويعد قروشه ومليماته، ثم يبتسم ابتسامة كلها طمأنينة وارتياح حتى لأحس أن العالم كاذب، وأن جنونه فكرة فى رأس الآخرين، وها هو ذا فى وحدته كأعقل ما يكون وأقدس ما يكون. وهكذا بدأ اتجاهى الجديد نحوه..

ولقد مات لى طفل، وأنجبت لى زوجى طفلاً آخر، وأنا مشغول بعملى وقضاياى لكن لا يزال عم إسماعيل يحتل من تفكيرى جانباً كبيراً مهماً.. وهكذا كان علىَّ أن أقود سكان الحارة من ورائى نحو هذا الاتجاه الجديد.. وكانت محاولة متواضعة ، لا يتعدى أن نوفر له طعاماً أفضل وفراشا أفضل، وكان أول من آمنت بفكرتى هى زوجتى التى جعلته يشاركنا بعض طعامنا فترسل إليه مما نأكل بغير أن يعرف. وشاركنا فى ذلك بعض سكان الحارة.. لكن الأمور لم تلبث أن وصلت إلى أبعد مما كنت أظن..

فقد أخذ عم إسماعيل يصبح أكثر هدوءاً وأكثر تأملاً كأنما هو على وشك مشروع خطير، وانطفأ من عينيه قليلا قليلا ذلك البريق القلق، وأصبح أقل دفاعا عن نفسه كأنما جنونه يستحيل إلى نوع من البله. أما سكان الحارة فكانوا يرون تغيرا حقيقيا وجديا ومجهولاً يوشك أن يحدث فى حياة الرجل.. صارحنى بذلك المعلم دعبس صاحب المقهى، وصارحتنى بذلك جارتنا القابلة الست أم دهب، ثم صارحتنى بذلك زوجى نفسها..

وهكذا مضى سكان الحارة يكتشفون القديس فى المجنون، وكان ذلك الاكتشاف بطيئا كأنه مقصود فى أول الامر.. والواقع أن عم إسماعيل لم يمر بفترة العبط إلا وقتا قصيرا جدا، فقد أصبح سكان الحارة أكثر احتراما له وتفاؤلا به . يتحينون الفرصة لتقديم شىء من ضروراتهم له، يكفرون بذلك عن خطايا كثيرة متشعبة ومختبئة فى نفوسهم.. وقد منحته لحيته التى دب إليها البياض شيئا من مهابة. ثم سرعان ما أسرعت الأمور أكثر مما توقعت.

فقد حدث فى إحدى وقفات عيد الأضحى أن رأت جارتنا أم نادى فى منامها رجلاً بثياب بيضاء من قمة رأسه إلى أصابع قدميه، يطلب منها فى صوت أجش أن تقاسم هى وزوجها عم إسماعيل ما يأكلانه من لحم العيد، وبذلك تنال أمنيتها..

ولم تكن جارتنا أم نادى عاقرا بالمعنى التام، فقد أنجبت فى أوائل زواجها أربعة أطفال كان أولهم نادى، ماتوا جميعهم ولما يتموا العام، ثم انقطعت عن الولادة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً حتى أوشكت أخيراً على اليأس الخالص الذى لا يشوبه قلق ولا شبه قلق.

فلما كان الصباح أذاعت القصة بين جاراتها، وحرصت أن تنفذ ما تلقته من أمر فى المنام، فكنا نراها من شرفة بيتنا وهى تضع له الطعام ثم تمر بنا تزورنا لحظات لتروى لنا القصة من جديد، ثم تخرج مسرعة وهى تضع أطراف ملاءتها بين أسنانها.

ولقد مضى شهر وشهر ، فلما كان الشهر الثالث تحققت لأم نادى معجزتها، وبدأ اهتمامها واهتمام حارتنا بشيخنا إسماعيل وثمة مسحة من القداسة أخذت تشيع على وجهه وتضىء روحه، وأم نادى دائبة تحمل إلى الرجل صنوفا من الطعام وألوانا من الأقمشة المزركشة، فما اكتمل عام على حلمها حتى ولدت جارتنا طفلا أبت إلا أن تدعوه باسم إسماعيل، وقد أشفق بعض الخبثاء والمتشككين من الشباب أن يموت الطفل ولما يتم العام، لكن العام مضى والطفل فى صحة وعافية..

هنا فقط آمن جيراننا بشيخنا وبقدرته ، ووفدت نساء الحارات الأخريات يلتففن حوله يتبركن به ويطلبن المعونة منه.

وكنت أنا أرقب كل هذا وألحظ كيف يكافح المجنون فى حارتنا حتى يلتقى بالقديس. فقد بدا على الشيخ إسماعيل أنه بدأ يسلك طريقا صارما ويأخذ نفسه بألوان من الالتزامات كأنما يجاهد فى سبيل الحصول على شىء حقيقى وضرورى لوجوده.. ثم ما لبث أن احتل الميدان الصغير الحائل الذى يفضى إلى حارتنا والتفح بمجموعة من الخرق المزركشة التى خاطتها له جارتنا أم نادى، ووضع حول رقبته سلسلة ضخمة كالتى يقيدون بها الأشقياء، ثم مضى يدور فى الميدان من الصباح حتى المساء وهو يردد آيات الله وأسماءه الحسنى ويعبث بين أصابعه بمسبحته والناس يتحدثون عن معجزاته وعن كراماته، فثمة من تُشفى وثمة من تلد وثمة من يعود إليها زوجها وكان قد انتوى طلاقها. ولقد أتت الحرب ودوت صفارات الإنذار وكان سكان حارتنا جبناء يفقدون أعصابهم ويلجأون إلى ما يشبه المخبأ باكين مولولين وشيخنا إسماعيل قابع فى خرابته لا يتحرك، وحارتنا لا تُمس. وفى اليوم التالى يذيعون أن هذا أيضا كرامة من كرامات الشيخ..

وحدث ذات يوم أن سافرت مع أسرتى إلى شاطئ البحر، وأنا أقص لأكبر أبنائى ما يشاع عن كرامات الشيخ ومعجزاته فلما عدنا وجدناه قد اختفى وهم يجمعون النقود ليقيموا له ضريحا فى الخرابة حيث أمضى حياته.. وثمة من يقول إن المسئولين أرغموهم ألا يدفنوه هنا لكن جثته اختفت من مقبرتها بعد أيام قلائل من دفنه، وهذه معجزة أخرى من معجزات الشيخ ودليل على رغبته الأكيدة أن يقيم بين سكان حارته..

ولقد استولت الأوهام حينا علىّ وهم يوشكون أن يبنوا الضريح بجانب بيتى، فكنت أنصت فى الليل علنى أسمع صراخ زوجه -الذى سمعته وأنا طفل خلال أحاديث الناس ورواياتهم - يعود مولولا مرتفعا فى الليل..

لكن حدث ذات يوم أن اشترى شخص قطعة الأرض، ولم يكن صاحبها من أهل حارتنا، فحطم مشروع الضريح.. وشاهدناه ذات يوم وهو يقبل مع أحد المهندسين ليعاين الأرض وكان يبدو عليه أنه من رجال الأعمال الذين لا يملكون وقتا للضياع، ورمى الحارة بنظرة من خلال نظارته، ولم يجرؤ أحد من أهلها أن يتحدث إليه.. ومضى يقيم عمارة ضخمة فى حارتنا الصغيرة المتواضعة .. ودخلت سيارات النقل تحمل الإسمنت والحديد والخشب.. وما لبث أن وفد ساكنون من نوع جديد وغريب أشاع القلق والاضطراب فى الانسجام الطيب الذى ظل يسود حارتنا زمنا طويلاً.

وليس هناك سبيل للمقاومة، فلقد تقدمت بى الأيام، وكونت بعض الثروة، وهأنذا أنوى أن أزوج ابنى فى الأيام القليلة المقبلة مقترحا عليه أن يستأجر مسكنا فى العمارة الضخمة المرتفعة التى تقوم حيث التقى المجنون " بالقديس"..

سرقة بالطابق السادس

ـ سطا لص ـ أو لصوص ـ فى صباح أحد الآحاد على غرفة سيد أفندى عامر .. ومع أن اللص -الذى لم يقم أبدا ببحث جَدِّىٍّ عنه -ربما لم يكن شديد الرغبة فى هذه السرقة بالذات، إلا أن النتائج التى ترتبت على هذا العمل العارض أخرجت سيد أفندى عامر بعض الشىء عن نظامه المتكرر المألوف وأضافت إلى طبيعته أثرا كان له فى حياته صداه ..

وقد اكتشف أمر هذه السرقة حين عاد فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر من المدرسة الابتداىءية التى يعمل بها .. فقد صعد ـ كعادته ـ درجات السلم التسعين ، ولمح السيدة الإيطالية البدينة وهى أمام بابها بالطابق الخامس وقد صرفت لتوها بائعا يحمل قفصا فوق رأسه ، وكانت تهم بإغلاق بابها عندما أوشك أن يحاذيها فى طريقه إلى غرفته بالسطح أو بالطابق السادس كما شاء أن يسميه .. فمر بها صامتا لأنه ما حاول أن يحييها منذ جمعهما هذا المنزل .. فلما وصل أمام غرفته توقف قليلا ليجفف عرقه ، ثم أخذ يفتش جيوبه بإحدى يديه ، وكان دائما يبدأ بالجيب الأيسر، ثم يستخدم كلتا يديه ، ويفكر فى سرعة كأنما فى غير شىء، حتى إذا وصل إلى الجيب الداخلى وتحسس صلابة المفتاح ، تحايل عليه حتى يخرجه ويولجه فى الباب .. وقد أداره الآن مرة بل مرتين ، ثم دفع الباب فانفتح أمامه فى هدير خافت. وكان سيد أفندى يعرف غرفته معرفة جيدة رغم ما بها من فوضى ، لهذا سرعان ما أحس حين دخوله أن هناك نقصا بها .. وقد تملكته فى أول الأمر لحظة من الغباء كأنما نسى شيئًا لا يستطيع أن يتذكره ، وتوقف تفكيره ولم يستطع أن يقدم أى إيضاح ، لكنه أدرك الحقيقة التى حاول تأجيل إدراكها ، حين وجد أن الحلة الرمادية الجديدة والحذاء البنى القاتم قد اختفيا من مكانهما ، أما أدوات النحت والرسم فقد تركها اللص ـ كشأنها ـ مبعثرة.. فتمتم الرجل بضع كلمات كأنه يستعيذ بشىء من شىء ..

وكان ثمة امرأة فى حياة سيد أفندى عامر قد احتلت الجانب الدينى منها .. فهو ما يفتأ يتمتم باسمها كما يتمتم المؤمن بصلاته .. وكان بينهما ما يشبه الحب فيما مضى ، فلما افترقا وتزوجت ـ وأنجبت الآن أطفالا ـ أصيب سيد أفندى عامر بما وصفه الناس بأنه (هوس) فأصبح قليل المشاركة فى الحياة الاجتماعية ، كثير الشرود والرغبة فى النوم، يصاحب صديقته وتصاحبه فى منامه ومأكله وروحاته وغدواته وكأنما تحولت كل طاقات الشعور الدينى نحوها ، فهو يستلهمها فيما يعتزم عليه من أمر ، ويستشيرها فيما يجد له من أمور ، وقد كرس لها كل قوى التصوف فى روحه حتى ما عاد يحس أن حياته اليوم إلا طريقا دائما نحوها، وجهدا دائبا للحصول المتجدد المستمر عليها .. فلما أقبل ذات عام على زملائه المدرسين ليعمل بينهم كانت حياته الداخلية قد رسمت منهجها وقد بدت لهم آثار منها فى حركاته وتصرفاته .. فهو منصرف عنهم وهم منصرفون عنه.. يضمرون له ما يشبه عدم الحب لأنه مشغول بنفسه عن الإنصات إليهم وتقدير شخصياتهم ومدح أعمالهم ، ويرضون فى أنفسهم ما يشبه الثأر بما يتهامسونه مِن ملاحظات على طريقة لبسه الطربوش وهو يكاد يصل إلى أذنيه كأنه أحد باشوات القرن التاسع عشر ، وعلى نعاسه الدائم فيما بين الدروس بل فى داخل الفصل نفسه أمام تلاميذه، وعلى طريقة مشيته التى تكاد تكون حركة آلية لاسيما وهو يُرى قادما يهز يديه إلى جانبه كأنه لعبة من لعب الأطفال الخشبية ..

وكان سيد أفندى عامر فى أشد لحظات تعبه الآن ، فهو شديد الرغبة فى النوم ، يحلم بهذه العودة كلما خرج فى الصباح ، فلا يكاد يعود إلى غرفته حتى يستلقى على السرير ببذلته وحذائه ثم يذهب فى إغفاءة عميقة لذيذة لا يفيق منها حتى بدء هبوط الليل .. لهذا شد ما استاء حين أخذ يتكشف له ما حدث بغرفته ، وساءه أن يختار اللص هذا اليوم بالذات ، لأنه ما كان يريد لشىء أن يعكر عليه هذا الصفو الذى يحسه وهو مقبل على إتمام محاولته التى بدأها بالجبس منذ الأمس .

وما كان لأحد أن يفطن إلى أن هذا الحالم المستديم يمكنه أن يشغل نفسه بأمور الرسم والنحت .. ومع ذلك فلم يكن هذا شاذا ولا مستغربا ، فأنا أعرف مثلا تاجرا معنيا بأمور الرسم بحيث إذا شاهدت لوحاته حسبتها مسروقة من متحف عالمى ، كما أعرف آخر ـ وهو موظف للبريد بإحدى القرى ـ ما يكاد يفرغ من ساعات عمله حتى يفرغ لصنع تماثيل رائعة من الجبس .. لهذا فليس من المستبعد أن يكون سيد أفندى عامر أحد هؤلاء الأشخاص الذين يلبى لهم الفن حاجات شخصية وضرورية فهو يُشعرهم بوجود حياة خاصة لهم إلى جانب هذا العمل المتكرر اليومى العام الذى يؤجرون من أجله حياتهم للآخرين لقاء مرتب يأكلون به ويشربون وينسلون ، لا يستهدفون الشهرة ولا عطف الجماهير بل يكون الفن لديهم مجرد شعور بالقدرة على الإحاطة والتعبير والإبداع.

ولقد طرق سيد أفندى عامر هذا الطريق لأنه أخذ يحس أن الأيام كلما أوغلت به أخذت معبودته تضل أمام عينيه ، فهى تستحيل شيئا فشيئا -وفيما يشبه الذوبان الهادىء -إلى مجرد شعور ضبابى ، حتى ليكاد يمازجها الكثير من طبيعة الفراغ .. ولم يستطع سيد أفندى عامر أن يواجه هذا التيه الفسيح الحر المقبل نحوه ، بل أصر على أن يظل ملامسا لشىء متجمد محدود كأنما استيقظت فيه قوى المشاعر الوثنية بعد ما عبر هذا الطريق الصوفى الشاق .. فحاول أن يستعجل حصوله على معبودته فى خطوط وألوان ثم فى الجبس المتجمد فيما بعد ..

وكان الآن فى حاجة إلى إيضاح ، مجرد إيضاح سريع لما حدث ثم ينتهى كل شىء .. فعاد يهبط مهرولا حتى التقى بالسيدة الإيطالية وهى تفتح الباب من جديد لأمر ما .. فحدثها لأول مرة فى حياته متسائلا عما إذا كانت (المدام) قد رأت أحدا يدخل غرفته التى اختفت منها بعض الأشياء .. وصاحت السيدة فى انزعاج :

خرامى خرامى ؟ هل أخبرت البواب ؟ ..

ثم أطلت من حاجز السلم ونادت بصوت رفيع زاده الانزعاج رفعا وهو يرن فى أرجاء المنزل:

- يا عبده ، يا عبده ..

وأقبل عبده مهرولا ، وخرجت جلوريا ابنة السيدة الإيطالية -وهى شابة ذات جمال رائع - تسأل عن مثار الضجة .. فلما علمت بالخبر التفتت فى شىء من الإشفاق نحو سيد أفندى وهى تجامله متسائلة عما سرق اللص منه بلكنة أعجمية لذيذة .. ولم تكن قد حدثته من قبل ، مع أنه كثيرا ما يلتقى بها صاعدا درجات السلم أو هابطا عليها ، فيبدو أن حركة يديه الآلية وطربوشه اللاصق بأذنيه ما كانا يشجعانها كثيرا على تحيته ، كما أن جسدها الأبيض المصقول المتين البنيان كان كلما حف به أحس بشىء من الذلة إزاءه ، فيغض من بصره وتصبح حركته الآلية أكثر انتظاما ، ويزداد على طربوشه ضغطا حتى يجاوزها .. أما الآن فقد أصبح موضوع اهتمام وإشفاق مما قد يتيح له أن يحييها وتحييه مرات فيما بعد ..

وعلى صوت اللغط خرج ساكن الشقة المقابلة ، وهو رب أسرة ، ويبدو أنه موظف كبير بإحدى الشركات .. ولم تكن له أية صلة سابقة بسيد أفندى عامر ، بل إنه ما كان يخفى وجود ابتسامة تكاد تلوح على شفتيه كلما لمح سيد أفندى عامر صاعدا أو هابطا كالأوزة البلهاء .. وقد أقبل الآن مستفسرا عما حدث ، فلما سمع الخبر صاح متسائلا :

- وهل أبلغت الشرطة يا سيد أفندى ؟

وأحس سيد أفندى بألفة غير متوقعة حين ناداه هذا الموظف الخطير باسمه ، ولكنه أحس بلون من الضيق حين جاء ذكر الشرطة فليس بينه وبين اللص كره حقيقى بل مجرد عتاب ،

وليس فى نيته أن تبلغ المسألة هذا المدى ، بل إنه ما كان يريد أن يثير هذه الضجة التى تحدث الآن ويتوسطها هو بالرغم منه ، لكنه وجد السيدة الإيطالية تؤيد كلام الموظف وترجوه أن يسرع فيكتب بلاغا إلى البوليس ..

وكان سيد أفندى شديد الرغبة الآن للعودة بأسرع قواه إلى غرفته لينام .. لكنه أدرك أنهم لا يريدون المسألة أن تمر فى غير جلبة .. ولقد جاء رابع وخامس وسادس يعرف سيد أفندى وجوههم ولا يعرف أسماءهم أو أعمالهم ، وقد أصبحوا الآن جميعا فى خدمته : فأحدهم يحدثه عن ضرورة استعمال حقه القانونى ، ولابد أن يكون هذا محاميا، والآخر يتحدث عن ضرورة الاقتصاص من اللص وإلا جرؤ على اقتحام المنزل مرة أخرى ، وربما يكون هذا أحد الذين يخافون على أموالهم وأنفسهم ، وبيد سيد أفندى الآن أمر الدفاع عن أمثاله .. وقد أقبلوا نحوه يلاطفونه ، ويستأذنه أحدهم أن يصعد إلى غرفته ليعرف كيف دخلها اللص رغم إغلاقها ، ويسأله آخر أن يقدر له ثمن الأشياء المسروقة ، بينما تطوع ثالث أن يصحبه إلى مركز الشرطة لإبلاغ المختصين .. وقد حاول سيد أفندى عبثا أن يحملهم على العدول عما يطالبون له .. لهذا ما لبث أن وجد نفسه فى الطريق إلى مركز البوليس ..

* * *

ولم يكن قد دخل من قبل مركزا للبوليس ، لهذا كان يجتر أثناء عودته ما رآه هناك .. فثمة شرطة وثمة قضبان ورجال ونساء ، والرجل المنحنى وهو ما ينفك يغمس قطعة من القماش القذر الممزق فى سطل قد امتلأ بماء أسود ثم يعود يمسح بها على الدرج الأبيض ، ثم الرفوف المزدحمة ببنادق لا تكاد تنتصب إلا لتنحنى .. وألوان من المفاتيح المدلاة كأنها مشانق صغيرة يمكن أن يلهو بها الأطفال فى عيد ما ، وصفوف من السلاسل والقيود المعتمة البيضاء حتى لكأنما هناك صليل خافت يملأ المكان ، ثم تثاؤب طويل طويل ..

فلما وصل إلى المنزل وجد البواب أمامه كأنما يقفز من العدم وهو يسأله عن مدى الخسائر ، فأجابه سيد أفندى فى اقتضاب وفى شىء من الزهو :

ـ قدرناها بسبعين جنيها .والحمد لله على كل حال ..

فصاح البواب منفعلا :

ـ سيقبض البوليس بلا شك على هذا اللص ابن ..

ثم تساقطت لعنتان سمع سيد أفندى أصداءهما وهو يعلو السلم ، فلما بلغ الطابق الثالث لمح ساكنا يهبط فانحرف ليفسح له مكانا ، لكنه ما لبث أن رأى الساكن يعترضه ليستوقفه متسائلا :

ـ هل قبض البوليس على اللص يا سيد أفندى ؟

وعجب سيد أفندى من معرفة الرجل به وبقصته وبالمهمة التى كان يقوم بها الآن، فأجابه فى شىء من الخجل والتواضع :

ـ أرجو أن يقبض عليه ..

فأجابه الساكن متحمسا :

ـ بل سيجد المسروقات كذلك حتما ..

ـ أشكرك على شعورك يا أستاذ ..

ثم مضى صاعدا ، حتى إذا ما بلغ الطابق الخامس لمح السيدة الإيطالية البدينة بانتظاره ، وما أن لمحته حتى ابتدرته متسائلة عما فعل فلما أجابها وهم يستأنف صعوده سمعها تناديه :

ـ يا سيد أفندى ..

ـ نعم يا مدام ..

ـ أظنك فى حاجة إلى بعض الملابس مؤقتا .. وهاك بعض الملابس الخاصة بزوجى يمكنك استعمالها فهو يمكن أن يكون فى غنى عنها..

ثم لوحت له بمجموعة الملابس فى يديها .. فاللص قد أخذ كل ملابسه الداخلية والخارجية ولم يترك له سوى تلك التى يرتديها .. وقد رفض فى أول الأمر ما عرضته عليه السيدة لكنه ما كان يعرف فى الواقع كيف يمكن أن يستمر حتى نهاية الشهر على الأقل بدون ملابسه ، فهو لا يزال فى اليوم العاشر منه وقدَ أنفق كل مرتبه ولا يعيش من الآن إلا بالدين ، فهو يأكل ويشرب ويتحرك (على الحساب) وإن استطاع أن يعيش فى ملابسه هذه أسبوعا أو أسبوعين للضرورة فمن العسير عليه أن يستمر بها حتى نهاية الشهر .. ورأى السيدة تصر على عرضها ، فهى لا تجد منه مانعا حقيقيا سوى الخجل ، فقبل أخيرا أن يأخذ منها بعض الملابس ثم يشكرها وينصرف صاعدا إلى غرفته ، وقد تملكه إحساس حائر ما بين شعور بالزهو وشعور بالاستشهاد وشعور بالجميل وشعور بالارتباط بأشخاص كرماء أسخياء .. لكنه يود لو يظل بمنأى عنهم ، فكل علاقة إنسانية ترهقه ، ويكفيه ما لقى من علاقته الأولى فى فجر شبابه وهى لا تزال تغذيه بمشاعر العبادة والخوف والقداسة والخطيئة ، فما أن دخل غرفته حتى استلقى على الفراش ومضى يرخى جفنيه ويغمض عينيه حيث تطمس له الظلمة ما حدث وما عساه يحدث .

وكان هبوط الليل يملؤه كآبة ، ويشيع فى نفسه ألوانا من الأحاسيس المرتجفة الأسيانة ، فكان كلما استيقظ عند هبوط الليل هرب من نفسه ومضى يبحث عن وسيلة بها يقتل ساعات الليل البطىء الطويل الممل ، وكان أخشى ما يخشاه هو أن يعود مبكرا بعض الشىء ذات ليلة

فيأرق ويجد نفسه أمام نفسه زمنا لا يعرف متى ينتهى ، حيث تنبعث أمامه الرؤى والأساطير والعالم المزدحم بالعمالقة والنساء ، وبماضيه المتعرج الكئيب .. ولربما كان لهوايته بالرسم أو النحت أن تستبقيه بغرفته ، إلا أنه كان يفضل أن يتفرغ لها فى صباح عطلته الأسبوعية طالما هو لا يحس دافعا ملحا إلى الانصراف إليها.

وفيما عدا ذلك لم يكن يعرف وسيلة واحدة مجدية من بين الوسائل الكثيرة التى اصطنعتها حضارتنا لقتل الفراغ ، لم يكن يعرف النساء .. لا مضاجعتهن ولا حبهن ، بل كان يخشاهن ويخشى المجتمع المزدحم بعطرهن وعيونهن .. ولم يكن يعرف طريقة إلى إحدى هذه الوسائل المنتشرة والتى كان يمكنه أن يتعاطاها فيعيش ذاهلا عن نفسه نصف حياته بل حياته كلها إذا شاء .

كان فى المقهى خلاصُه المؤقت ، تتجدد حاجته إليه بتجدد اليوم وما يحمله اليوم من كآبة جديدة تظل تثقل عليه شيئا فشيئا، فإذا هبط الليل تبلورت هذه الكآبة فى روحه وغمرت نفسه، فتفرزه غرفته إلى ذلك المكان الصاخب المزدحم ، ينتحى فيه جانبا مكتفيا بمشاهدة الآخرين وهو يحتسى قهوته ويفكر فى خليط رائع فظيع ..

وكان المقهى الذى تعوَّد أن يجلس فيه سيد أفندى عامر ، مقهى شديد الاستطالة شديد الانخفاض كأنه كابوس ، والناس يجلسون فيه ومن حوله مبعثرين فى ارتخاء كأنهم بقايا جذور لشجرة هائلة مقطوعة .. وكانت أضواء المقهى قليلة مبعثرة صفراء تكاد تميل إلى الإظلام لولا أضواء الإعلانات وهى تعكس وهجا قلقا متلونا متقطعا يفيض على المكان لونا من الذهول المرهق المستطيل ، وقد التصق الناس بمقاعدهم والتمعت وجوههم وتركوا أقدامهم أمامهم مدلاة كأنهم ملل متكاثف أسود . أو كأنهم ذباب أليف قد اطمأن إلى قضاء ليلة فى هذا المكان..

وقد اقترب سيد أفندى عامر فوجد الخدم كعادتهم يتنقلون ويزعقون وينحنون ويبتسمون والقوم يتثاءبون ويتهامسون ويلعبون ويصفقون ويقهقهون وينصرفون ويقبلون، وهو يبحث عجلا عن أقرب المقاعد إليه كأنما يخشى أن يفقد نفسه وسط هذه الزحمة، حتى اطمأن إلى منضدة رخامية بيضاء تكاد تنحنى عليها من كل جانب تلك المرايا التى ازدحمت بها جدران المقهى فضاعفت من عدد الناس ، وهى تفتح أمامهم ـ وخلف الجدران الجامدة ـ سراديب وهمية لا نهائية ، وقد لمح وجهه متكررا مرتين ثم ثلاث مرات ، فوجده أصفر شديد الامتقاع، تكاد تغور فيه عيناه وتبرز منه وجنتاه كأنهما على وشك أن تغادراه ، فما لبث أن حوَّله عن هذه العيون الزجاجية الميتة ، والتجأ إلى رخام المنضدة الأبيض المصقول .. وأحس بظهره أن هناك منضدة خلفه قد انحنى فوقها رجل وامرأة فكونا ما يشبه القوس المتعرج .. وأن ثمة صوتا لا يستحبه لكنه يعرفه ، فالتفت قليلا إلى الوراء بنصف وجهه وجسده ثم تحاشى أن يحدق فى

الرجل تأدبا لوجود المرأة معه ، وكان صوتها واضحا ليس فيه كثير من الحذر رغم طبيعة الحوار القائم بينهما ، ثم قهقهت المرأة قهقهة رفيعة متصلة ، وحملت لفائف أمامها وغادرت المقهى ..

وتثاءب الرجل فسرت العدوى إلى سيد أفندى وتثاءب هو الآخر ، وكان هذا سببا كافيا لأن يتنبه أحدهما إلى وجود الآخر، فما لبث أن ناداه الرجل ، وفى الحال عرفه سيد أفندى فالتفت إليه فإذا هو زميل له بالتدريس كثيرا ما يتشدق بمغامراته واطلاعه ، يتجنبه سيد أفندى لأنه يحس بأن هذا الرجل يضمر له لونا من الاحتقار لسبب لا يعرفه وإن كان لا يذكر حادثة بها يؤيد إحساسه .. ورآه سيد أفندى وهو يستأذنه فى الجلوس إلى منضدته وينادى الخادم ويبتسم ويطلب قهوة له .. وأدهشه الا يجد شيئا من السخرية على وجه زميله بل رغبة حقيقية للحفاوة والإكرام ، ثم وجده ينحنى عليه قليلا وتتخذ عضلات وجهه لونا من الجد ، وهو يهمس فى أذنه قائلا :

ـ سمعت أنك سُرقت ..

فلما بلغ الليل ساعة متأخرة كان قد تجمع حول منضدته نفر غير قليل ، بعضهم ممن يعرفهم من قبل معرفة عابرة ، وبعضهم ممن لا يعرفهم أبدا .. وقد بالغوا جميعا فى إكرامه كأنما يحتفلون بزواجه أو عيد ميلاده ، هذا يعرض عليه أن يقرضه شيئا من النقود ، وذاك يقدم له سيجارة وهو لا يدخن السجائر ، وألقوا عليه كثيرا من الأسئلة ، واقترحوا شتى المساعدات ، وكان أحدهم ما يفتأ يسأله بين الحين والحين .

ـ لكن أخبرنى ياسيد أفندى كيف دخل اللص غرفتك ؟

ـ وهل أعرف ؟

ـ لكنك متأكد أن الباب كان مغلقا حين عودتك ؟

ـ بكل تأكيد ..

ـ إذن كيف دخل ؟

ـ قلت لك وهل أعرف !

ثم يبرز شخص آخر كأنما تنبه فجأة إلى ما غفل عنه الجميع :

ـ والنافذة ، هل كانت مغلقة ؟

ـ لا توجد نافذة بالغرفة ، بل مجرد كوة حديدية فى أعلاها .

ـ آه ..

فيقفز ثالث قائلا :

ـ وماذا قال البواب ؟

قال إنه لم ير وجها غير مألوف يدخل المنزل ..

ـ وماذا قالت السيدة الإيطالية ؟

وهنا يتقدم زميل آخر ليريح سيد أفندى من عناء الإجابة وهو يقول :

ـ قال لك إنها أمضت الصباح مع جارتها على السطح أمام غرفته كعادتها صباح كل أحد ..

ـ ولم تر أحدا يحاول دخول غرفته ؟

ـ بالطبع لم تر أحدا ..

ـ وهل لم يترك أثرا يدل عليه ؟

وهنا صمت الزميل المتطوع واتجهت العيون نحو سيد أفندى من جديد وهو يقول:

ـ ماذا ؟ كلا ، لم أبحث الأمر ..

ـ ولم تخبر الشرطة بأن الغرفة كانت مغلقة ؟

ـ لم أر فى ذلك ما يغير الأوضاع ..

ـ ولم يذهب أحد من رجال الشرطة ليعاين المكان ؟

ـ كلا ، لم يأت أحد معى ..

ـ ولماذا ؟

وسأل أحد الذين لم يتكلموا بعد :

ـ ولا تخشى أن يذهب اللص الآن ليسرقك من جديد ؟

ـ إلا إذا أراد أن يحمل السرير والمنضدة ..

وسرت ضحكة خافتة بين المجتمعين وهم يدخنون .. وأحس سيد أفندى أنه يختنق وأن وهج الإعلانات المتقطع يقلقه ، وقد تعرَّف على أشخاص أكثر مما ينبغى ، وتورط معهم فى علاقات يخشى ألا يستطيع أن يحفظ عليها امتدادها .. وقد وضعوه موضع اهتمام قد لا يتاح له فى غير هذه الليلة .. وتثاءب الجالس عن يساره وتثاءب سيد أفندى وتثاءب ثالث فرابع فخامس ، فلما تطلع إلى المرايا التى تكاد تمس السقف المنخفض وجد أن الأفواه الباقية بالمقهى تتثاءب جميعا وهى ترتفع بأصحابها عن مقاعدهم ..

* * *

وعندما كاد يبلغ غرفته ، سمع أمام بابه حركة مفاجئة ، ثم سمع صوت جلوريا وهى تضحك فى شبه انزعاج قائلة :

- أرعبتنى ..

فأجابها فى دهشة :

- هل أنت جلوريا ؟

فأجابته ضاحكة :

- بل أنا اللص !!

وعجب من وجودها أمام باب غرفته ، وتساءل عما إذا كانت تودع عشيقا كان معها فوق السطح أم أنها تستنشق هواء الليل البارد .. وضغط على طربوشه ، ثم مضى يفتح الباب وهو يسمعها تقول :

- لقد أرسلتنى أمى لأنها تظن أنها نسيت خطابا بجيب البيجاما التى أعطتها ظهر اليوم لك .

فأجابها فى ارتياب وإشفاق :

- إذن تفضلى ..

ودخل أمامها ودخلت وراءه .. وخلع طربوشه ومسح على جبهته ، ثم أحضر كومة الملابس - فلم يستخدم شيئا منها بعد - ومضى يرقبها وهى تبحث بعينيها وأناملها .

وكانت جلوريا ترتدى قميصا شفافا طويلا ، وتنبعث من جسدها العملاقى رائحة عطر مثيرة ، وشعرها ينسدل على وجهها ، ويكاد ثدياها يبرزان وهى واقفة فى انحناءة تبحث .. ولمح عجزها المستدير الطرى ، وعرف أنه يثور ، فأسرع يقدم إليها المقعد الوحيد بالغرفة يطلب منها الجلوس حتى تستريح وهو يأمل أن يكون منظرها الآن أقل إثارة .. ويبدو أنها أدركت ما أثارت فيه من مشاعر وفكرت لحظة أن تعبث به فتتركه يتعذب بضع لحظات ثم تغادره ، لولا أن بررت لها طبيعتها أنها ستقوم بعمل نبيل حين تحاول إخراج هذا الرجل عن طبيعته المتخشبة ، ومع ذلك فقد كانت تتزود دفاعا عن نفسها بشحنة هائلة من مشاعر السخرية القاتلة وهى تنظر نحوه فجأة كأنما تدعوه للبحث معها وتقول :

- لماذا لا تقترب ؟

وتركته يلامسها كأنما عفوا ، وكان تردده الشديد يملؤها احتقارا له ، لكنها صممت ألا تنسحب ، فقد بيتت فى نفسها أمرا ..

كان مترددا يخاف المغامرة ، يريد أن يستوثق من كل حركة - بل من كل رغبة - قبل أن يُقدم عليها ، كان يخشى أن ترده ، وكان على استعداد للتراجع عند أول بادرة بنفورها مما يفعل ، وكان يبرر ذلك بما يعتقده من اضطرارها إلى سلوك سبيل لا ترضاه لكنها لا تقوى على مقاومته ، وكان هذا الإحساس بالجريمة يعذبه ويشقيه ، ويتمنى فى كل لحظة لو أمكنه التراجع ، لو لم تستعر هذه الرغبة الملحاحة الدؤوب التى تجعله يتأمل الآن عن قرب شديد عينيها وشفتيها المبتسمتين فى استكانة واستسلام .. وانحنى على جسدها قليلا ، وأحس طراوة اللحم ونعومة الجسد النسائى ودفئه وتماسكه ومقاومته ، وأدرك أنه يلج الآن منطقة جديدة فى المعرفة الحية ، لكنه يلجها فى استحياء وتردد وخجل ، رغم ما يحمله هذا العالم الجديد من أسرار وخفايا وشهوات تدعوه وتغريه .. ومع ذلك فقد كان يود لو ينتصر .. كان يشعر أنه فى حاجة إلى أن يزيح عن نفسه طبقات متراكمة ، وأن يجلو هذا الصدأ الكثيف ..

ومد أنامله اليسرى نحو ذراعها العارية اليمنى ، فى بطء كأنما يتلمس طريقه وسط ظلمة، أو كأنه طفل يحبو مشفقا أن يكبو ، والعرق يتصبب غزيرا منه ، وقلبه يخفق خفقانا متقطعا يكاد يشله عن كل حركة ، فقد عاش التجربة المشتهاة كلها بذهنه وجسده قبل أن يُقْدِم عليها ، وأخافه أن رآها ترتعش قليلا وصدرها يرتفع وينخفض فى سرعة ملحوظة ، فتراجع فجأة وهو يسألها سؤالا غريبا ما توقعته أبدا ..

- هل أنت متعبة ؟

وضحكت ضحكة مرتفعة خشى معها افتضاح أمره ، فأجابته فى تهكم :

- تقصد أنك أنت المتعب !!

ولاحظت أنه بدأ يفطن إلى ما ارتكبه من خطأ ، وأنه يستجمع قواه من جديد ، حاسبا أنه يستطيع أن يبدأ من حيث انتهى ، لكنها قررت ألا يلمسها من جديد وألا تعرض له جسدها مرة أخرى .. وأحست بسيطرتها عليه ، وانتابتها نشوة هائلة بهذا الإحساس . وأدركت بحدسها وخبرتها أن هذه هى أول تجربة له من نوعها ويكفيه أن يعرف معها هذه المرحلة منها.

وكان فى عينيه رجاء ، وود لو تقتنع بأن تهبه فرصة من جديد ، لكنه لمح فى عينيها السخرية والتهكم ، فحز ذلك فى نفسه ، وأدرك أنها أصبحت بعيدة المنال ، وأنه قزم متضائل أمام جسدها العملاقى الشهوانى .

وراعه أن تجلس أمامه مطمئنة ، كأنما لن يجرؤ على أن يقربها من جديد ، فتقدم نحوها، وأدرك أنها أدركت ، فقد وقفت وأمسكت تعبث بالتمثال الجبسى المشوه كأنما لتدافع به عن نفسها ، وتملكته فجأة رغبة شيطانية .. أن يضربها ، أن يضرب هذا الجسد الملفوف الطرى فى عنف ولذة، وكان واثقا لسبب خفى - أنها ستلين إذ ذاك - ستستعذب ضرباته وتستلقى

أمامه هذه المرة .. لكنه لم يتقدم ، كأنما هنالك شىء فظيع يعطله ويحجب عنه هذه المنحنيات الإنسانية المزدحمة .. كان يريد أن ينتصر ، لكنه كان يخشى أن ينهزم ، وما لبث أن رآها تمرق من الباب وعلى شفتيها ابتسامة وهى تقول :

- لم أجد الخطاب ..

وأحس ضيقا عظيما وتلفت حوله باحثا عن وسيلة للخلاص .

***

وكانت المعركة القائمة بينه وين الجبس قد بلغت الآن لحظتها الحاسمة .. وكان من قبل قد طرق محاولته فى الرسم ، فقد كانت له به هواية ترجع إلى سنى مراهقته ، إلا أنه طلقه منذ أمد بعيد ، ولم تعد له به إلا صلة باهتة من الذكرى ، ولم يمض بتجربته إذ ذاك إلى نتائج ذات شأن ، فلم تتعد بضع محاولات لتصوير مناظر للطبيعة منقولة عن رسوم أخرى ، إلا أنها أمدته ببعض المعرفة بطريقة تناول الفرشاة ومزج الألوان وصعوبات العمل .. لذلك كان الرسم هو أول ما لجأ إليه ، ولم يكن قد حاول رسم الوجه الإنسانى ، ومع ذلك فقد أقبل على محاولته وهو يظنها يسيرة سهلة ، لكنها ما لبثت أن تكشفت له عن عقبات كان لابد له من التغلب عليها أولا ..

وقد بدأ أولا برسم الوجه ، فلما وجد ألا سبيل إليه الآن أرجأه إلى ما بعد ، كان يريد أن يرسم صورة نصفية ، فمضى يرسم الصدر والكتفين ثم ترك فراغا كبيرا رسم حوله قوسا مستطيلا أخذ يسدل الشعر حوله ، فلما اطمأن أخيرا إلى هذا الإطار العام أحس أنه لا يمت إليه بصلة وأنه لم يَخْطُ حتى الآن فى محاولته الجديدة للتعبير ، فمضى يرسم الأنف وهو يغامر والشفتين وهو يغامر ، ثم يحصل على إرهاصات وجه لا ينتمى على الإطلاق لمشاعره ولا حتى لفكرة مزعجة فى خياله .. وكأنما لا صلة بين ما يرسم وذلك الكائن الحى فى داخله .. وبلمسة من فرشاته يعيد الفراغ إلى بياضه ، فها هنا على الأقل أمل جديد وليس ثمة مواجهة لفشل متحقق ، ثم يعيد محاولته المرة بعد المرة . وقد غيَّر لوحة بعد الأخرى وهو لا يمل محاولته حتى استطاع أن يحصل أخيرا على شىء من الانتصار ، فحصل على وجه له ملامح تقارب ملامحها وقد يئس من الوصول إلى كمال ما . وظن أنه يستطيع أن يستريح الآن ، حين وجد أن رسما فوق لوحة لا يحقق حاجته الوثنية المستيقظة ..

ذلك أن الصورة فوق اللوحة لم تقرّب إليه كثيرا ذلك الوجود المجرد ، وكان هو يريد واقعا له أبعاد ثلاثة مثلما للجسد .. وهكذا اتجه تفكيره نحو الجبس بحثا عن الصنم .. وكانت مهمته هذه أشق ما يتجه نحوها وهو يدرك صعوبات العمل .. واستفاد من خبراته السابقة فى الرسم ، فبدأ أول ما بدأ يصنع الكتفين والرأس تاركا ملامح الوجه حتى يفرغ فى النهاية لها . وقد استطاع أن يصل أخيرا إلى صنع هذه الأجزاء الأولية من تمثاله . وكان الآن حريصا

ألا يهشمه ، لكنه كان يخشى أن يواجه فشله ، فظل يمعن إتقانا فى ثنيات الثوب الوهمى ، وفى نعومة الصدر الأملس وفى إضافة شىء من التعاريج إلى الضفيرتين المسدلتين، وثمة فراغ سديمى أمامه يزعجه أن تضل فيه يداه .. لكنه كان حريصا أن يصنع التمثال بيديه كأنما تجربته الوثنية لا تزال تشوبها هنا تجربته الصوفية الأولى حيث يكون عمل التمثال طقسا من طقوس عبادته ..

لم يكن سيد أفندى يريد مجرد التعبير بل كان يريد التعنير المقدس ، وكان هذا هو ما يزيد مهمته صعوبة ويجعله يحس أنه إزاء محاولة أبعد كثيرا من قدراته .. وقد أخذ الآن يغامر ليخلق المعنى من المجهول ..

والواقع أنه لم يكن يحس بمعنى الخلق ، بل كان يشعر أنه يزيح طبقات جيولوجية متراكمة عن وجه متألم رائع قد طمسته قرون وأحداث ، وأنه الآن فى سبيله إلى هذا الوجه .. وكان قد أتم بالأمس صقل الأنف وإبراز الشفتين وأوشك على خلق النور للعينين ، وكان معنى ذلك أنه أوشك أن يشرف على حصول ، لكنه كان يحس الآن بقلق فى روحه بسبب ما جد عليه من أحداث ما توقعها ، تتسلل الواحدة وراء الأخرى كأنها قطيع يتخبط فى وحل ، وأخذ يستعيد كلمات زميله بالمقهى الذى استطاع أن يصل معه إلى حديث ذى ألفة ما توقعها ، فقد قال له إن حياته حرص متصل على فراغ ، فيظل يسيج ويغلق ولا شىء سوى الفراغ ، ووصفه بأنه ذو طبيعة متخشبة ود لو يخرج عنها ..

كان كثير الحرص ، فى حركاته وفى علاقاته بالناس ، وحتى محاولاته هنا ـ رغم ما بظاهرها من طابع المغامرة والجهد -كان جوهرها الحرص .. وكان الحرص يدعوه دائما إلى النوم والانكماش ، لهذا سرعان ما أخذ يراوده النوم وهو لما يعمل يديه فى التمثال ، وكان كثير الشك فى سلامة الأنف وسلامة الشفتين ويخشى أن يكون ظهور العينين محققا لهذا الشك .. كان يحس أن هناك شيئا حقيقيا وجوهريا يعطل حياته لكنه لا يدركه، وكأنما يستعيد الآن فى تجربته الحجرية تجربة حياته العاطفية التى لم يحصل منها إلا على ما يشبه حصوله هنا على ثنيات الثوب الوهمى ونعومة الصدر وتكور الرأس .. لم يحصل عليها هى بالذات ، بل حصل على مجرد الإطار العام فى حياته للمرأة ، وفيما عدا ذلك فثمة فراغ سديمى قد ضل عنه وسط صخب الإرادات الإنسانية المتضاربة .

وهكذا أحس بنفور من تمثاله وحياته ، وأطفأ النور ، ومضى نحو الفراش وأخذ يرخى جفنيه وهو يتفحص العيون التى ازدحمت عليه اليوم ، والأرجل التى وطئت غرفته، والذين حدثوه ، والذين جاملوه ، يبحث بينهم عمن يكون اللص وهو يحس بزلزلة هائلة فى كل حياته..

وكانت المدرسة التى يعمل بها سيد أفندى عامر تتكون من طابقين أحدهما فوق الأرض والآخر منخفض عنها -أو على وجه أصح -ينخفض مترا ويعلو مترا، وكان أكثر عمله يتعلق بهذا الطابق الأخير ، ففى كل صباح ينحدر إليه ، ويواجه حشدا من التلاميذ الصغار يجلسون فى حجرات هى أشبه ما تكون بالدهاليز ولا يكون لدخوله كبير أثر سوى أنهم يتصنعون الوقوف فتزداد فوضاهم ، وهم يتشاجرون ويغنون ويفتحون الأدراج ويقفلونها فيضرب بيده على منضدته ويصمت التلاميذ لحظة ، لكنهم ما يستطيعون الاستقرار الطويل فما تلبث الحركة أن تدب بينهم من جديد .. وكان هذا يزعجه ويعطل عليه درسه ، كما كان يحرمه النعاس كلما راوده وود لو ينعم بلحظة منه أثناء الدرس ..

وكان أكثر التلاميذ صغارا لا تزيد أعمارهم عن الثانية عشرة قذرين يعلو الاصفرار الدائم وجوهم ، يقبلون من أزقة الحى وقد لوثهم الوحل ولطخت بقع الحبر ثيابهم ، وقلما كانوا يحضرون أدواتهم كاملة ، وما ينفكون يضربون بعضهم بعضا ثم يأتون إليه شاكين باكين ، فيستمع إلى شكواهم ويوازن بين حججهم ، وبقية التلاميذ يضجون ، ثم لا يستطيع أن يحدد المذنب . فما يلتفت إلى السبورة حتى تنهال عليه قطع الطباشير .

وقد أقبل هذا الصباح إلى عمله ، فاستقبله المدرسون مستفسرين يستيقنون مما بلغهم من أخبار ويستزيدون ويظهرون مشاركتهم بشتى الطرق والتعبيرات ..

ثم انحدر نحو الطابق المنخفض ودلف إلى حجرة الدراسة وضرب على المنضدة بيده ، وفجأة سمع طرقا على الباب ، وصمت التلاميذ فجأة فما كان يخيفهم شىء مثلما تخيفهم عصا الناظر .. لكن فرجة الباب ما لبثت أن كشفت عن وجه أحد السعاة وهو يعلن سيد أفندى بأن حضرة الناظر يريد مقابلته ، وفجأة ضج الفصل بالهتاف واندفعوا يستأنفون ما كانوا فيه من عراك وتصايح ، وسيد أفندى منطلق إلى غرفة الناظر بالطابق العلوى .

ولم تكن لسيد أفندى صلة كبيرة بالناظر مثلما لم تكن له بأى زميل من زملائه .. لهذا تحير فيما عساه يريد اليوم منه . وما كان يُستدعى إلى غرفة الناظر إلا لمقابلة أحد المفتشين ، وهى مقابلة تشيع فيه الضيق ، لكنه لا يتوقعها اليوم .. فازداد ضغطا على طربوشة كأنما ليعدل من منظره أو يرفع من أهميته ، أو كأنما هو ممثل أوشك أن يواجه النظارة .. فلما صعد إلى غرفة الناظر طرق الباب .. ثم دخل بأدب وحياء .. ووجد على وجه الرجل بشاشة وترحيبا ما عهدهما .. فلما أذن له بالجلوس مضى يجاذبه حديثا وديا عن عمله ، ويعتب عليه أنه لا يكاد يراه .. وقد سُرَّ سيد أفندى من رقة الناظر ودماثته ، ولو أنه دُهش من اختيار هذا الوقت لتبادل التحيات والمجاملات حين سمعه يقول :

ـ إنك تستطيع يا سيد أفندى أن تترك العمل فقد كلفت به زملاءك ..

ـ لكن هل من سبب ؟

ـ بلغنى من زملائك أنك سُرقت ..

ـ آه ..

ـ ولا شك أنك تحتاج إلى بعض الوقت للبحث عن ملابسك ..

ـ لقد أبلغت البوليس ..

ـ إن رجال الشرطة لا يقومون بجهد خاص فى مثل هذه السرقات بل هم يعتمدون على الصدفة العارضة أثناء العمل العام الذى يقومون به ..

ـ وماذا عسانى أفعل إذن ؟

ـ ستذهب إلى دكاكين الرهن ، فهناك يلجأ اللصوص للتخلص من هذه المسروقات ..

ـ وكيف السبيل إلى هذه الدكاكين ؟

ـ سيكون فى خدمتك أحد السعاة .

وما هى إلا دقائق حتى كان سيد أفندى عامر يخرج من باب المدرسة وهو يحس بلون من الغبطة لما أبداه رئيسه من عطف عليه واهتمام بأمره ، ومن خلفه كان يسير أحد السعاه..

ومضى سيد أفندى بصحبة الساعى إلى حى الرهون ، وهو حى لا يذكر أنه سمع بوجوده من قبل وكان الآن مجرد مقصد مجهول ، لكنه له به صلة وثيقة ، فهناك ، فى زاوية أحد الدكاكين التى لم تقع عليها عيناه أبدا ، قد يرقد فى انتظاره حذاؤه أو حلته أو قطعة من ملابسه الداخلية التى كانت تلتصق بلحمه هو ..

ووجد نفسه يسير مع الساعى فى حى عليه مسحة من الغرابة ، فالمنازل ما تنفك تزداد ارتفاعا ، والطرقات ما تنفك تزداد ضيقا كأنها أخاديد حفرتها أظافر مجنون ، وقد رُصفت أرضها بقطع من البلاط فى غير استواء ، وارتفع إلى أنفه خليط ما بين رائحة كريهة وأخرى لطعام شهى وثالثة لبخور ، ومجموعة من الروائح لا يكاد يميز بينها .. وكان يسير صامتا أكثر الوقت، لكن إحساسه بوجود أحد السعاة فى خدمته كان أمرا لا شك فيه .. ثم ما لبث أن دلفا إلى ميدان فإلى طريق أكثر انفساحا وأكثر حرية ، ثم أشار الساعى إلى دكان قريب عرجا عليه .. وكان واضحا أن الطريق كلها تزدحم بعدد كثير من الدكاكين المتجاورة المتشابهة كأنما أُتفق على أن تختار الدكان الذى تقصده قبل مجيئك إلى هذا المكان .

وأمام كل دكان كان ثمة حاجز رخامى أبيض مصقول ، ووراءه تماما بائع ذو ذقن طويلة بيضاء ، وقد ازدحمت الجدران وراءه برفوف مقسمة إلى شتى الأحجام من أسفل الأرض حتى أعلاها واكتظت الرفوف بشتى الأشياء والمتناقضات كأنها تلخيص لمعرض أقامه هواة عابثون ، وقد عُلق بكل رهن رقم صغير هو الصلة بينه وبين صاحبه .. فهنا ساعة ذهبية لابد أن تكون

لأحد الباشوات المعربدين ، وهنا مجموعة من الكتب القديمة الصفراء لابد أن تكون لطالب أزهرى متقاعد ، وهناك كفتا ميزان لعلهما لتاجر أفلس ، وهنا ـ أمامه تماما ـ عينا البائع ولحيته الطويلة ذات الرائحة الفريدة وهو يسأله من خلف عويناته عما يريده .. وامتلأ سيد أفندى بشىء من ذلك الزهو الذى عرض لمشاعره منذ الأمس ، فهو لم يقبل هنا ليرهن شيئا من إعوازه بسبب عوز أشد ، بل هو أقبل يسأل عن حق له ، مجرد سرقة يحُتمل أن يكون اللص قد حملها إلى هذا المكان للتخلص المؤقت أو الدائم منها .. ومضى يصف له الأشياء المسروقة والرجل يتظاهر بالإصغاء ثم يقاطعه بلكنة أعجمية شارحا له أن اللصوص لا يبيعون سرقاتهم فى مثل هذا الحى لأنهم أدرى الناس بانتشار البوليس هنا ، بل هم يذهبون بها إلى الريف حيث لا يمكنك أن تتبع شيئا ولا أن تسترد شيئا ..

ولقد واصل سيد أفندى عامر جولته فى الحى وهو يتلقى نفس الإجابة من كل بائع، وكان يتفرس فى رواد الحى عسى أن يلمح أحدا يرتدى قطعة من ملابسه أو يحمل شيئا مما يخصه ، لكنه ما كان يرى غير نسوة أتين ليرهن بعض متاعهن ما بين طست أو إبريق أو مجموعة من الأثواب المتآكلة ، ثم طلبة وخدم وفنانون وفتيات مراهقات ..

فلما خرج من الحى وصرف الساعى ، مضى يتتبع مرة ثم أخرى شخصينْ خُيل إليه أنهما يرتديان ما يشبه قميصا أو حذاء له ، وقد فقد أحدهما فى شارع مزدحم ، أما الآخر ، فقد قام سيد عامر بأجرأ عمل قام به فى حياته كلها ، فقد اقترب منه وحياه وهو يعبر الطريق إلى الجانب الآخر ، وقد رد الرجل تحية سيد أفندى وهو ماض فى طريقه ، لكن هذه اللحظة كانت كافية لأن يتبين زيف اتهامه للرجل فتركه يغيب عن بصره .. لاسيما وقد أقبلت الظهيرة واشتد القيظ ..

وقصد إلى غرفته ، وحاول عبثا أن ينام ، فعاد وقام وغادر غرفته على غير عادته فى مثل هذه الساعة من النهار .. والتقى على السلم بالسيدة الإيطالية وابنتها فابتسم لهما ، ثم قابل الموظف الخطير ومعه أحد الساكنين يصعدان فحياهما ، فلما بلغ البواب رد عليه تحيته ..

ومضى سيد أفندى عامر يجوب الطرق فى مثل هذا الوقت من النهار ، يفحص بعينيه الملابس والأحذية ، ويرتاب فيمن يحملون لفائف من الورق أو القماش ، فقد ارتبط بالمدينة كلها وأصبح كل شخص فجأة ذا أهمية له وأخذ يتفرس فى الذاهبين والمقبلين ، والجالسين على الأرض وفى المقاهى ، والمطلين من شرفات منازلهم ، حتى لكأنما له شىء فى كل منزل وفى كل نافذة منزل ..

زيطة صانع العاهات

مهداة إلى نجيب محفوظ

صاحب زقاق المدق

صنع يصنع فهو صانع ، وصنع المصنع السيارات .-وصنعت المصانع القنابل ، فهى صناعة ، وهى مصنوعة ، وعم كامل يصنع البسبوسة، وحسنية الفرانة وزوجها جعدة يصنعان الخبز ، وكانت الست أم حميدة الخاطبة تصنع العائلات ، وصنع المسيح المعجزات ، وصنع زيطة العاهات .

وتوفى زيطة فى السجن منذ أيام ، ورأيت أن أتقدم بالتماس إلى الجهات المختصة مطالبا بأن يصنعوا له تمثالا ويقيموه على رأس زقاق المدق ، راجيا أن يفصل حضرات المختصين كل الفصل بين ذلك العمل الإضافى الذى أدى به إلى السجن وأخذ جزاءه عنه، وبين هذا العمل البطولى الذى وقف زيطة حياته عليه ، والفهم الرائع لمعنى العاهة الذى كان يدركه بحدسه وعبقريته، وكيف استطاع وحده أن يواجه مدينة صاخبة ضاجة وأن يلبى لها فى إخلاص حاجة ملحة ضرورية ..

فقد قُبض فى ليل أحد الأيام - ومنذ سنتين - على زيطة وصديقه الملقب بالدكتور بوشى لاتهامهما بسرقة جثث الأموات ، وشاع فى الزقاق أنهما كانا يسرقان طقم الأسنان الذهبى من جثة المرحوم عبد الحميد الطالبى الذى كان بائعا للدقيق بالمبيضة فلما سمعت بذلك الست سنية عفيفى ، وهى جالسة تشرب القهوة التى صنعتها لنفسها بنفسها، رمت بطقم أسنانها الذهبى الذى سبق أن صنعه لها الدكتور بوشى ، ثم صرخت وولوت حتى أغمى عليها ، ومنذ ذلك الحين اختفى زيطة وصديقه من حياة الزقاق وانقطع كل منهما عن صناعته ، ومع ذلك

فلم تكن سرقة جثث الأموات هى العمل الرئيسى لزيطة ، بل هو عمل إضافى اضطر أخيرا أن يقوم به إلى جانب الصناعة التى وقف عليها حياته ..

ولقد وُلد زيطة لأبوين يصطنعان الشحاذة ، وكان ذلك أول العلامات الدالة على تأهبه للصناعة التى تفرغ لها فيما بعد .. وكان مجيئه - كمجىء أى صانع عظيم - بعد انتظار وترقب وحاجة .. فقد كان والده فى حاجة إلى ابن تحمله الأم أثناء تجوالها لتثير العطف وتستدر الإحسان. وحسن الصنيع ، وقد انتظرا طويلا حتى اضطرا أن يكتريا طفلا ، فما أقبل زيطة إلى هذا العالم، حتى وفَر عليهما ثمن الاكتراء ، فكان فرحة عظيمة لهما، كما كان خلاصاً للكثيرين فيما بعد ..

وفى التراب نشأ زيطة ، وفى التراب عاش ، كانت أمه تتركه يزحف بحرية يرعى بين القاذورات والحشرات ، يتذوق الوحل ويختبر مواطئ الأقدام .. كانت نفايات البقدونس وقشر الطماطم والهوام السابحة فى المياه الراكدة هى عالمه الجمالى المنقطع النظير ، كان يحس فى التصاقه بالطين لذة يتصنع الآخرون الجزع منها ، والتقزز من مواجهتها .. وقد هيأت له هذه القذارة فرصة الابتعاد عن الناس فيما بعد ، متفرغا لتأملاته ومتفكرا فيما أُلقى عليه من مهام ، فقد كانت رائحته الكريهة تنفيه عن الناس، وكانت قذارته تجنبه فضولهم وتحديقهم فيه، لا يصانعونه ولا يصانعهم ، وهم متحصنون بأنفسهم من أنفسهم بروائحهم العطرية وأناقتهم المصطنعة، إذا فكروا فى الانتحار فكروا فيه بغير أن يجرؤوا عليه ، لا يدركون المعنى المخلص للعاهة ولا القيمة المطهرة للتشويه .

ولسنا نعرف كثيرا عن حياته أيام صباه ، فهذا الجزء من تاريخه غامض ومجهول أكثره لدينا، وكل ما نعرفه مما بلغتنا من أخبار أنه كان يعمل فى "سرك" متجول حيث تدرب على فن "المكياج" وأصبحت له فيه يد صناع .. وحيث يمكننا أن نستنتج أنه لابد أن يكون قد تعرف بذلك على جوانب كثيرة وصناعات متعددة فى الحياة، وهكذا أعدته ولادته وطفولته وأيام صباه للصناعة التى أُلقى على عاتقه أن يأخذ بها فيما بعد ..

فى هذه الأثناء كان زعماء العالم يصنعون الحقد والكره فى القلوب ويصنعون القنابل والطائرات فى المصانع ، ثم مزجوا الجميع معا وصنعوا منه حريقا عالميا كبيرا .. وفى الشوارع الفخمة فى المدينة كانت صناعة التجميل قد انتشرت ، تصنع السمنة للنحاف والنحافة للسمان وتزيل الشعر وحَب الشباب وتُبرز الأرداف وتكور الأثداء ، وانتشرت الصالونات تسوى الأذن المنكمشة وتصغِّر المفرطحة، وتعدِّل الأنف المنحنى -وتدقق الشفتين الغليظتين ، وتعيد الصبا إلى "شمطاوات" الطبقة "الراقية" . وفى الغرب كانت قد ظهرت مدارس تعبر عن المشوه وزعماؤها ينشرون الدعوة فيلبيها تلاميذ مخلصون يبرزون فى الجانب الميت قرف الإنسانية وفزعها ..

ولقد حدث ذات صباح أن نشرت جميع الجرائد أخبارا عريضة تلقتها بالبرق عن طفلين وُلد أحدهما بالهند والآخر بأستراليا كان الأول بلا ذراعين ولا قدمين وتوفى بعد دقائق من ولادته ، أما الآخر فعليه شعر ماعز وله ذيل قصير وقد ولد ميتا .. فما أقبل مساء ذلك اليوم حتى كان زيطة قد أشرف على زقاق المدق ، وقد أعد العدة لصناعته ، فحمل معه أدواته ومهماته، واختار الخرابة القائمة أمام الفرن مكانا يمارس فيه عمله ، لا يفهم التشويه مجرد معنى جمالى فى الجامد أو الميت بل هو معنى نابض حى سيأتيه من أجله المجهولون والمخفقون متسللين من مشارق المدينة ومغاربها، ثم يغادرونه رسلا وحواريين له فى مختلف الأحياء والزوايا ..

وفى الطرق والميادين ، وفى الموالد والأعياد ، وقرب المساجد والكنائس وفى المقاهى والمقابر .. كان المتصدقون والمحسنون يطالبون سائليهم بما يؤهلهم للشفقة والإحسان، وكانوا ينظرون شذرا -كما ينظر أصحاب الشركات ومديرو المصانع إلى طالب لا مؤهل له -كلما وجدوا واحدا منهم صحيح الجسم معافى ، فى عينيه النور وفى لسانه الذلاقة، وفى جسده الامتلاء .. كانوا أشخاصا عمليين ، لا يريدون أن ينفقوا أموالهم بلا عاهات تستدرهم ، ولا أن يبعثروها على غير مستحقيها ، كانوا يريدون عميا وعرجا وبلها كى يغدقوا عليهم مما يغدقونه على عشيقاتهم وهم يتطلبون العاهة فيهم تطلبهم الذلة والحاجة فى عشيقاتهم .

وهكذا أخذ يفد على زيطة أصدقاؤه الجدد وصنائعه فى المستقبل .. إنهم منتشرون الآن فى كل مكان ، فى الأزقة والحارات ، وفى طرقات المدينة الواسعة وميادينها ، معترفون له بالفضل والثناء ، وكل منهم يذكر جيدا هذه اللحظة من حياته التى أقبل فيها على زيطة وهو عاطل لا صناعة له ، يقوده فى جنح الليل صديق أو دليل ، فتداعبه الرائحة الرطبة التى يواجهه بها الزقاق ، ثم الأصوات والأضواء المتسربة من أعلى أحد المنازل حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة صاحب المقهى ، وفوهة الفرن متقدة كأنها شهوة أو مقت ، ثم الخرابة المعتمة الرهيبة كأنها كهف ساحر أو جنى ، والرائحة الكريهة المنبعثة من أرجاء المكان كأنها احتجاج أموات أو معذبين، وضوء المصباح البترولى المرتعش يحيل الظلام إلى رموز ، والأدوات الموضوعة على الرف ما بين زجاجات وآلات وضمادات ، وزيطة مختفٍ مع العتمة فى جلبابه الأسود القذر لا يدل عليه إلا عينان تبرقان ، وصوت ساخر طاغ، ونار خافته تنبعث من بقايا سيجار ما بين يده وفمه.

كانوا يأتونه صحاحا ، وكانت صحتهم تقف عثرة فى سبيل حياتهم كما تقف أخلاقيات شاب يافع ، كانوا يمدون أيديهم فيردها لهم الناس فارغة . وكانوا يطالبون بحقهم فى الحياة فيأباها عليهم الآخرون ، فيُقبلون على زيطة ثم يغادرونه ، عميانا وكسحانا وأحدابا وكسعانا ومبتورى الأذرع أو الأرجل يهبهم بذلك حقهم فى الحياة ، وما يبرر لهم اصطناع صناعتهم .

وهكذا كان الليل هو المجال الذى يتحرك فيه زيطة ، كان الليل هو مملكته التى يسيطر على ما فيها من حركات وهمسات ورغبات ، وكان صنع العاهة يربط صاحبها به كما تربط المعجزة المريض بمنقذه .. فما ينتصف الليل وتسرى الهدأة فيه حتى يبدأ زيطة عمله ، فيجول فى حى الحسين العامر مارا برعيته من الكتل البشرية المتكورة فى هذه الزاوية أو على ذلك الطوار . كأنها بقايا هزيمة ، فيلتقى فى ميدان الحسين بكسيح إلى جانبه ما يشبه صندوقا ذا عجلات أربع ، فيركله ثم يسأله عن حال كساحه ويستوى الرجل واقفا على قدميه ثم يعطيه مليما .. يوميته .. فإذا انعطف صوب الباب الأخضر التقى بأعمى ذى ذراع مبتورة تعوّد أن يبرزها للمارين كأنها بقايا شمع جمد فيوقظه ليأخذ منه المليم ، فإذا بلغ القبو القديم التقى بأعمى آخر قد انتشرت على صدره وفخذيه قروح تعوَّد أن يعرضها على المارين كأنها تقيؤ دموى ، وهو يغط الآن فى نومه هادئا مستريحا، فيركله ويسأله عن قروحه ، فيفتح "الأعمى" عينيه ويعطيه المليم ، وعند الجامع الكبير يلتقى بالأحدب الذى تعوَّد أن يسب الناس ويشتمهم إذا ردوه خائبا كأنما لم يقنعهم الفرق بين حدبه واستواء قاماتهم ، وفى ذلك الوقت يكون أكثر تكورا وأكثر سوادا وأكثر هدوءا وقد انكفأ على وجهه وعقد يديه كأنما يصلى فما يحس بالخطوات المقتربة حتى يرفع يده بالمليم فيأخذه منه زيطة فى صمت ويمضى ، ثم يدور حول المسجد مارا بصنائعه واحدا بعد الآخر ، ثم يبتاع رغيفا وتبغا وجبنا أو حلاوة، ثم يعود إلى خرابته حيث يستأنف دورا آخر من أدوار عمله ..

وكان شأنه ـ شأن كل صانع عظيم ـ يُرضى حاجة خاصة فى الوقت الذى يُرضى حاجة عامة .. فهو يتعيش ويصنع لغيره سبل العيش .. فلسنا نزعم أنه اختار هذا النوع من الصناعة إشفاقا على الإنسانية وبَرا بها ، فلقد كان يُرضى باختياره ذاك حاجة دفينة إلى القسوة فى مجتمع قسا عليه حتى لتذوق التراب .. وكان يُرضى كذلك حاجة الآخرين يفيدونها مما تضطرب به نفسه من رغبة .. كان للرجل عذاباته ووحدته ووحشيته ، وكان سماعه تأوهات الرجل الذى يهرس له ذراعه أو يبتر له رجله يثير فيه لذة حيوانية هائلة .. ولكن فلنذكر دائما ـ باعتراف وإجلال بالغين –أنه ما كان يضع لذته فوق المصلحة العامة ..

فقد حدث فى أحد الأيام أن دخل مزيلته بعد رحلته الليلية ، فوجد عملاقا قويا فى انتظاره ، وصفه زيطة بأنه " بغل بلا زيادة ولا نقصان " وكان الرجل يقول فى خور: "حظى أسود وعقلى وسخ " وأدرك زيطة أن صحة هذا "البغل" مثار للحنق وعقبة كأداء فى سبيل حياته ، لكنه كظم شوقه إلى تهشيم رأسه وتقطيع لحمه ، واكتفى بأن يعلمه فن العته وإن لم ينقصه منه شىء كما قال صانع العاهات –ويحفِّظه بعض مدائح الرسول. كما أدرك ذات مرة –وهو يبصق على الأرض ويمسح شفتيه بكم جلبابه الأسود أمام متسول مهيب الطلعة –أن العاهة قد تكون وقارا به يستطيع الشخص أن يحصل على وجوده فى المجتمع ، كما تكون الذراع المقطوعة وملاحة البغى وشهادة الطالب ونفاق السياسى وكما تكون الألقاب والثروات ..

وكان لزيطة أحلامه البهيمية مثلما لى ولكم .. وكانت أحلامه تتركز حول حسنية الفرانة صاحبة الخرابة التى يستأجرها منها ، والتى كانت تصنع الخبز .. وكانت حسنية مكتنزة ذات لحم كثير وبنيان عملاقى ، يتمنى زيطة لو تحتاج إليه يوما كما يحتاج إليه الكثيرون .. ولقد راودها عن نفسها أكثر من مرة - ورأسه تزدحم بأخيلة محمومة -فما كان يلقى منها إلا القسوة والزجر، ولم تكن حسنية فى حاجة إلى صانع العاهات يشوه عليها حياتها الزوجية لأنه كان لها فى هذه الحياة ما يُغنيها عن معونته ، فهى ما تنفك تضرب زوجها جعدة كلما حرق رغيفا أو سرق آخر ، وهو يستلذ قسوتها وهى تستلذ بكاءه وصياحه ، فلا يلبثان أن يقتربا معا فى عاطفة مشبوبة ، وشيئا فشيئا ، نحو لحظة من لحظات صفائهما الخالص .. فلا عجب أن استغنيا عن زيطة كما استغنى عنه بقية سكان الزقاق لأنهما استطاعا أن يصنعا بأنفسهما ما يربط حياتهما معا ، وما يضمن لهما اللذة والاستمرار ، فما لبث أن قنع صانع العاهات بأن يراقبهما من خلال مزبلته وهما مستمران فى شجارهما المنتهى إلى صفاء وهو مسترسل فى الأحلام والعذابات ..

ومن قبل كانت صناعة المطاحن البخارية قد نافست طواحين الهواء، وكانت صناعة المذياع قد نافست الشاعر الذى يروى أخبار الزناتى والهلالى ، وكانت صناعة القنابل قد أخذت تنافس زيطة فى صناعته ، فقد كان إنتاجه فرديا وإن كانت فيه مهارة الفنان وهوايته ، أما تصنيع العاهات فكان على نطاق الجملة .. ومع ذلك فلم يكن هذا معناه بالضبط الاستغناء الكامل عن خدمات زيطة ، لأن مصر لم تصب أولا كثيرا بمثل تلك الغارة التى شهدها زيطة ذات يوم ، ولأن حاجة مجتمعنا إلى صناعة التشويه هى حاجة ملحة وضرورية ، بعضها تشويه محطِّم كالذى تصنعه لنا الحرب والغارات ، وبعضها تشويه خلاق كالذى كان يصنعه زيطة ، فالشحاذ يأتيه - على حد قوله -وهو لا يساوى مليما ، فإذا غادره فقد ساوى ثقله ذهبا .. لهذا كانت لديه عقيدة راسخة لا تتزلزل -كان يقوم عليها إيمانه بصناعته -ذلك أن الناس فى حاجة دائمة إليه ، فلا يعدم الليل أن يفرز له شخصا من هذه الزاوية أو تلك .. ومع ذلك فقد اضطُّر أخيرا أن يقوم بعمل إضافى ، حيث يذهب مع صديقه الملقب بالدكتور بوشى بين ليلة وأخرى لانتزاع بضع أسنان ذهبية أو فضية من جثة هذا المرحوم أو ذاك حتى قُبض عليهما أخيرا، وحوكم زيطة من أجل عمل لم يكرس له جهوده ، وكان مجرد مهمة عرضية فى حياته ..

وكنا نحن منتشرين فى الموالد والأفراح أو جالسين نلهو فى المقاهى والحانات فإذا تدحرج علينا أعمى أو مفأفئ أو كسيح خالجتنا ريبة فى استمرار سلامتنا ، وساورنا قلق على اتصال طمأنينتنا . وكنا ندفع عنا تلك الريبة وذاك القلق بمليم أو قرش فى يد سائلنا .. كان يشيع فى نفوسنا إدراك عام لمعنى الزمن المتقلب ، وللطمأنينة التى لا وجود لها ، ونحن أكسل من أن نحاول النفاذ إلى مواطن أصدقائنا وعشيقاتنا وشحاذينا ، وكان زيطة يدرك هذا الضعف فينا فيوفر علينا ما يتطلبه ذلك من مجهود لا قبل لنا ببذله ، فكان يبرز لنا فى يد مبتورة أو رجل

مشلولة أو عته أو بَلَه آخر صورة من صور المأساة التى يمكن أن ننحدر إليها ، والتى نجد أسبابها ونحس أصولها فى أرواحنا ومجتمعنا ..

ومنذ ألفين من السنين أقبل المسيح إلى العالم ، ومضى ذلك الإنسان الإلهى يُشفى المرضى والعُمى والعُرج فيهبهم بذلك حياة جديدة حتى سُمى صانع المعجزات .. ولما جاء القرن العشرون أقبل زيطة إلى هذا العالم يصنع المرضى والعمى والعرج ليهبهم بذلك حياة جديدة حتى لقد سُمى صانع العاهات .. وقد يحدث أن يأتى اليوم الذى تنتشر فيه صوره فى المعابد والمخادع ، وتباع تماثيله فى الحوانيت والموالد ، وتؤلف الكتب عن أعماله وحياته ، ولهذا تدركون تواضع ما نطالب به من صنع تمثال صغير يقام له الآن على رأس زقاق المدق .. كما تدركون أهمية ذلك الطلب تبجيلا لما قام به واعترافا بفضله على كل من صنع له صناعة وتمييزا له عن غيره ممن يشيعون التخريب المحطِّم والتشويه الذى لا طائل وراءه فتُصنع لهم تماثيل عالية ومرتفعة .

كما أنصح كذلك بالاهتمام بأمر خرابته التى أمضى فيها حياته لعلها تصبح ذات يوم أثرا تقصده الوفود من كل أقطار الأرض .. فلقد كان زيطة صانعا ، وكانت له صنعة وصنيعته منتشرون اليوم فى كل مكان فلا أقل من أن نرد إليه بعض صنيعه ...

مصرع عباس الحلو

مهداة أيضا إلى الأستاذ نجيب محفوظ

صاحب زقاق المدق

حضرات القضاة ، حضرات المستشارين ..

لقد قرر المحقق الذى صرح بدفن جثة عباس الحلو أنه مات نتيجة اللكمات والركلات والزجاجات التى تطايرت عليه من الجنود الإنجليز بحانة النصر ، ولم يكن فى مقدور المحقق أن يوجه التهمة إلى أحد ، أولا لكثرة الذين اشتركوا فى ضرب عباس الحلو وازدحام الحانة بهم ساعة وقوع الحدث ، وثانيا لأنه ما كان لأحد أن ينال من جنود الحليفة وهم فى نشوة انتصارهم بهذه الحرب العالمية الثانية .. وربما لو أتيحت للمحقق الفرصة كما تتاح له فى القضايا الأخرى لما استطاع أن يتعرف على متهم بالذات .. وهكذا "ضاع الفتى هدرا " كما صرح بذلك صديقه حسين كرشه ابن المعلم كرشه صاحب المقهى الواقع على رأس زقاق المدق..

ورغم عدم اختصاصى فى القانون ، إلا أننى رأيت أن أقحم نفسى وأقوم بتحقيق هذه القضية لحسابى الخاص ، فقد أولعت حديثا بمثل هذه القضايا، وربما كان عدم اختصاصى القانونى يبيح لى حرية التفكير والاتهام مما لا يتاح للمحقق المحترف .

لقد جاء فى تقرير المحقق أن عباس الحلو لم يُقتل مع التعمد أو سبق الإصرار ، وأن الطبيب الشرعى قد فحص الجثة فلم يتعرف إلا على شج فى الرأس وجرح كبير فى العنق نتجا عن استعمال زجاجات متكسرة ، ثم كدم فى الجانب الأيسر وآخر فى أسفل العمود الفقرى ، وقرر أن سبب الوفاة كثرة ما نزف منه من دماء ، وقد حدثت إثر هبوط شديد فى القلب، أما القاتل فقد نعته التقرير بكلمة "مجهول".

لهذا رأينا أن نهمل ذلك التقرير الرسمي ونبحث عن آثار أخرى عسى أن تستدل منها على السبب الذى أدى إلى مصرعه . ونحن نعلم أن مهمتنا شاقة وقد نتهم أبرياء وقد نغفل آخرين . ومع ذلك فقد آثرنا المخاطرة لما بين أيدينا من أدلة قد يتهمنا الكثيرون بأننا أسأنا استعمالها وبالغنا فى تأويلها إلا أنها على أية حال تلقى ضوءا على المأساة خيرا مما يلقيه هذا التقرير .

ولا شك أنكم ستعلمون مقدار الصعوبة التى واجهتنا حين تدركون أن عدد المتهمين قد كان من الكثرة بحيث امتد فشمل ـ على سبيل الاحتياط ـ العصر بأسره .. ولقد وجدنا أن خير وسيلة نضمن بها عثورنا على المتهم أو المتهمين هى أن نوجه الاتهام إلى العصر كله ، وهذا ليس من اختراعنا ولا هو شطط منا ، فأنتم تعلمون أنه عندما تقع جريمة ـ فى حفلة مثلا ـ فأول ما يفعله رجل البوليس هو أنه يوجه التهمة إلى الجميع وليس إلى أحد .. وبهذا المعنى شمل اتهامنا هؤلاء الجنود الذين أصابوه بالزجاجات إصابات قاتلة فى رأسه وعنقه ، وهؤلاء الذين اشتركوا فى صنع هذه الزجاجات ، وهؤلاء اللواتى ولدن أولئك الجنود ، وشمل اتهامنا هؤلاء الأقربين الذين كانوا يعرفونه ويرافقونه، حتى هؤلاء الزعماء العالميين الذين قادوا الحرب ووضعوا الجنود فى الحانة ليلة الحادث .. إنه يبدو أيها السادة أن مصرع عباس الحلو وهو شاب فى الثالثة والعشرين وكان يعمل حلاقا فى زقاق المدق بمدينة القاهرة، إن هو إلا جريمة اقترفها عصر ..

وأنتم تضحكون بلا شك من جدوى هذا الاتهام ،فهو يتناول لفظاً مجرداً ، ولا يتعلق بأفراد معينين نستطيع أن نبصرهم ونلمسهم ونكرههم وأن تقتص منهم " العدالة" التى تحرصون عليها دائما .. لكنكم تدركون كذلك أن كثيرين غير عباس الحلو قد ماتوا أيضا بسبب العصر ، قتلتهم روح الحرب التى ازدحم بها العصر ، بعضه غرق فى البحر وأكلتهم الأسماك ، وبعضه صعقتهم الغارات ودفنتهم تحت الأنقاض ، وبعضهم قُتل وجها لوجه أمام أخيه الإنسان ، بعضهم جُن وبعضهم تشوه وبعضهم ترمل أو تثكل أو تيتم ، وبعضهم مات مثل عباس الحلو بسبب حادث غرامى فى حانة من حانات اللهو وفى بلد لم يذق من أهوال الحرب ما ذاقته بلاد أخرى . وفى كل حالة من هذه الحالات كان القتلة مجهولين ، وكانت العدالة التى تحرصون عليها أيها السادة تقف دائما " معصوبة العينين" . ومع ذلك فسنتمشى طبقا لتقاليدكم ونوجه الاتهام أولا إلى أشخاص معينين ، لكنكم ستدركون معنا فى النهاية – وبسبب توزع المسئولية على الكثيرين جدا – أنه اتهام قليل الجدوى .

ولما كان يتضح فى معظم القصص البوليسية أن المتهم هو الذى كان أبعد الناس عن الشبهات أول الأمر ، كأن يكون صديقا أو حبيبا ، فإننا استفدنا من هذه الخبرة السابقة ووجهنا الاتهام مباشرة إلى فتاته حميده وصديقه حسين كرشه .. ولقد صدقت فراستنا ووفرت علينا كثيرا من المشاق التى كنا معرضين لها .. فقد ثبت لدينا أنه ما كان لعباس الحلو

أن يغادر صالونه بالزقاق يوما لولا وجود هذين الشخصين فى حياته .. كان يود لو ظل فى زقاقه هادئا قانعا بهذه الغيبوبة الحالمة التى يحيا فيها الزقاق، فهو زقاق صغير معتم مقفل ، ومنزو فى حى من أحياء المدينة العظيمة الصاخبة، تنبعث فى أرجائه رائحة خدرة مهلكة ، ويُرى دائما على رأسه " عم كامل" بائع البسبوسة بمذبته القصيرة وجسده المترهل السمين .. لا يفيق إلا لحظات فى الصباح عندما يُقبل تلاميذ المدرسة الأولية يدسون فى كفه البضة الملاليم ثم يعود إلى إغفاءته المستديمة ، وأمامه المعلم كرشه صاحب المقهى يتناول " فصا" كل بضع ساعات ليتصل له ذهوله الحالم المستديم ..

لقد كانت حياة الحلو بطيئة متكررة ، لا يمل اتصالها الرتيب ولا يتطلع إلى تعديلها أو تحويرها .. كان عالمه لا ينفسح خلف الزقاق ولا رجاء لديه إلا فى حياة هادئة فى حدود دخله المتواضع فى ظلال حميده وفى ظلال عيونها وأنفاسها .. وكان راضيا قانعا ، متحملا لو تقسو عليه الأيام يوما ،منشرحا لو منحته لحظة من هناءتها ، لا يعشق إلا رائحة الزقاق وترابه ، ويقلقه أن يجد نفسه فى شوارع ما تنفك تتسع وما تنفك تصطخب وما تنفك تزدحم .. ومع ذلك فقد كان يبدو أن هناك جانبا من حياته يتمرد فى خفاء على هذه الدعة وهذه الطمأنينة اللتين لا يطمح الحلو إلى سواهما ، جانبا مجنونا يرجوه ويخشاه ، تعبِّر عنه صداقته لحسين كرشة وتمسكه بهذه الصداقة .. كان هذا الصديق يقلقه حينا ما ويشيع فى نفسه لونا من الريبة فى قيمة حياته هذه التى يحياها ، وفى المعنى الحقيقى لقيمه التى يتمسك بها والتى تستمد دعائمها من رائحة الزقاق وعتمته، كان كلما وقعت عيناه على حسين أحس أنه إزاء جزء من هذه الطرق الفسيحة المزدحمة حيث قيمه تنهار وشخصيته تضؤل وتضؤل وسط الزحمة المصطخبة .. كان صديقه يفتح عينيه على عالم آخر مزدحم بالمطامع والمطامح وصاخب بالتشاجر والتنافس فى سبيل الظفر بالقوة والمال .

وفى هذه الزحمة الوهاجة المضيئة فقد فتاته حميده .. ظل صديقه يلح عليه كى يرحل ، أن يترك هذه الغيبوبة الحالمة وينطلق ليشارك فى السباق المرهق العام .. وظل يزعق فيه : سافر سافر " ماذا أكلت ماذا شربت ، ماذا لبست ، ماذا رأيت " وما كان لزعقاته أن تقلقه إلا قليلا ثم سرعان ما تخبو ، لولا حميدة التى كانت هناك ، وكان هو يحبها ، وكان فى حبه لها شىء غريب عن طبيعته ، كان صوتها الأجش ما ينفك يعلو بين حين وآخر فيخرج بالزقاق عن طبيعته ، وكانت ما تنفك تتشاجر مع الرجال ومع النساء ومع أمها فتزلزل الزقاق وتوقظه من سباته المستديم بضع لحظات ، وكان الحلو يحبها ويرجو أن تشاركه حياته ، لكنه ما كان يدرك فداحة الثمن الذى وجب عليه أن يدفعه، حقا لقد أدرك أنه سيدفع ثم يعود ويستأنف حياة الدعة والهدوء .. كانت هناك صداقة غريبة لكنها طاغية ، وكان هناك حب قوى لكنه طموح ، فرضى أن يحمِّل نفسه ما يكره ، وأن يغترب عن طبيعته قليلا .. لكنه ما أن سافر حتى وجدت حميدة أن مشاريعه تضمحل ، وأصبح حب الحلو لها فكرة لا حقيقة لها ،

مجرد أمل باهت لا تستطيع هى أن تقبض عليه وتعتصره بين يديها ، وأصبح طموحها معلقا بمصير ذى غياهب مجهولة ، مما أعطاها القدرة على أن تغادر الزقاق ملبية أول نداء رأت أنه يحقق لها طموحها فى سرعة وقوة ووضوح .. وهكذا شارك حسين وشاركت حميدة فى حياكة هذه المؤامرة التى انتهت بمصرع عباس الحلو ، الواحد بصداقته الطموح والأخرى بما أثارته فيه من حب خلاق .

وقبل ذلك ، ومنذ ست سنوات كان هتلر قد أعلن الحرب على إنجلترا ثم على روسيا وبذلك كان مصير الملايين من البشر قد تقرر فيما تسمونه " القدر " كان قد تقرر أن يموت هذا غريقا وأن تتثكل هذه وتترمل تلك . وأن تصبح حميدة عاهرة ويموت خطيبها عباس الحلو مقتولا وهو لما يزل فى الثالثة والعشرين ، فصراع العصر لم يعد يقتصر على هؤلاء الذين يريدونه ويعلنونه ويشاركون فيه ، بل هو يمتد إلى الآخرين الذين لا يدلون برأى فى المعركة ويحاولون عبثا أن يتجنبوا لفح الصراع ، وهكذا يشارك كل بما يملك أو يستطيع ، فشاركت حميدة بجسدها وشارك عباس الحلو بمصيره.

والواقع أن عباس الحلو كـان يـدرك هذا المعنى من قبل إدراكا واضحا - رغم أنه لم يفلسفه - كلما انطلقت صفارات الإنذار وسمع أزيز الطائرات وقصف المدافع فوق رأسه .. كان يحس أن الحدث العام قد وصل الآن إلى مخدعه ، وقطع عليه هدأته وراحته ، وعطل له آماله وهواجسه كى يشارك هو والآخرون بعضهم بعضا فى ترقبهم وانتظارهم وفى خوفهم وإنصاتهم.. وهكذا أدرك أن الحدث العام جزء جوهرى فى حياته الخاصة ، وأن الجميع يشاركون فى هذا النذير المنتشر فوق رؤوسهم وقد مد أطرافه الممسوخة الجزعة إلى قلوبهم وخواطرهم. وكان أحيانا ما يخشى أن يضطر إلى المشاركة فى هذا الصراع بذراع له أو ساق ، لكنه ما كان يحسب أبدا أنه سيشارك فيه بحبه وسعادته أولا ، ثم بمصيره كله فى النهاية بعد أن تكون الحرب قد انتهت فصمتت المدافع فى الميادين واطمأنت القلوب فى الأوطان.

وهنا نستطيع أن نضيف إلى قائمة الاتهام شخصا لم يشارك فى المأساة بصداقته أو حبه أو قيادته صراعا عالميا ، بل بمجرد سعيه إلى مصلحته الخاصة ، وبما يفرضه عليه عمله .. ولم يعرف الحلو يوما ولم يعرفه الحلو إلا شبحا مقيتا نغص عليه حياته وعقّدها وأشاع الفوضى فيما استقر عليه من رأى ، ولم يحدث أن تقابلا أبدا ومع ذلك فقد كان لفرج إبراهيم أهميته الكبرى فى المؤامرة ، وكان عمله أن يهيئ الفتيات أمثال حميدة لمصاحبة جنود الحلفاء ، فما أن سافر الحلو إلى التل الكبير ليعمل فى جيوش الحليفة - كى يعود ويفتح صالونا بالموسكى تحقيقا لأطماع حميدة وتسليما لصرخات صديقه - حتى تغير كل شيىء .

فى هذه الأثناء كان هناك جنديان إنجليزيان يعودان من ميدان القتال .. ومنذ ست سنوات أقبلا على باخرة إلى مصر .. وكانا يدركان أنهما سيحاربان فى الميدان وقد يقتلان وقد

يُقتلان، وادَّعى أحدهما وهو مخمور أمام أصدقائه ذات مرة ـ ومنذ زمن بعيد ـ أنه قد جاء فى مهمة سرية فى الشرق الأوسط ، فضحك السامعون إذ ذاك وضجوا ، لكن لم يجل بخاطر أحدهما أنه سيشارك يوما فى مصرع الحلو فى حانة من حانات القاهرة، وكانا الآن عائدين إلى القاهرة من ميدان القتال وقد قتلا عددا من الألمان والطليان وظنا أنه بقى عليهما الانتظار حتى يعودا إلى وطنهما ، لكن ثمة مهمة واحدة بسيطة كان عليهما أن يؤدياها فى الشرق الأوسط فى يوم قريب ثم يرحلا عنه فى اليوم التالى إلى الأبد .

أما فرج إبراهيم ، فقد كان بالنسبة لحميدة فى أول الأمر مجرد "عينين" عينين متفرستين وسط زحمة من الناس فى حفل انتخابى أقيم أمام الزقاق ، كان مجرد عينين تدعوان حميدة وتثيران ما تهيأ فى جسدها من رغبة وطموح وميل إلى المغامرة والانطلاق .. ولقد لبت حميدة ذاك النداء ، وفى الضوء الوهاج الذى بهر به فرج إبراهيم عينيها بدا لها الحلو قزما ضئيلا والحياة معه سخرية كبيرة ، وبدا لها فرج شخصا بيديه مفاتيح عالم متسع كبير يحقق لها ما تبغيه من تميز وتفرد على بقية صديقاتها اللواتى لا يحلمن جميعهن إلا بمصير واحد متكرر حيث يلف النسيان والعدم ظلالهما عليهن وهن يخدمن أزواجهن ويرضعن أطفالهن ويسمعن بقية العمر شتائم أولئك وهؤلاء . كان الرجل يسعى فى سبيل عمله وكان الحلو مجرد اعتراض صغير مجهول فى هذا السبيل شد ما سهلت إزالته بلا تهيب ولا تردد . وهكذا اختفت حميدة من الزقاق ، وكانت تحسب أن فرج إبراهيم يهيم بها ، وكانت هذه هى وسيلته فى اجتذاب هذا اللون من النساء ، فلما أدركت الحقيقة ، لم تكره حياتها الجديدة ، لكنها كرهت هذه الخدعة فأضمرت فى قلبها السوء والانتقام .

وفى باريس ، ومنذ عشر سنوات ، كان هناك عمال يصنعون الزجاجات الفارغة، وفى ليون، ومنذ تسع سنوات ، كان ثمة آخرون يملأون بالنبيذ هذه الزجاجات .. ورحلت هذه الزجاجات وصُدِّر بعضها للغرب وصُدِّر بعضها إلى الشرق ، وتدحرجت بضع زجاجات من يد تاجر إلى يد آخر وعددها يقل ويقل حتى استقر بعضها فى شارع من شوارع القاهرة .. وقبيل مصرع الحلو بيومين كانت إحدى هذه الزجاجات قد استقرت على رف من رفوف حانة النصر وفى متناول أحد الجنود .

ولقد عاد الحلو من التل الكبير فوجد كل شىء معدا لمصرعه ، ولقد عثرنا على محاولات قامت لإحباط هذه المؤامرة ، أهمها تلك المحاولة التى قامت فى اللحظة الأخيرة، لكنها كانت محاولة فردية لم يكن لها تأثير كبير على مجرى الأحداث .. ففى زقاق المدق ، وفى ليلة الحادث ، كان السيد رضوان الحسينى ينوى أن يقوم بالحج ، وسمعه الحلو وهو ينصح الحاضرين قبل سفره بالشجاعة والصبر وأن لا يضعفوا أمام اليأس والغضب، لكن هذا الصوت الهادئ ضاع وسط الضجيج الهائل الذى كانت نفس الحلو تصطخب خلاله فى تلك الليلة ، حقا لقد تردد قليلا ، لكنه ما كان يمكنه أن يعود إلى طبيعته الأولى .

ولقد عثرنا مع القتيل ليلة الحادث على علبة بها عقد ذهبى مُركَّب من سلسلة وقلب رقيق، ودلت تحرياتنا على أن الحلو قد بلور فى هذا العقد عواطفه وجسَّد آماله وارتبط به ارتباطا أكثر واقعية فى حركته نحو حميدة .. وعلمنا أيضا أنه حين قابلها فيما بعد ووجدها تزين رأسها بهلال ماسى وتزين أذنيها بقرط لؤلؤى أحس الحقارة والاحتقار وهو يتأمل أمامها عقده فى ذهول حتى لكأنما بريقه الذهبى الذى كان ينعكس على وجهه يشيع فيه قلقا صاخبا عربيدا .. وبهذا كان وجود الهلال والقرط عليها ووجود العقد الذهبى فى جيبه حتى ليلة مصرعه عاملا قويا قد استطاع أن يغذى فيه بحق قوى الكراهية والغضب . واستطعنا بتحرياتنا أن نتعرف على الصائغ الذى قام بصنع ذلك العقد ، وهو غير الصائغ الذى باع لحميدة الهلال والقرط ولو أنهما يسكنان فى حى واحد ، ودكان كل منهما يكاد يواجه دكان الآخر .

كان قد لقى حميدة وأشعلت فيه نار النقمة من الرجل الذى سلبه سعادته ، وتواعدت معه على أن يلقاه يوم الأحد ليقتص منه .. ومع ذلك فإن الحدث لم يقع يوم الأحد أبدا ، فقد كان لقاء الأحد مدبرا ويعرفه إنسانان هما حميدة والحلو ، أما مصرعه فقد ذهب الجميع ليشاركوا فيه من غير أن يدبره أو يعلم به أحد .. وهكذا تمت الأمور بأسرع مما دبرها الفتى والفتاة .. فعندما هبط الليل الذى شهد هذا الحدث الكئيب ، وقبل يوم الأحد بأيام كان الحلو يسير مع صديقه حسين ليعرِّفه بطريق الحانة التى سيلقى بها غريمه فى الميعاد المضروب ، لكن كل شخص كان قد أعد الآن دوره : صديق ملحاح ، وفتاة منحته أملا أهاب به الخروج عن طبيعته ثم تركته يتمزق فى الطريق إليها ، وثالث يسعى فى سبيل عمله للحصول على قوته ، وصائغ صنع عقدا ذهبيا ، وزعماء قادوا الحرب ويستريحون الآن قليلا ، والمساء والحانة والذين صنعوا الزجاجة والذين عبؤوها والذين تاجروا بها عبر البحار والخادم الذى وضعها فوق الرف والجنديان الراحلان غدا أحدهما يسقيها من كأس فى يده والآخر يضع ساقيها على حجره وآخرون حفوا بهم وهم يشربون ويعربدون ..

فى هذه اللحظة حصل عباس الحلو على قمة تحرره ، وزايله فجأة تهيبه وتردده ، وأحس أنه يقوم الآن بمغامرة حياته ، وهى مغامرة لا يعرف لأول مرة نتائجها ولا يحسب فيها خطواته.. ومن قبل كان قد غادر الزقاق على أن يعود ، أما الآن فقد كان يغادر الزقاق فقط ، لا يهمه أن يعود ، أو يذهب إلى الأبد .. كان يحس أن هناك تحولا حاسما وملموسا يحدث الآن فى حياته كلها ، فاندفع يضرب حميدة بزجاجة من زجاجات الجعة الفارغة ، ورأى الدم ينزف منها ويغمر وجهها عنه .. وبهت الآخرون لحظة ، لكنهم سرعان ما رفضوا أن يأذنوا له بأن يعترض بحريته الجديدة طرق حياتهم ولهوهم ، حتى صديقه حسين كرشه الذى طالما غذى فيه جانب التمرد والجنون قد وقف الآن ذاهلا خارج الحانة ، وهو يحس بأن كل نصائحه وكل مغامراته لتضؤل الآن أمام هذه اللحظة التى حصل عليها الحلو فى حياته ، ولقد حصل عليها

فى الوقت الذى كان يتلقى فيه اللكمات والركلات فتحرر وأشاع معه فى الحانة حرية لا يحصل عليها السكارى بخمرهم بل هى تحتاج إلى صحو شديد ، فأيقظهم ليحررهم معه لحظة ثم دفع الثمن .. وسرعان ما كان فى خدمة اللحظة حشد من القوانين بعضها رياضى يتعلق بحركة الأجسام وثقلها ومقاومتها للضغط ، وبعضها كيميائى مثل التأكسد فى الرئتين ، وبعضها فسيولوجى مثل محاولات الدم للتخثر ونقص الكرات البيضاء والحمراء وهبوط القلب، وبعضها إنسانى عاطفى .. كانت هناك شهوات ظمأى وكانت هنالك عاطفة جريحة وسفن فى البحر وقبلات فى المخادع ونظرات عابرة فى الطريق وأشخاص يحجون وأشخاص يتمردون وحب ومقت وقوانين وزمن وأزمنة .. وفى لمح البصر أدى كل مهمته ، وتصادمت العواطف والأهواء كما تتصادم الشهب فى سماء ليل حالك فيندلع حريق كبير لحظة ثم يخبو.. وأنا وأنتم أيها القضاة والسامعون موجودون نشارك فى حشد المهازل والمآسى ، بعلمنا أو جهلنا، بحركة أو كلمة أو نظرة ، ونحن نسعى فى سبيل عواطفنا وأعمالنا ، فيطرب شخص ويمرض آخر ويُصرع ثالث ، وقفص الاتهام خال لا أحد فيه .

كنا جميعا موجودين ليلة ذلك الحادث ، ونحن نتحرك حركاتنا فيقوم على أكتافنا تاريخ الإنسان ولم نفعل شيئا فى سبيله ، وحرمناه حقه فى التحرر لئلا يحررنا معه ، واحتمينا بجهلنا وفضائلنا السابقة والمقبلة فتركناه ، ونحن نتنفس معه عصراً واحداً . ونتناول معا خبزا ربما صُنع فى مخبز واحد أو من قمح حقل واحد .. كان كل منا يعبر طريقه فى الحياة ، تختلف مدى أطماعنا ومدى قدراتنا ، وكان طريق عباس الحلو قد تعرج بين هذه الطرق حتى ضاق عليه الخناق ، شيئا فشيئا .. وقتلته اللكمات والركلات والزجاجات ، وفحص الطبيب الجثة وكتب المحقق التقرير ، وخط أمام القاتل بخط واضح ظاهر كلمة : "مجهول " .

أنيسه

كانت الفتيات الصغيرات جالسات يحدقن فى مدرستهن العجوز وهى تقص عليهن قصة يهوذا ، وكانت تصف لهن كيف كان المسيح يحب تلاميذه جميعا (كما تحبكن أمهاتكن أيتها الفتيات ...)

وكانت أنيسه عبد الملاك أكثر هؤلاء الصغيرات تحديقا وإنصاتا، فقد كانت من أسرة من أقباط مصر المتمسكين بتعاليم الدين تمسكا شديدا ، يأخذ والدها نفسه به كما يأخذ به أفراد أسرته جميعا ، يؤدى الشعائر الدينية كأحسن ما يكون الأداء ، فيصطحب أسرته صباح كل أحد ليؤدى فروض العبادة فى الكنيسة ، لا يفوته صيام كبير أو صغير ، كما كانت له عادة الاجتماع بأفراد أسرته صباح كل يوم يصلى بهم ويطلب من الله المعونة وعدم الخطأ فيما يؤدونه أثناء النهار ، وهى عادة أخذ بها نفسه قبل الزواج ، ثم أشرك زوجه فيها فيما بعد ، وظل محافظا عليها حتى بعد أن ازدادت الأسرة وأصبحت تتكون من خمسة أشخاص ... كذلك كان يغمض عينيه كلما جلست الأسرة إلى المائدة يذكر الله أنه لم ينس الفقراء والمساكين رغم ما أمامه من طعام ، بينما صغيرته أنيسه ـ وكانت أصغر أفراد الأسرة ـ متلهفة على الطعام ، تود لو ينتهى أبوها من صلاته بأسرع ما يكون لتخطف اللقيمات إلى فمها الصغير .. وكل مساء كانوا يجتمعون مرة أخرى يرتلون معا ترتيلة دينية مسائية حتى إذا وصلوا إلى هذين البيتين :

إن اتـى فـى الـلـيـل سـقـم	أو دنـا أمـر رهـيـب
عـزّ قـلـبـى يـا سـرورى	واشفِ نـفـسـى يـا طـبـيـب

أحست أنيسه بالرهبة والفزع من هذا الليل الذى تقبل عليه وشعرت أنها تدخل فى مغارة لا تدرى نتيجتها ، ثم ما تلبث أن تتجه نحو فراشها حيث تنحنى لتصلى صلاة حفظتها عن ظهر قلب تطلب من الله أن يحميها من (الحيات والعقارب وكل قوات الشرير) وهى جملة تدرك معناها جملة وإن لم تدركها لفظا ، شأنها فى ذلك شأن الترتيلة .. لهذا كانت تتصور الليل مليئا بالعقارب والثعابين واللصوص ولن ينقذها من هذه الأهوال سوى هذه التمتمات التى تتلفظ بها ..

وكانت المدرسة تتحدث الآن عن قلب يهوذا الأسود وكيف أنه أحب شيئا أكثر من المسيح ، فقد كان يحب النقود .. وقد عرض عليه الأشرار الذين يسكن الشيطان قلوبهم أن يبيع المسيح ويقبض ثمنه ليشترى به منزلا كبيرا وعروسة كذلك لابنته الصغيرة سالوما ..

وتذكرت أنيسه أنها سمعت مثل هذه القصة من والدها عشرات المرات ، فالأمر لم يكن يقتصر فى منزلها على مجرد هذه الشعائر بل كان يتغلغل إلى كل صغيرة وكبيرة من حياة الأسرة .. فقد أدركت ـ وفى هذا العمر المبكر ـ أن هناك صدقا وكذبا ، أن هناك خيرا وشرا ، أن هناك ملائكة وأبالسة ، أن هناك نعيما وجحيما ، أن هناك أبيض وأسود وعرّفوها أين يجب أن تكون ، وماذا ينتظرها إن هى انحرفت .. فقد حدث ذات مرة أن أقبلت الصغيرة من مدرستها تتلفظ بكلمة سمعتها ذلك اليوم من زميلة لها ، وكانت معجبة بمخارج الحروف وبقدرتها على تحريك لسانها وشفتيها بلفظ جديد وإن لم تفقه معناه ، فما أن لفظتها حتى التفتت إليها أمها منزعجة تسألها من علّمها التلفظ بتلك الكلمات، فلما أجابتها بأنها زميلتها صفاء أمرتها ألا تتفوه بها مرة أخرى لأنها كلمة (قبيحة) وأن تتجنب مثل هذه البنت ، وسرعان ما نسيت البنت هذه النصيحة وما لبثت أن كررتها مرة أخرى أمام والديها ، فما لبثت الأم أن صرخت فيها وهددتها بأنها ستذهب إلى النار (حيث يأكلها الدود) إن كررت هذا اللفظ ، وحاول الوالد أن يهدئ من ثورة الأم حين رأى ابنته تبكى ، لكنه حين علم بأنه قد سبق التنبيه عليها انضم إلى الأم مقرعا ابنته حتى أحست أنيسة أنها كائن بائس لا نصير له وأن النار والدود ينتظرانها مادام والداها غير راضيين عنها ..

وعادت المدرسة تقول إن الأشرار تركوا يهوذا ، لكن الشيطان بقى يوسوس فى أذنه (ومثلت المدرسة شكل الشيطان وهو يوسوس فى أذن يهوذا) وضحكت بعض التلميذات ، لكن أكثرهن ظللن واجمات تنطق وجوههن بالخوف والإشفاق على ما ينتظر المسيح من مصير على يد يهوذا .. والمدرسة تقص كيف انتصر الشيطان واتفق معه يهوذا على أن يسلّم المسيح للأعداء .. ولما كان الأعداء لا يعرفون المسيح فإنه سيتقدم نحوه من دون التلاميذ ويقبّله، فيظهر أمام المسيح بمظهر الصديق الحميم ويعرف الأعداء أنه الشخص الذى يريدون ..

وتذكرت أنيسة أن الكذب أنواع ، وأننا مهما تحايلنا فإن الله يكتشف أين كذبتنا .. لقد كان يحلو لها أن تتخيل أحيانا مالا وجود له ثم تقصه على والديها أو أخويها كأنما رأته رأى العين..

وكان والداها يدركان - بما هما عليه من ثقافة - أن هذا أمر طبيعى ينشط به الطفل ملكة التخيل لديه ، فلم يكونا يفسرانه على أنه كذب ، لكن والدها قص فى أحد الاجتماعات العائلية الدينية الصباحية قصة الزوجين حنانيا وسفيرا اللذين ورد ذكرهما فى الإنجيل ، وكيف أقبل الزوج على بطرس تلميذ المسيح وأخبره بأنه باع ما يملكه ويهب كل ثمنه للكنيسة ، ثم قدم له مقدارا من المال ، لكن بطرس أدرك أن حنانيا لم يُحضر له كل الثمن وواجهه بذلك فسقط الكذاب ميتا على الأرض ، وما لبثت زوجه أن أقبلت بغير أن تعرف ما حدث لزوجها وأكدت أن المبلغ الذى أحضره زوجها هو ثمن ما باعه حقا .. فقال لها بطرس إن الذين دفنوا زوجك سيدفنونك أيضا .. ومن يومها تعلمت أنيسة أن كل من يقول غير الحقيقية يقتله الرب ، ويكون مصيره مصير حنانيا وزوجه سفيرا .. ومع ذلك فقد كانت كثيرا ما تقص قصصا لم تحدث .. وعندما كانت صغيرة جدا لم تكن تميز بين الحقيقة والخيال ، لكنها بعد أن كبرت قليلا واستمرت على عادتها كانت تدرك فعلتها لكن بعد أن تكون قد روت كل ما لديها ، فتذهب إلى النوم خائفة تحسب أنها ستقتل فى كل لحظة وأنها لن تستيقظ أبدا من نعاسها إن هى استغرقت فيه .. وهكذا وقر فى نفس أنيسة صورة العقاب المخيف ، وذلك لكل من يكذب أو يشتم أو يحلف، ولم يكن الأمر يخلو من أن تكون هى واحدة من هؤلاء بين حين وحين عندما يغرر بها الشيطان ..

وقبض أصدقاء الشيطان على المسيح ، وانصرف الجميع ، وأصبح يهوذا وحده وبيده النقود يحدق فيها ، وهنا جاءه الشيطان وهو يضحك ضحكا شديدا هذه المرة ويخرج لسانه ليهوذا صائحا بصوت مستنكر (وزاد وجه المدرسة تجعيدا وهى تصيح فعلا مقلدة صوت الشيطان) ها ها .. لقد ضحكت عليك أيها العبيط وجعلتك تبيع الصديق الذى أحبك بنقود ستنفقها ولا يبقى منها شىء معك بعد قليل ، ولكن ستبقى فى قلبك الأسود هذه الفعلة الشنيعة ، ولن تستطيع أن تكلم بعد اليوم أبدا تلاميذ المسيح الآخرين مثل بطرس ويوحنا ولوقا . والتفت يهوذا حوله يريد أن يضرب ذلك الذى مكر به وخدعه لكن الشيطان انحنى بسرعة وتفادى يهوذا ثم تعلق بقفاه ، فكان يهوذا يحس به ولا يراه ، يسمعه ولا يستطيع أن يمسك به .. واقشعرت أصغر الفتيات سنا مثل فهيمة وإنصاف وشفيقة وليزا وأنيسة ..

وكانت أنيسة تعانى أزمة نفسية عنيفة .. فمنذ أيام اكتشفت أسرتها ذات صباح أن يمامة صنعت لها عشا على قاعدة شباك المطبخ ، وخلف صينية القلل تماما ، وقد تفاءلت الأم بوجود هذا الطائر الوديع (ويبدو أن ذكره قد أتى فى آية من آيات الإنجيل) فحرمت على أولادها أن يعبثوا بهذا العش ، وأفهمتهم أن اليمامة ستبيض وشيكا وتضع أفراخا صغارا ، وحرام ألا يوفروا الهدوء اللازم للأم وأطفالها .. وظل الأطفال يراقبون العش باهتمام كل يوم حتى شاهدوا - فى غياب اليمامة وأمهم أيضا - بيضتين صغيرتين غارقتين فى أعشاب العش القصير الجافة المتماسكة ، وقد فرحوا برؤية البيض فرحا عظيما واعتبروه كأنما هو انتصار

لهم أو كأنما هو نتيجة لجهودهم ، وظلوا يترقبون يوما بعد يوم أفراخ هذا البيض لينعموا برؤية طائرين صغيرين لم يشاهدوا مثلهما فى حياتهم ...

وبالأمس مساء ، وقبل العشاء ، كانت الأسرة تجلس فى شرفة المنزل فى الطرف الشمالى منه يستمتع أفرادها بالهواء الرطب المنعش وهم يتسامرون ، وقد جلس على مبعدة منهم خادمهم عجيب ، وهو صبى لا يتجاوز الحادية عشرة كان قد أحضره بواب المنزل من قريته ليشق طريقه ويجرب حظه فى مدينة مزدحمة كالقاهرة ، وكان الآن قد أنهكه عمل النهار ، فانزوى فى ركن الشرفة شبه نائم ..

وفجأة تسللت أنيسة من بين الجماعة معللة نفسها برغبتها فى شرب قليل من الماء، والواقع أنها لم تكن ظمأى إلى الماء بقدر ظمئها إلى رؤية ما تم فى أمر البيضتين، فاتجهت على أطراف أصابعها إلى المطبخ ، وهناك سحبت مقعدا وضعته بجانب الشباك ، ثم اعتلته ونظرت خلف القلل .. كانت اليمامة هناك ، لكنها رأت ـ ويا لفرحة ما رأت —فرخا صغيرا ضئيل الحجم يفتح فمه بجوار أمه كأنما يبحث عن شىء ، أما البيضة الأخرى فيبدو أنها كانت لا تزال كما هى ، ولم يفزعها وجود اليمامة ـ التى كانت الآن نائمة ـ ولا هو غيَّر من خطتها التى صممت عليها، بل مدت يدها تريد أن تخطف الفرخ الصغير لتمسكه وتتأمله عن قرب ، وفزعت الأم من نومها وحلقت فى عنف بعيدا حتى لقد تطاير منها الريش .. ولا تدرى أنيسة حتى الآن هل وقع العش وتناثر بسببها أم بسبب طيران اليمامة المفاجئ . كل ما تعيه هو أنها وجدت أمامها وعلى بلاط المطبخ الأبيض بعض أعشاب العش المتناثرة ، ثم البيضة الأخرى وقد تكسرت فظهر من داخلها فرخ آخر أقل حجما ينبض بالحياة وإن كانت قطرتان من دم تنتشران على جلده الشاحب المنحول ، أما الفرخ الآخر فيبدو أنه سقط خارج النافذة فى فراغ المنور .. وفزعت الصغيرة مما رأت ، وجرت إلى الخارج ، فلما اطمأنت إلى أن الجميع غافلون عنها ، ولم يتنبه واحد منهم إلى ما حدث أطفأت نور المطبخ ثم تسللت إلى الشرفة حيث كان والدها وأخواها مازالوا يتسامرون ، بينما كان الخادم الصغير يغط فى نوم عميق .. وما لبثت أن صاحت فى عجيب لكى يستيقظ ، ثم طلبت منه أن يذهب إلى المطبخ ليأتيها بكوب ماء ، وكأنما تذكر الجميع فجأة ظمأهم فطلبوا واحدا بعد الآخر نفس الطلب ، لهذا عدلت الأم طلبها وأمرت خادمها أن يحضر القلة نفسها ، واتجه الصبى نحو المطبخ ، لكن حين أضاء النور لاحظ الفرخ الصغير الملقى على الأرض وهو لا يزال ملتصقا بقشرته يفتح منقاره كأنما يلهث.. وتأمل الصبى المنظر العجيب مندهشا ثم قاده حب الاستطلاع إلى أن يمسه بيديه ، وجلس الطفل يداعب الفرخ الذى كان يقاوم الموت ونسى ما كلفته به سيدته حتى طالت غيبته ، فصرخت تنادى عليه ، لكنه كان مشغولا باكتشافه الرائع ، لهذا قامت بنفسها لترى ماذا يفعل الصبى ، ولدهشتها وجدته منحنيا على الأرض وبيديه الفرخ وقد تدلت رقبته وأسلم أنفاسه بينما تناثر قشر البيضة وأعشاب العش الجافة على أرض المطبخ فصاحت السيدة فى دهشة :

باسم الصليب ، ماذا تفعل أيها الولد ؟ وفزع الصبى بينما أطلقت السيدة صارخة : لماذا فعلت هذا ؟ لماذا اقتربت من العش أيها المجرم الذى لا قلب له ؟ وأقبل على صراخها أفراد الأسرة ، وأنيسة من بينهم ، وصاحت الأخت الكبرى نصيفة : بسم الأب والابن والروح القدس ، ماذا حدث ؟ والخادم يزعق ويحلف بأنه لم يقترب من العش بل وجد الفرخ ملقى على الأرض ، ولما كانت له سوابق فى الكذب فإن السيدة انهالت عليه ضربا ، وكان كلما حلف ضوعف عقابه .

وزعق الابن الأكبر شفيق قائلا : اخرس أيها الكذاب. وقال الوالد : إذا قلت الحق سامحناك. وكان الحق الوحيد أن ينسب إلى نفسه ما وقع بالعش ، لكن الولد أصر على أنه لم يعبث بشئ، وأنيسة تستمع إلى ما يدور وتلاحظ غضب والديها وأخويها الشديد وترتعد خوفا لا تدرى ما عسى تكون النهاية .. وإزاء إصرار الصبى على الإنكار التفتت الأم إلى أولادها تسألهم : هل اقترب أحدكم من العش ؟ .. وقبل أن تسمع الإجابة من أحدهم استمرت تسأل : هل اقتربت من العش يا شفيق ، هل اقتربت يا نصيفة ، هل اقتربت يا أنيسة ؟ وكأنما كانت أنيسة لا تملك اختيار إجابتها ، فقد سمعت أختها تقول : لا ، وأخاها يقول : لا ، وبطريقة آلية قالت هى أيضا : لا .. ولا يمكن أن يكون لدى السيدة أم شفيق ابن يكذب ، لهذا انهالت مرة أخرى على الولد وهى تقول له : إنك ستعلِّم أولادنا الكذب، وأنيسة واقفة ترقب ما يحدث ، إنها لا تحس أنها كذبت فحسب ، بل وأن بريئا يعاقب بدلا منها .. وزاد إحساسها بثقل الخطيئة حين جلسوا يتناولون العشاء وقد حرموا منه الخادم الكذاب ، وهو يبكى صارخا: أريد أن أعود إلى أهلى ، أريد أن أسافر بلدى .. والأب والأم يأمرانه بالصمت .. ولم تتناول أنيسة إلا لقيمات فى بطء ، فقد انعدمت شهيتها إلى الطعام ، وبزغ فى نفسها صراع بين أن تقول الحقيقة وأن تصمت ، وكلما مرت الدقائق وجدت فرصة الاعتراف تتضاءل ، ومع ذلك ظلت حزينة حزنا عميقا حتى أنها حين رقدت فى سريرها عاودها ذلك الخيال المرعب ، أنها إن نامت فلن تصحو أبدا، ستموت كما مات حنانيا وكما ماتت زوجته سفيرا ، ثم تذهب إلى النار حيث يأكلها الدود ، وكانت تفزع لهذه الخواطر فلم تجد إلا دموعها تلجأ إليها فى محنتها ، فاغرورقت عيناها، وأصداء التراتيل المسائية تملأها رهبة ، وقامت وركعت تكرر صلاتها وتطلب حمايتها من الحيات والعقارب وهى تحس أن أحدا لن يسمع منها وأن عين الله لا تنظر نحوها إلا فى غضب مقيت ، وظلت تناوشها هذه الأفكار حتى استغرقت أخيرا فى النعاس . وعندما استيقظت فى صباح اليوم التالى لم تكن قد نسيت شيئا مما حدث .. لقد وجدت أن عجيبا كنس المطبخ فأزال الأعشاب الجافة وقشر البيض والفرخ الميت ، لكنها رفعت عينيها تبحث عن جريمتها فى وجوه والديها وأخويها فلم تجد إلا عجيبا متجهم الوجه يبدو عليه الخوف من كل حركة تتجه نحوه كأنها موجهة لضربه ، والكل ينظرون إليه نظرتهم إلى الكذاب الخائن الذى حطم عش اليمامة الوادعة ، وهى وحدها التى تعرف الحقيقة ولا تستطيع أن تصرح بها ولا تستطيع كذلك أن تنساها .. وهكذا ذهبت فى طريقها إلى المدرسة وهى تحس

بضيق شديد لا تعرف كيف تقضى عليه وتتخلص منه ، حتى وهى جالسة فى حصة الدين تستمع إلى قصة يهوذا بانتباه شديد وتتلهف لمعرفة مصيره .

واستمرت المدرسة فى قصتها ، تروى كيف أن يهوذا لم يستطع أن ينام طوال الليل ، وكيف أن ابنته سالوما كانت تسأله عن العروسة التى وعدها بها لكنه لم يجبها بشىء، وكيف أن الشيطان كان يقفز حوله طول الوقت بحيث لم يجد طريقة للخلاص إلا أن ينتحر بشنق نفسه..

وقالت طفلة فى انفعال :

ـ أحسن ..

وسألت أخرى :

ـ ما معنى شنق نفسه ؟

فأجابتها زميلة لها :

ـ يعنى علق حبلا حول رقبته ..

وفجأة رؤيت أنيسة وقد تشنجت أطرافها وأصرت بأسنانها وهى تبكى بكاء مرا .. وأسرعت المدرسة ، وفزعت الطالبات ، وأخذن يبكين بدورهن .. وكانت عينا أنيسة المحمومتان محدقتين ـ رغم ما فيهما من دموع ـ تبحثان هل يمكن أن يكون هناك شيطان يمسك برقبتها.. وكأنما ببكائها تستنجد بهذه المجموعة من الناس ليتجمعوا حولها فتحتمى فيهم ، وكان الآن شعر المدرسة الأبيض يقف بينها وبين هذه العين مما طمأنها قليلا .. وأقبلت ناظرة المدرسة على الهرج الذى شاع فى الفصل تسأل عن الضجة فأخبرتها المدرسة قائلة :

ـ لقد كنت أقص قصة يهوذا ، ويبدو أن هذه الطالبة قد تأثرت لمصير المسيح على يد هذا الخائن ، فانتابتها هذه النوبة من البكاء .. إنها الآن أحسن قليلا ..

المعدم الثامن

كان ذلك يوم الجمعة ، وكان محجوب قد أمضى الصباح كله فى عمل قام به بكل نشاط واهتمام .. كان قد خرج إلى الحوش، فوجد نفسه أمام بيت من بيوت النمل، فسلط عليه الماء حتى أغرقه وهو يتأمل محاولات النمل للخلاص .. ووجد لذة غريبة فى هذا الاكتشاف المفاجئ ، وأدار نظره فى الحوش فوجده مليئا ببيوت النمل الكبير والصغير والأسود والصفر ، فأمضى الصباح كله يملأ أقداح الماء ويصبها فوق بيوت النمل وهو يتأمل الطرق التى يحاول بها النمل إنقاذ نفسه ، وهو يجد لذة مرهقة فى أن يسد عليه كل منافذ الخلاص ..

والواقع أن هذا العمل لم يكن ليستأثر إلا بانتباهه السطحى أما فى أعماقه فكانت ثمة زحمة من الأحاسيس والعواطف المفزعة الأسيانة ..

كان فى المحكمة بالأمس ينادى كعادته بصوت مرتفع جاد : محكمة ! فتدخل هيئة القضاء ليسمع ما تصدره من أحكام على اللصوص والمدمنين والقتلة والعاهرات وعلى إفرازات هذا المجتمع .. ومنذ عمل محجوب حاجبا بالمحكمة والمجتمع يفرز صديده دائما وباستمرار كل يوم .. كل يوم، منذ خمس سنوات .. وكان المجتمع عبقريا فى هذا الإفراز ، بحيث لم تعرض لمحجوب قط حالتان متشابهتان ، دائما كان الإفراز من نوع جديد وغريب وفظيع وبلا انقطاع..

وبالأمس ـ ولسابع مرة فى هذا العام ـ يسمع حكم الإعدام .. ولم يكن سماعه حكم الإعدام يعنى لديه سوى بضعة كلمات يقولها القاضى ، لولا أنه اتضح له بالأمس فقط أنه يمكن أن يكون هو ذلك الشخص المحكوم عليه بالإعدام ولا يزال يمكنه أن يكون الشخص الثامن ..

كان المحكوم عليه بالإعدام فى الثانية والثلاثين ـ أى فى مثل سنة تقريبا ـ رقيق التقاطيع، خجولا ، حييا ، له أنف دقيق كأنه أنف فتاة ، وعينان عسليتان تدوران فى أرجاء القاعة كأنما

تبحثان عن منقذ أو معزٍّ له فى بلواه .. وكانت تلك هى خامس جلسات هذه القضية وآخرها .. وكانت الدلائل والقرائن على جريمة الشاب واضحة .

كان الزوج قد دخل وهذا الشاب يخلو بزوجته ، فلما هم الرجل يخنقه بيديه ، أمسك الشاب خنجرا كان يحمله معه تأهبا لما عساه يحدث ، وظل يطعن الرجل حتى مات .. وكانت المرأة تولول فى هذه الأثناء جزعا على زوجها وعلى عشيقها ، فأقبل أكثر من جار وشهدوا بعيونهم الشاب وهو يطعن الزوج طعناته الأخيرة ، واعترفت المرأة بالقصة وحاول الشاب الإنكار فى أول الأمر ، لكنه ما لبث أن اعترف فثيابه الملوثة بالدم ، وبصمات أصابعه على الخنجر وشهادة الشهود ..

وتذكر محجوب موعده مع حسنية فى عصارى اليوم ، وماذا يحدث لو دخل عليهما أبوها ؟ أما يمكن أن يكون هو الشخص الثامن الذى سيقف فى القفص المرة المقبلة ويسمع حكم الإعدام على نفسه من فم القاضى ؟

وعندما صحا من نومة الظهيرة كانت أمه العجوز تتشاجر مع بائع الفجل .. ولم يكن هذا جديدا عليه .. فقد كان محجوب يسمعه فى حارة الزرايب كل يوم من أمه ومن الجارات مع بائعى الفجل والفول ومع الست أم حسن بائعة الطعمية على طرف الحارة الشرقى .. ومع ذلك فقد أنصت اليوم فى دقة إلى النقاش الدائر بين أمه وبائع الفجل .. كانت أمه تريد شراء ست حزم بعشرة مليمات وكان البائع يصر فى صوته الأجش الغاضب على أن يبيعها باثنى عشر مليما .. وكان حجة أمه فى رأيها أنها ستشترى بسعر الجملة وكان الرجل مصرا على أن يبيع كل حزمة بمليمين مهما كان مقدار ما يبيع .. وأثار هذا الشجار فى نفسه مجموعة من الأحاسيس المتشابكة المختلفة الممتدة كأنما إلى أعماق سوداء مظلمة لا آخر لها ، إحساس بالاشمئزاز وبالحقارة وبالضعة التى تبلغ حد الجريمة وبرطوبة الحارة وقذارتها والوحل المتراكم فيها ومجموعات الذباب المزدحم على أنوف أطفالها وعيونهم وأفواههم ، وبالشجار الذى لا ينقطع خارج البيوت وداخلها ، وبالكابوس الجاثم من الأزل على معدته وعلى روحه .

وتذكر موعده مع حسنية .. كان يحلم بهذا الموعد منذ أكثر من أسبوع ، وإن كان يمهد له ويعد العدة منذ شهور .. كان الرجال ينقسمون أمامه إلى قسمين : رجال لهم نساء ورجال بلا نساء ، وكان يعذبه أنه من رجال القسم الأخير .. وأنه ليحرم من الطعام ليلة ويعيش أشهرا على الفول والطعمية والفجل لكن الناس جميعًا يأكلون ، أما هذا الجوع الجنسى فهو أزلى لا يتساوى فيه الناس .. وتذكر حكم الإعدام بالأمس ..

وعبر محجوب على الست أم حسن فلاحظ أنها علقت فوقها اليوم لافتة قديمة قذرة كُتب عليها " هذا من فضل ربى " ، ووصلت أنفه رائحة الطعمية .. أما هى فكانت مشغولة بضرب طفلها على مؤخرته ضربا سريعا متلاحقا ، وطفلها يزعق زعقات متقطعات متحشرجات ..

وظل يسير من حارة إلى حارة ومن زقاق إلى زقاق ، حتى وصل إلى الطريق العام حيث وقف ينتظر الترام .. وملأ رئتيه بالهواء المضىء الجاف وملأ عينيه بمناظر الفتيات المتأنقات الناعمات .. حتى أقبل الترام مزدحما ، فتعلق بسلمه واخترق الواقفين حتى وجد نفسه بالدرجة الأولى .. لم يكن بها سوى رجل بدين يرتدى جاكته بيضاء ، رأسه صلعاء وقد برزت فوق جبهته كرة صغيرة من اللحم ، فدفع الباب إلى الدرجة الثانية ، حيث أوجد لنفسه مكانا بين المزدحمين ، وحدثت المعجزة .. فقد قام شخص بدين تفوح منه رائحة العرق ليجلس مكانه محجوب ، وكانت جلسته إلى جانب فتاة رفيعة متبرقعة قد كشفت عن إحدى ذراعيها فبدت من خلال الملاءة السوداء بيضاء ناعمة طرية، وأحس محجوب بالدفء وطراوة اللحم إلى جانبه، وأخذ يتحسس ـ فى حذر ـ طريقا لذراعه إلى جانب ذراعها حتى التصقت بها ولم تحرك الفتاة ذراعها ، فاطمأن محجوب إلى أنها راضية بهذا اللصاق مما أضاف إلى لذته الحسية لذة خفية سعيدة بالانتصار.

وكان على جانبه الآخر شاب فى بذلة عمالية بها بقع من الزيت هنا وهناك ، يقرأ باهتمام إحدى الصحف المسائية ، فلم يلهه التصاق ذراعه بالحسناء المتبرقعة من أن يقرأ الصحيفة على طريقته التى تعودها كل صباح .. ذلك أن يمد بصره على العناوين الضخمة فى الصحيفة التى يقرؤها الجالس إلى جواره أو الواقف قبالته فى زحمة الترام.

كان أبوه من أهالى دمياط ، وأنه ليذكرها حين كان يصحبه فى صغره إليها ، ولا يزال يذكر سوق الحسبة والشيخ محمد الذى يحمل السلاسل الحديدية حول عنقه ويدور وسط الميدان والناس يتباركون به .. وكان يصحب أباه إلى رأس البر وقت إعدادها للمصيف .. ولم يكن يحسب أنها فى حاجة إلى مليم واحد .. أما حارة الزرايب ...

وأفاق من تفكيره حين لمح الفتاة إلى جانبه تقوم لتغادر الترام وحين أخذ يتعالى شجار قاطع التذاكر مع أحد أولاد البلد ، ونزل أخيرا من الترام فى طريقه إلى حسنية، وقد بدأ يحس حاجته إلى الحماس كى يواصل سيره .. فقد بدأ يغادر الطريق العام الفسيح المضىء ويخترق الأزقة من جديد .. وراودته الرغبة أن يقفل راجعا إلى الحوش يصب الماء فوق بيوت النمل لإغراقه ، على أن يكون الماء ساخنا يغلى هذه المرة .. وأحس أنه لا يطيق صبرا حتى يذهب إلى حسنية ثم يعود ليجرب تجربته الجديدة ويرقب نتائجها المريعة ، ورغم هذا فلقد ظل سائرا ـ ومر على عم على والد حسنية .. كان منهمكا فى ترقيع أحد الأحذية القديمة فى مكانه المعهود بجوار الحائط الخشبى ، ووقف إلى جانبه أحد الأهالى كأنما ينتظر إصلاح حذائه ، وتفرس محجوب هذه المرة جيدا فى عم على ، كان رجلا هزيلا كث اللحية أبيض الشعر .. فى الإمكان قتله لو أنه فاجأه مع حسنية .. وعاوده الإحساس بالاشمئزاز والحقارة والضعة والكراهية ، ثم الحرمان الضخم المخيف الذى يدفع إلى كل جريمة وإلى كل جنون ..

ورآها واقفة على باب الدار تستقبله بابتسامة عريضة، وفى عينيها شهوة وفى وجهها ألم وفقر وحرمان، وكانت تفوح من مدخل الدار رائحة كريهة قذرة، بينما كانت حسنية تنظف الأرض بقطعة من الورق .. كان شعرها غزيرا ناعما، وبدا عجزها، وهى منحنية تنظف الأرض مستديرا ملفوفا خلف ثوبها الأحمر الممزق .. وعادت حسنية ترحب به .. ومرت أمامه صور من المدينة الباهرة ، فأجلسها على جانبه وهو يقص عليها قصة أمس وحكم الإعدام الذى سمعه كأنما يريد أن يخيفها .. أما هى فكانت تقترب منه فى تهالك واستجداء تريده أن يقبلها.

منذ خمس سنوات وهو يقوم بمثل هذه المغامرات ، ولم يحس فى يوم أنه حصل على امرأة.. وتذكر رأس البر ، ماذا لو كان الآن مع واحدة من حسناواتها هناك ؟ إنه لا يترقى ولا يتغير ولا يتحرك .. لقد ظل حاجبا بالمحكمة منذ خمس سنوات وهو لا يأمل أن يكون خيرا من ذلك فى مقبل اليام ، ولقد ظلت حارة الزرايب بوحلها وذبابها وشجار أهلها منذ خمس سنوات، بل منذ تاريخ لا يعرف متى بدأ .. ولقد ظل يضم أجسادا كجسد حسنية فى جنح الليل ، أو بعيدا عن العيون كالمجرمين واللصوص ومع ذلك فلم يكن له بيت ولا أطفال كما يكون للآخرين.. إنه يدور ويدور لا يتقدم ولا يتطور ..

وكانت حسنية لا تزال تحاول مداعبته فنظر إلى عينيها التعبتين المتألمتين وإلى الشهوة التى تضج فى جسدها أمامه .. وتذكر فكرة الماء الساخن الذى سيصبه على بيوت النمل فى "الحوش" بحارة الزرايب ، فضمها إلى صدره ضمة قصيرة عنيفة، وطبع على جبينها قبلة ، ثم خرج يهرول ..

القيظ

محمود شاب مثقف، وهذه لعنة كافية فى هذا العصر. فهو شغوف بأن يخلق الصعاب زاعما أنه سيتغلب عليها. فمثلا عندما صحا صباح هذا اليوم تخيل أن تدخينه للسجائر أصبح عادة سخيفه تسيطر عليه، وهو يحب أن يكون حرا، فالحرية عنده لا تكون أحيانا إلا محاولة الإفلات من عادة كتدخين السجائر. لهذا قرر أن يمتنع عنها منذ اليوم. وهو لا يدرى لماذا اختار هذا اليوم بالذات من هذا الفصل من العام. فهو يزعم أنه لولا هذا القيظ الملعون الذى غمر النهار كله منذ الفجر، وجثم على أنفاس المدينة ومنازلها الضيقة المزدحمة، لاستطاع أن ينتصر فى معركته التى خلقها، غير أن شدة الحر سببت له صداعا شديدا. وأضعفت قليلا من هذه الرغبة فى إقامة أى نوع من المقاومة. وهكذا عدل عن محاولته بعد ساعة واحدة من قراره، ظل فى كل دقيقة من دقائقها يذكر أنه لن يدخن، لن يدخن. حتى تضخمت أمامه كل الأشياء، ورقصت الحروف التى كان يقرؤها، وسال العرق فى خفة على جبهته، وأمسك بالسيجارة فأشعلها، ثم ذهب فى شبه غيبوبة نشوانة.. لكن هذا لا يحدث للمثقفين فقط بل هو يحدث لكثيرين ممن يتنبهون فجأة ، فيجدون عادة قد سيطرت عليهم، وبذا يقررون أن يقيموا معركة بينها وبينهم، وما من سبب إلا أن يثبتوا أمام أنفسهم أنهم أمام قوى لا يخضعون لها، وهم يجدون فى هذا مرانا لذيذا لإرادتهم، غير أنهم يدركون بعد ساعة واحدة، أو ربما بعد شهور أنهم خلقوا معركة كى يثبتوا فيها هزيمتهم، على أنهم يحتفظون على أية حال بذكرى ذلك الصراع، ويقصونه حين تتقدم بهم السنون، فهو قد دام ساعة أو ثلاثة عشر يوما أو سبعة شهور وهكذا.

وفى الضحى كان الطريق المهجور يتعذب من الظمأ. وفى إحدى زواياه برز شاب يجفف عرقه وهو يتجه نحو بائع السجائر. وفى المساء كان عليه أن يقابل "إلهاما" ـ وهو اسم جميل بلا شك ـ ويخبرها أنه سيخطبها، غير أنه سيعلق خطبتها على شرط عليها أن تنفذه.

وفى المدينة كان الثلج قد نفد، فكنت لا تستطيع الحصول على شىء مثلج إلا بثمن مرتفع، وكانت أعمدة الترام النحاسية لا يمكن لمسها، بينما اكتظت الفتيات وهن يمسحن عرقهن ومساحيقهن محشورات بين رجال ثارت غرائزهم، وفى الطريق كان السائرون يتجمعون كالذباب حول بائعى الغازوزة وعصير الفواكه والقصب يجففون عرقهم ويلهثون كالكلاب.

أما أمه فكانت قد نسيت أن تغلى اللبن، ففسد، وأخته تعانى مغصا، بينما وقفت حمارة فجأة وسط الطريق المهجور وأفسحت ما بين قدميها الخلفيتين ثم روت قليلاً هذى الأرض المعذبة.. وراجت إشاعة فى المدينة مؤداها أن العالم كله أصبح شرا، فرأى الله أن يوفر على نفسه عملية نقل الناس إلى الجحيم بأن جعل من الأرض نفسها جحيماً.

على أية حال، كانت فى حياته ثلاث فتيات، احتللن بؤرة حياته الواحدة بعد الأخرى كعربات قطار.. أما على هامش حياته فكان ثمة عدد أكثر قليلاً، وهو لا يفصل بين الحب والشهوة. ذلك الفصل الذى شاع بين شباب العصر وفسره علماء النفس بأنه تعلق بالأم. فكل من كان محمود يحب روحها فهو يحب جسدها كذلك. غير أن هؤلاء اللاتى يضعهن على هامش حياته قد أحب منهن أجسادهن دون التعلق بأرواحهن. ومن الغريب - فى رأيه - أن الفتيات الثلاث بخلن عليه بأرواحهن وأجسادهن بينما بذلت له الأخريات ما أراد بغير ما مقابل إلا اللذة العابرة. وكان هذا ما يدهشه ويحيره فى حياته حقاً. أما الثالثة فكانت إلهام التى كان عليه أن يفقدها الليلة.

وقد اضطُّر أصحاب الموتى فى المدينة أن يعجلوا بدفن أحبائهم الموتى فى هذا اليوم قبل أن تزكمهم رائحته النتنة. وعندما جاءت الظهيرة كانت المحال العامة تروى ظمأ زبائنها بماء يكاد يغلى لأن المياه الباردة أتى عليها رواد الضحى. ورجال الحريق كانوا على استعداد لتلقى أى نبأ، بينما ازدحمت الحمامات وارتفعت فيها الأسعار، وأعلن الراديو أن المدينة لم تعان مثل هذا القيظ منذ أكثر من نصف قرن.

وكان على محمود أن ينتظر حتى المساء. ولن يخلصه من ملل الانتظار والحرارة إلا التدخين. وكان القيظ فظيعا حقا، فعندما أرسل غلامه الصغير كى يشترى له السجائر، عاد يزعق فقد كان حافى القدمين، وأرض الطريق قد اكتست بالجمر. فاضطر أن يخرج بنفسه إلى الطريق المهجور وهو يحس أنه يسير وسط أتون ، وأن ثمة دوامات نارية تنبعث من أسفل ومن فوق ومن شمال ومن يمين ومن الوراء ومن الأمام ومن هنا وهناك ومن كل مكان. لكنه واصل سيره بشجاعة حتى وصل إلى بائع السجائر.

وكان بائع السجائر شابا صغيرا ضاعت إحدى عينيه فى حادث ما - ربما أقصه عليك فى قصة أخرى - فوضع عليها زجاجة لنظارة سوداء ربطها إلى أذنيه بقطعتين من القماش. وترك العين الأخرى تتمتع بحريتها، وكانت هذه الطريقة - فى رأيه - كفيلة بأن تخفى عاهته أمام

الخادمات اللائى يأتين بقبابيهن ليشترين منه السجائر لأسيادهن، غير أن هذا لم يكن رأيى، فقد كان من المؤكد أن جميع الذين عبروا عليه لأول وهلة، يدركون أن خلف هذه الزجاجة السمراء شيئا مخجلا لصاحبها.

وكان اسم بائع السجائر أيضا محمود. وكان محمود ـ بائع السجائر ـ قد رأى محمودا ـ المثقف ـ آتيا من زاوية الطريق وعرف أنه يقصده، فأبعد الجريدة من أمام عينه ـ السليمة بالطبع ـ وقد جمع منها محصولا لا بأس به ظل عالقا منه بذهنه شيئان: النظام الجديد للتجنيد الإجبارى فى مصر، والحرب العالمية الثالثة. وكان. ككل الذين حوله ـ يهتم بالموقف العام كى يرى أين هو منه، وقد ربط ربطا آليا بين التجنيد والحرب ففزع بعض الشىء، ولو أنه اطمأن إلى أنه لن يجند بسبب عينه (الفاسدة بالطبع هذه المرة).

غير أن محمود كان يبتسم، وكان يفكر فى نفس ما يفكر فيه محمود، وكان مثار الابتسامة على شفتيه فكرة فلسفية. ذلك أن التجنيد والحرب سيخلصانه من أشياء كثيرة متعفنة فى نفسه، وسيغيران من حياته الخاملة الرتيبة.

واقترب محمود من دكان محمود، وظل يسير وسط اللفح واللهيب فى الطريق المترب، حتى رأى نفسه مقبلا نحو نفسه فى المرآة التى علقها البائع أمام دكانه.

كان محمود البائع سيعقد خطبته الليلة. والواقع أنه كان ينوى الزواج إلا أنه لم يوفق فى العثور على مسكن بأجر مناسب بسبب أزمة المساكن. وقد رأى أن يدعو محمودا، ولعل الدعوة كانت للإخبار فحسب. قال له:

ـ ستأتى الليلة يا محمود بك؟

وكان محمود بك مشغولا يتطلع باحثا عن سيجارته المفضلة فالتفت إلى محمود وقال:

ـ لأحضر كتب الكتاب؟

ـ بل مجرد خطبة فى الساعة الثامنة من مساء اليوم.

ـ ولن تعلق خطبتك على شرط معين؟

ـ ماذا؟. آه.. ما أكثر الشروط والاشتراطات يا سيدى فى هذه الأمور، وهى يمن جانب أهلها أكثر مما هى من جانبى.

ـ وهل عندك اليوم تبغ بدلا من اللفائف؟

ـ نعم يا سيدى، بلا شك، هناك..

فقاطعه محمود:

ـ ما هذه الحرارة؟ لقد قال المذيع إننا لم نعرف مثل هذا القيظ منذ حوالى ستين عاما.

وعبرت عليهما موجة من اللهيب، ثم غمرت الطريق كله، واستقرت بعض اللحظة، ومحمود يعرض على محمود أصناف التبغ.

ولم يكن فى إمكان محمود أن يلحظ نفسه فى المرآة المعلقة وهو يبتعد شيئا فشيئا عن نفسه.

فى مساء ذلك اليوم رؤى محمود وهو يدخن غليونه فى مشرب مارلى بشارع قصر النيل أمام مكتبة كتَّان. كان قد تحرج من رفض الدعوة فوعد بالحضور. وكان يدرك أنه فى مثل هذه الساعة تماما سيذهب ليفقد فتاته إلهام.

ولسنا نعرف ما هو اسم عروس بائعنا محمود، وليس من المستبعد أن يكون إلهام كذلك، لكن لا تتسرع وتظن أن هناك حيلة قصصية تجعل من إلهام عروس البائع هى نفس إلهام الفتاة الثالثة فى حياة محمود شابنا المثقف، فوجود الهوات بين هذه الفئات تجعل حدوث هذه المصادفات أمرا نادر الحدوث.. ولماذا نذهب فى الاستدلال بينما الواقع يقول لنا إنه فى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم كانت هناك فتاتان، إحداهما تُزف أو تُخطب إلى محمود فى حارة المغربلين رقم٣ حيث أضيئت الكلوبات فأضافت إلى الحر حرارة، والأخرى تجلس مع محمود وهو يدخل غليونه فى مشرب مارلى.

لم يكن محمود واثقا من نفسه إلى هذا الحد الذى به يعلق خطبته لفتاة على شرط تنفذه هى أولا. فهو يدرك أنه ليس أسهل من فقده الفتيات، فلقد فقد من قبل فتاة وفتاة غير أنه كان يحس أن حياته اليوم قد وصلت إلى مأزق، وكان هذا هو الذى يقويه ويجعلنا نتوهم أنه واثق من نفسه كل الثقة. بينما هو لا يملك ما يضمن به شيئا. ثقة أساسها الاستهتار. وهى إن نفذت هذه الشروط ربما نجا من المأزق، فإن لم تنفذه فإما أن يظل يحيا حياته المنحرفة المظلمة الكئيبة، وإما أن يتزوجها فيرتبط بها ارتباطا سخيفا من نوع ارتباطه باللفائف والتبغ، حيث يقيم معركة بينه وبينها من حين لآخر كى يجرب شخصيته ويمتحن إرادته. إذن لم يكن يرى الحرية ـ مثلما يراها بائع السجائر وأمثاله ـ فى الارتباط بعادة يحبها ويألفها. وإذن لم يكن بينهما ما يمكن أن نسميه بالحب بل هو نوع من العملية الحسابية التى قام بها محمود وحده ورأى أن يشمل فيها إلهاما أو يدعها إلى الأبد.

ولم يكن هناك غيرهما فى المكان عدا أصحاب المشرب وخدمه. وطلبا شرابا مثلجا ثم شرابا ساخنا ثم آخر مثلجا. ونضح العرق من وجهيهما وملابسهما وهما يتحدثان حديثا فيه الضحكات حينا وفيه الإرهاق أكثر الأحايين.

أما سكان المدينة فكانوا قد اكتظوا رجالا ونساء فى دور السينما التى تعرض قصصها وضجيج موسيقاها فى الهواء الطلق. وعندما ارتفعت درجة الحرارة بحيث سجل مقياسها أربعين درجة أصبح يُخشى ازديادها فيتعرض بذلك خمسمائة على الأقل من سكان المدينة للموت بضربة شمس. وفى الساعة الثامنة والنصف أذاع المذيع للمرة الثالثة تقرير مصلحة الطبيعيات، ويقول إن درجة الحرارة تستمر أربعا وعشرين ساعة ثم فى فجر اليوم التالى يعتدل الجو.

ولن أوهم القارئ بأننى لا أعرف ما دار بينهما من حديث، بل إننى أدرك الآن مبلغ الرغبة فى التعرّف على كنه هذا الحديث، لكنى أخلص إذا قلت إنه حديث ليس من المستبعد أن يبدو تافها وسخيفا، فما أكثر ما يجعل الآخرون سعادتهم تتوقف على شروط تبدو لنا من وجهة نظرنا تافهة سخيفة، وفى مجرد سردها إملال ومضايقة لنا.. أليس من الأفضل أن تجعله أنت أى شرط يمكنه أن ينال من تقديرك بحيث يصبح أهلا لخلق مأزق إذا لم يتم تنفيذه؟

على أية حال لقد رفضت إلهام هذا الشرط، رغم أنها لا تمانع-إن لم تكن ترغب ـ فى الزواج من محمود، فقد كان هذا الشرط يحتاج منها إلى أن تبذل قليلا من الجهد، وهى ترى ألا تبذل أكثر مما بذلته فى سنواتها العشرين الماضيات. كان يطلب منها أن تكافح بعض الشىء لكى تصبح أكثر نضوجا وثقافة، وهو مطلب غامض لا معنى له لديها. وما كان ليطلبه إلا مثقف مثل محمود، فهو يرى أنهما بهذا فقط يستطيعان أن يعيشا معا خيرا مما يعيش سيد مع خادمه. أما إلهام فقد شكت فيما إذا كان محمود جاداً فى علاقته القصيرة الماضية معها، وجادا فيما يطلبه منها الآن. كان كل منهما حرا مستقلا عن الآخر، لم يعرفا بعد الحرية التى لا تحيا إلا فى الضرورة. عندما يصبح كل منهما ضرورة للآخر..

وخرجا وذراعه ملتصقة بذراعها، والعرق ينضح كثيراً من جسده وأقل قليلا من جسدها، كان يمكنه أن يتزوجها، وكان يمكنه أن يدعها، غير أن العقبة التى خلقها من أجل أن يحصل على إلهام لم يستطع التغلب عليها.

وهو يمكنه الآن أن يستمر يحيا حياته الممزقة الكئيبة، وهو يمكنه أن يرتبط بها ارتباطا أسخف من ارتباطه بلفائف الدخان. وحاول عبثا أن ينام. كانت غرفته شديدة الحر لا تطاق، وكان يمكنه أن يخرج إلى الطرقات يذرعها لولا أنها ليست أقل لهيبا، فالقيظ يندلع فى كل مكان، وعب كل ما فى المنزل من مياه باردة حتى سبح فى بحر من العرق فاضطر أن يخلع كل ملابسه وينام عريانا يحدّق من نافذة غرفة نومه فى سماء صافية، وقد ظل ساهرا، وهو يذكر أنه عد فى تلك الليلة مائة نجم فقدها فجأة فبدأ يعد من جديد.

وفى الصباح التالى أخذ الجو يعتدل. فبدأ يغفو قليلا قليلا، بينما فتح محمود دكانه ومضى يرقب العابرين.

الطريق

ميدان العتبة يكاد يكون أزحم ميادين القاهرة، لا سيما فى الصباح، حين تكون الكتل البشرية المتراصة فى الترامات والسيارات أخذت تزحف نحو المكاتب والمخازن والمصانع. ويختلط الضجيج بالحركة كأنك تشهد فيلما أمريكيا عنيفا، فالسيارات مع العربات مع الترامات مع الكائنات البشرية ما بين باعة وموظفين وسيدات من كل نوع وجنس، يعبرون هذا الطريق دفعة واحدة، حتى إذا أشار شرطى المرور بيده وأطلق صفارته وقفت حركة هذا الطريق دفعة واحدة، وزحفت حركة الطريق الآخر تكتسح الهدوء المؤقت الذى ساد فيها بعض اللحظة.

ومن الميدان تمتد عدة طرق تبتلع هذا العدد الزاخر من الترامات والسيارات والخلائق البشرية المنطلقة على أقدامها، وتصب فى الميدان كتلا أخرى. وفى الطرف الشمالى من الميدان تمتد إحدى الطرق الكبرى، تأخذ من الوافدين على الميدان بقدر ما تدفع إليه.

وكان محمد أفندى عجور - وهو اسم قد يبدو مضحكا - يسير مسرعا كأنما يهرب من الميدان منطلقا فى تلك الطريق، وهو يبحث عبثا عن سبب لإحساسه بالقرف، وأمامه تماما- وعلى بعد ثلاث خطوات منه - كان الأستاذ قدرى يسير بسرعة أقل. والأستاذ قدرى هو أستاذ علم الجراثيم بإحدى كليات الطب، وقد أتيح له - بما له من علم - أن يدرك إلى أى حد يزدحم الهواء والطعام والملبس بالجراثيم، وإلى أى حد تتربص الأوبئة والأمراض فى كل مكان .

وقد حدث أن التقى الأستاذ الطبيب بعجور أفندى من قبل فى غير هذا المكان وفى غير هذه الظروف، ربما كان ذلك منذ عشر سنوات. عندما ذهب عجور أفندى مع قريب له يعرف الأستاذ الطبيب ليُحقن باللقاح الواقى من مرض معْدٍ كانت منتشرا فى تلك الأيام. وقد أبدى

الأستاذ الطبيب فى ذلك اليوم كل مواهبه واحتياطاته. وأفاد كل الإفادة من علمه وسعة اطلاعه، فقد كشف عن ذراع عجور أفندى ومسح بالمحلول المطهر على مكان الحقنة، ثم لم يعجبه ما فعل فعاد من جديد يمسح على ذراع الرجل كأنما هو فنان ناشئ يرسم على لوحة زيتية، وعجور أفندى مغمض عينيه يتوقع ولوج الإبرة فى ذراعه فى أية لحظة، ثم طهر الإبرة على النار ثم غمسها فى محلول مطهر، فهو يعلم إلى أى حد يزدحم الهواء بالجراثيم. وقد انصرف عجور أفندى وقريبه وهما يحملان ذكريات يتندران بها كلما جمعهما مجلس. ورغم ذلك فلا تحسب أن هناك الآن أية صلة من التعارف بينهما، فقد كانت القصة منذ زمن بعيد، وعجور أفندى قد يتذكرها ولا يتذكر وجه الطبيب، وكان مشغولاً بقرفه بحيث يصرفه عن تذكر أية نادرة مضحكة ذات ماض بعيد، فالصلة بينهما الآن هى صلة الطريق فى هذه الساعة المبكرة من الصباح.

وكان يمكنك أن تستدل بسهولة على أن ذلك كان فى الصباح لأن الطريق - كما يقولون بلغة المجاز - كانت تستيقظ، فالمطعم الذى يبيع الفول والطعمية يكاد يزدحم بالعمال يتناولون فيه طعام إفطارهم، والحلاق لا يزال يفتح صالونه فى تثاؤب، وبائع السجائر - والحشيش أحيانا - لم يمر به غير عشرين من زبائنه، والهواء بكر لم يلوثه بعد عرق الكادحين ولا جهدهم المتواصل المستديم.

وكان عجور أفندى قد حاذى الأستاذ قدرى وأوشك أن يسبقه حين تذكّر فجأة سبب استيائه وإحساسه بالقرف.

ولسنا ندرى أبدا ما الذى حدا بهذين الشخصين أن يسيرا فى مثل هذا الوقت المبكر فى تلك الطريق. فالساعة الآن السابعة والثلث، وعجور أفندى موظف بالحكومة المصرية، ويبدأ عمله فى تمام الثامنة، وقد أمضى فى هذا العمل نحو خمسة وعشرين عاما بين شبابه وكهولته، كان فى خلالها مثال الموظف الأمين، يستيقظ متأخرا دائما، ثم يقوم فى عجلة ليرتدى ثيابه ويغسل وجهه بل يكتفى برشه بالماء رشا خفيفا، ثم يهرول حاملا إفطاره، فإذا لم يجد أمامه فسحة من الوقت فليس من الضرورى أن يصل دائما فى الميعاد. أما الأستاذ قدرى فمحاضرته فى الجامعة تبدأ فى تمام التاسعة وليس طريقه من هنا أبدا، فهو لا يسكن هذا الحى، ولا يقع هذا الطريق بين مسكنه والجامعة، وهو يدرك أن الشوارع المزدحمة بالناس هى أزحم الشوارع بالجراثيم. فضلا عن أن اليوم كان يوم الجمعة، وهو يوم عطلة للأساتذة والموظفين.

وكان ثمة شىء مهم جدا يشغل الأستاذ الطبيب، ذلك أن أحدهم تقدم مساء الأمس بالذات ليخطب منه ابنته عفاف، وعفاف وحيدته، وهو يدرك أنه يحبها أكثر مما هى تحبه. وكان يعلم أنها ستفارقه يوما ما، غير أنه لم يكن يحب أن يواجه نفسه بهذه الحقيقة، كما كان يجيد

تأجيل التفكير فيها. حتى زاره بالأمس شاب أنيق أناقة ظاهرة، لا يزيد عمره فيما يبدو عن الحادية والعشرين، يضع عوينات أمريكية وينتعل حذاء لا صوت له، وأخبره أنه سيتزوج عفاف خلال الشهر القادم، وأفهمه بطريقة غير مباشرة أنه لم يأته لطلب موافقته بل لمجرد الإبلاغ ومن باب الذوق وكى يتعرف به، فهو متفق معها وهى متفقة معه، ثم حياه فى أدب وانصرف، وكان هذا أمرا غير مألوف فى مصر فى ذلك الوقت، وكانت عفاف قد أشارت إلى شىء من هذا القبيل لوالدها ذات مرة، غير أنه لم يحسبها جادة فى الأمر. ولم يكن ثمة قرار معين قد استقر عليه رأيه وتشغله الآن طريقة تنفيذه ، بل مجرد حيرة لا يعرف لها حلا. فهو لا يدرى هل يوافق على زواجها أم لا يوافق، وإذا مانع فهل تراه يستطيع السيطرة على الموقف أم لا يستطيع، وهل تراه يفرح أم يكتئب، وهكذا انطلق يسير متظاهرا بقراءة واجهات المحال ومراقبة وجوه العابرين. فهناك عمامة وهناك طربوش. وهذه عربة وتلك دراجة. وهذا عابس، وذاك باسم، وهذه لحية وذلك شارب، وثمة مقهى وثمة مطعم، ودكان صابون ومخزن خشب ومحل قماش فأحذية فساعات فجبن وزيت وزيتون، فرائحة تفاح، فرائحة خبز، فصوت سوط، فأرض الطريق، فطرف البنطلون، فوجهان فوجوه فوجوه ، فوجه عجور أفندى- بغير أن يعرف اسمه طبعا- بظهره المنحنى قليلا، ولحيته البيضاء النامية قليلا، وخطواته المسرعة كثيرا، وكانت هذه هى اللحظة نفسها التى اكتشف فيها عجور أفندى سبب قرفه.

والواقع أنه كان هناك أكثر من سبب باعثا له على قرفه، لكنه كان يريد أن يختار واحدا بالذات يراه هو المفسر الحقيقى لحالته النفسية. وقد ظن أولا أنه ربما يكون نفاد المرتب، فهو فى الأيام الأخيرة من الشهر، وهو يعرف مصير المرتب. سيكون ما بين الخباز والجزار والبدال وإيجار المنزل وبوفيه المصلحة ومصاريف الأولاد ومطالب الزوجة. غير أنه أبعد هذا السبب ـ رغم وجوده ـ وفكر فيما وجهه إليه رئيسه الجديد بالأمس من كلمات اعتبرها إهانة لكرامته بغير أن يستطيع الرد عليه. قال له رئيسه ما نصه: إنك مهمل لا تؤدى واجبك كاملا. وقد آذته هذه الكلمات أشد الإيذاء. واعتبر هذا تجاهلا من رئيسه للسنوات الطوال التى أمضاها فى خدمة الحكومة بغير أن يوقع عليه عقاب ولا يقدم إليه إنذار. وفجأة عرف السبب الحقيقى لاشمئزازه. وكان ذلك أمام مكتبة العرب، عندما اضطر أن ينحنى فى خط سيره ليتفادى السائر أمامه ـ وهو الأستاذ قدرى ـ ثم يعود فينحنى ليسير فى طريقه مسرعا من جديد.

فى هذه اللحظة وقف الأستاذ الطبيب ثم عبر الطريق، ففى الجانب الآخر كان قد استلفت نظره محل لبيع المجوهرات والمصوغات وكانت الألوان الفضية والذهبية والزمردية تبدو كأنها منداة، فوقف يتأملها، وقد أشاعت هذه الحركة المفاجئة بعض الاضطراب فى سير عجور أفندى، لكن سرعان ما انتظم خطوه، واختفت مؤقتا قامة الطبيب الفارعة من مجاله البصرى، وإن ظل ظلها بمجاله الذهنى.

ولمح الفقاقيع تتصاعد من نرجيلة أحد الجالسين على المقهى، وهمَّ اثنان أن يتشاجرا ثم عدلا، ونادى رجل وأجابت امرأة، واصطدم به طفل وكاد يصطدم بآخر. وأخذ الطريق يزدحم وحركة السائرين والراكبين تسرع فيه، ومما لا شك أنه كان هناك فى الطريق أشخاص كثيرون ليسوا أقل أهمية من الموظف الحكومى والأستاذ الطبيب، غير أنهم ربما كانوا أقل حيرة وأكثر وضوحا فى حل مشاكلهم اليومية، ومنهم ذلك الصائغ النحيف الوجيه الذى فتح لتوه دكانه وكان أول الداخلين فيه هو الأستاذ الطبيب.

وسأله عن سعر الذهب اليوم، وفكر لحظة أن يبيع مصوغات زوجته التى توفيت منذ زمن غير قريب، ثم استنكر هذا الرأى، ثم عاد يسأل عن ثمن الأقراط والأساور والخواتم، وتحير فيما عساه يختار. فلما خرج كان يحمل فى جيبه سوارين دفع فيهما كل ما كان معه من نقود. فلقد كان يحب أمها، وعفاف اليوم شديدة الشبه بأمها.

ومرقت سيارة ومن خلفها دراجة. وانبعثت فجأة موسيقى صاخبة من مذياع ثم عادت وتلاشت. ونادى البائع على صحف الصباح. ووقف عجور أفندى وأشعل سيجارته وتأمل لهب الثقاب لحظة ثم سرعان ما أطفأه وعاد يسير، وهو كلما تذكر تفاهة السبب ـ وهو يمسح إحدى عينيه التى تطاير فيها بعض رماد السيجارة فآلمته ـ زاد هذا فى قرفه. فالمسألة كما بدت له فى ظاهرها بدأت هكذا – وهنا حك ظهره لسبب ما ففى المساء عندما حان وقت العشاء أحضرت له زوجه بيضا مقليا، وهو لا يذوق البيض المقلى أبدا ، وصاح فيها مؤنبا: هل تعرفين أنى آكل البيض المقلى؟. وأنت ترى من هذا أنه كان مؤدبا فى غضبه عن كثير من الأزواج فى ذلك الوقت، غير أنه لم يكتف بهذا بل تظاهر بقذف الصحن، وكان ينوى إبعاده عنه فحسب إظهارا وتعبيرا عن غضبه (وهنا شاهد رجلا ينزلق فى الطريق فانطلق ضاحكا بصوت مسموع) غير أن الصحن الملعون ظن أن عجور أفندى جاد فى غضبه، فاندفع يتدحرج من فوق المنضدة على الأرض، وظل يتقلب ويدور محدثا صوتا متكررا مزعجا حتى استقر وقد تناثر ما فيه من البيض والسمن، وكان عجور أفندى جائعا كل الجوع غير أنه لا يستطيع التراجع الآن لا سيما وأن امرأته بدأت تدافع عن نفسها، وكان هذا هو أفظع ما فى الموضوع فلماذا يتاح لها أن تدافع عن نفسها أمامه ولا يتاح له هو الدفاع عن نفسه أمام رئيسه؟ وهكذا صرخ آمرا أن تصمت غير أنها لم تصمت، وكان قد تزوجها منذ خمسة وعشرين عاما، منذ اليوم الذى تسلم فيه عمله تسلمها هى من أبيها، وتذكر الآن فقط أنه كان قد قرأ فى الصحف أن ثمة حركات نسائية ظهرت فى البلد (وهنا شم رائحة كعك ولمح غباراً يتطاير وراء عربة) غير أنه ما كان يحسب أن أثر هذه الحركات سيصل إلى بيته فيرى زوجه تثور أمامه وترد على كلماته بمثلها وتزعزع مكانته وهيبته أمام الأولاد الذى رآهم إذ ذاك يتسللون فى خوف وحذر يراقبون المعركة من بعيد. وعندما حان وقت النوم لم يدّعها معه إلى الفراش، وأغاظه منها أنها لم تبد أية رغبة. وكان هذا ـ فيما يبدو له ـ سر قرفه الحقيقى.

وفجأة وجد نفسه وجها لوجه أمام مصطفى بك رئيسه الجديد. كان شابا فى مقتبل العمر، جميل الوجه أنيق الهندام شامخ الطلعة، يصلح أن يكون زوجا ممتازا لكبرى بناته. وشوهد عجور أفندى وهو يسرع ويسلم منحنيا ثم يشعر بنوع من الحيرة لأن لا يدرى ماذا يمكنه أن يفعل فى هذا الظرف المفاجئ إكراما لرئيسه. وقد سأله مصطفى بك متلطفا عن سبب وجوده فى هذا الطريق، وكان هذا فى الحق سؤالا محرجا للغاية، وعجور أفندى ليس حاضر البديهة فيما يبدو، فكان عليه أن يفكر قليلاً. حتى سأله مصطفى بك مرة أخرى عن الأولاد وصحتهم. وكان من الواضح أنها أسئلة لمجرد التلطف فى الحديث ولا يهتم صاحبها بأية إجابة، إلا أن عجور أفندى بحث عن إجابات دقيقة مخلصة. ورغم أنه لم ينس كلمات الأمس إلا أن هذا التلطف فى الحديث أثلج صدره وأشاع الغبطة فى روحه وجسده وأزاح عنه مؤقتا ذلك الإحساس بالقرف والهم والشعور بالشيخوخة والنقص، حتى لقد شوهدت ثمة ابتسامة عريضة عالقة بشفتيه عندما انطلق يسير وحده من جديد.

فى هذه اللحظة - وعلى الجانب الآخر من الطريق - كان الأستاذ قدرى قد عاد فسبق عجور أفندى وكانت خطواته الآن قد انتظمت بعض الشىء وأسرعت قليلا عن ذى قبل، وفى تفكيره لم يكن قد استقر بعد استقرارا تاما فيما يتعلق بمستقبل عفاف، وفى جيبه كان يحمل سوارين كمفاجأة وتهنئة، ثم أصبح تتبعه عسيرا وسط الزحام المتكاثر، فكان يختفى حينا ويبدو حينا، ثم أصبح يختفى أحيانا ويظهر لماما. وسعل رجل وبصق آخر، وتدلت الذبائح الحمراء المشوبة بالبياض، وتدحرجت برتقالات صفراء من عربة تنهب الأرض، ومرت فتاة وأقبلت أخريات، فثلاثة رجال فأربعة رجال، وجانبا الطريق يزدحمان ويزدحمان، ثم يمتلئ الطريق نفسه ويزدحم حتى يكاد يقف المرور ويتكاثر الناس ويتجمعون فى شبه دائرة، ربما هو شروع فى مظاهرة، أو لعلهم يلتفون حول صبى جريح يتأملون فيه الموت وينزعجون، وفجأة انطلقت أيديهم بالتصفيق، ووجد عجور أفندى نفسه أمام الأستاذ قدرى وجها لوجه، وتفرس فيه قليلا، وتذكر شيئا غامضا أقلقه لحظة، لعله شىء قريب جدا ولعله شىء بعيد جدا، ثم عاد يمد قامته عساه يلمح شيئا، وسمع بعضهم يقول إنه مزاد أوشك أن يبدأ، ثم سمع من يستخف هذا الرأى ويقول بل هو خطيب يستريح لحظة ليعاود الصياح، وقال ثالث مؤكدا: بل هو أيها المغفل حاو من الحواة. وود عجور أفندى أن يتأكد مما يزدحم حوله الناس فى مثل هذا الوقت من الصباح، فقد كان يحسب الناس فى مثل هذا الوقت من النهار، وفى مثل هذا اليوم من الأسبوع لا يزالون جميعهم يغطون فى نوم عميق. ومد أذنيه ومد عينيه. وفجأة أخذت السماء تمطر رذاذا خفيفا- فقد نسيت أن أقول إنه كان يوما من طلائع الخريف- وقبل أن يعرف عجور أفندى حقيقة الزحام كان الجمهور قد تفرق مسرعا، فلما انجلت الطريق كانت الأرض قد ابتلت بللا خفيفا، والشمس عادت مشرقة إشراقا هينا رقيقا، والأستاذ الطبيب قد انغمر فى الزحمة الهاربة.

وفاحت رائحة عطر فرائحة شواء فرائحة عطر، وأقبلت فتاة فأخرى، ثم فتى وفتاة، ثم فتى وفتاتان، ثم فتيان وفتيات، ممتلئين صحة وأملا. أما هو فكان يحس أنه قد استُنفد، وكان واثقا أن الشيخوخة شاعت فى روحه وجسده، وأنه عبر الطريق من آخرها منذ خمسة وعشرين عاما، منذ اليوم الذى طلق مدرسته ووجد وظيفته وتزوج. منذ ذلك الحين وهو يحس أن حياته كبندول الساعة تتحرك من تلقاء ذاتها، نفس الحركة مرة كل أربع وعشرين ساعة. أما هؤلاء فلما يبدأوا طريقهم فى الحياة بعد، وهم يستطيعون أن يفاضلوا بين شتى الطرق ويختاروا منها واحدة تلائمهم، يجدون فيها أحلامهم، ويعثرون فيها على كنوزهم المخبأة فى نفوسهم..

ولسنا ندرى ما الذى أغرى محمد أفندى عجور على هذا النوع من التفكير المعقد الحزين، فهو قد يشيع فى دمائه كسديم عاطفى أسيان، لكنه قلما يتضح له هذا الوضوح، لعله رؤيته لرئيسه الشاب، ولعله مراقبته حقا للفتيان والفتيات الممتلئين صحة ونضارة، ولعله قرفه مما حدث له بالأمس، ولعله أن يكون سيره الذى لم يتعوده فى هذا الطريق فى هذا الوقت الحى النابض من النهار..

وكان ثمة خادم فى الطابق السابع تنظف سجادة على رأس المارين، وأخرى تدلى بسلتها وتصرخ، وسائر يقرأ صحيفة، وآخر يحدق فى الفراغ، وهذا رأسه صلعاء وتلك شعرها مسترسل، وسيارة بوقها يدوى، ومذياع قرآنه يعلو، ورجل يسرع وامرأة تتحدث، وكلب يجرى وطفل يزعق، وهذا يحيى وذاك يجيب. وعجور أفندى يتذكر أسئلة مصطفى بك ويتساءل حقا عن سبب وجوده فى مثل هذا الوقت فى هذا الطريق، وأخرج ساعته فإذا هى السابعة والنصف. وخشى أن يتهم عقله بضعف ما فأصر على أن ثمة سبباً واضحاً لديه حين غادر منزله هذا الصباح ووصل إلى الميدان واتجه فى هذا الطريق. غير أن حوادث الأمس الملعونة وغبطته المفاجئة حين التقائه برئيسه الناقم عليه منذ الأمس، ثم هذا التفكير المعقد الحزين..

كل هذا ضيع منه هدفه، فوقف وعصر ذهنه يحاول أن يتذكر، فلما يئس قفل راجعا إلى الميدان وهو يتطلع إلى ما فى الطريق عساه يكون ذا صلة بما حمله على المجىء هنا فيعينه على التذكر.

ومر فى طريقه بالعطر ولحظة المطر ومكان الزحمة والذبائح والغبطة والقرف والكعك والمكتبة والدراجة والمذياع وبائع المصوغات والنرجيلة والصابون والقماش والساعات والأحذية والجبن والحلاق والسيارة والغبار والمطعم وبائع السجائر- والحشيش أحيانا- ثم الميدان والترامات وزرقة السماء وشرطى المرور وقلقة العربات وأبواق السيارات، وانحرف إلى الشمال، واخترق زحام أحد الطرق الكبرى الأخرى، وانطلق يسير عسى أن يكون هدفه هناك.

الوبـاء

كانت فى الثلاثين من عمرها، وهو عمر بدأ منه عظماء كثيرون رسالاتهم. إذن فقد زلت عندما كانت فى العشرين من عمرها، عندما كانت قد غادرت سن المراهقة وأصبحت ذات إرادة وذات جمال. وكانت من أسرة من الطبقة الوسطى، حيث الحدث الجنسى مرتبط بالخطيئة والله والجحيم، ولما كان الخلاص الوحيد من الجريمة أمامها هو أن تظل مجرمة بقية حياتها، فقد فرت لتقع فى يد سيدة تدير متجرا للأشلاء البضة يقصده المحرومون والمعوزون. غير أن أخلاق الطبقة الوسطى كانت قد تركت ضميرا عالقا بها، ظل يزعجها فى الليل وفى النهار.

وقد مرت الأيام ومرت الشهور ومرت السنون وضميرها لا يزال عالقا بها. واعتادت هذا اللون من الحياة الصريحة والعارية المستخفة، ورأت مَنْ حولها لا يهزأن بشىء مثلما يهزأن بكل من يحاول إقناعهن بفساد حياتهن، ومع ذلك فقد ظلت تحس أن هذه مرحلة مؤقتة من تجربة حياتها وعليها أن تمر بها ثم تنفصل عنها إلى الأبد. وكان هذا حقا غريبا وشاذا.

وقد بدا الأمر هكذا. كان مندوبو هيئة الأمم المتحدة يهاجمون بعضهم بعضا، وفى باريس عُقد أكبر مؤتمر دولى فى تاريخ السحر، حيث اجتمع مندوبو أربع عشرة دولة نجحوا فى خداع بعضهم بعضا، فكان الماء يتحول إلى خمر، وكانت تبدو فى الهواء النقود والسجائر وكرات البلياردو وآلات الكمان، وكانت المناديل الحريرية تربط نفسها فى عقد بينما العصى السحرية تمر فى الأجسام.

وفجأة ظهر الوباء. بدأ أولا بعشرة أشخاص كأنما هو رسالة شخص عظيم: توفى طالب فى الجامعة وسيدة حبلى وطفلان وخمسة فلاحين وصبى عبيط أعرج. وكان هؤلاء هم شهداء

الرسالة الجديدة، بموتهم حملوا الخلاص إلى بقية الشعب. ظلوا يتقيأون ويتبرزون برازا سائلا أبيض كالأرز حتى جفت أمعاؤهم وتثلجت أطرافهم. وقد ظُن أول الأمر أن وفاتهم بالأعراض الواحدة نتيجة للصدفة الخالصة أو هى حوادث تسمم متشابهة، لكن سرعان ما كشف الطبيب المختص عن الحقيقة التى روعت ملايين السكان.

وفى الصباح قيل لتلاميذ المدارس أن يعودوا إلى منازلهم. وصدر أمر بإغلاق الأسواق، فحملت كل فلاحة دجاجاتها، وشد الفلاحون رباط بهائمهم الهزيلة المعروضة للبيع وأقفل الجميع إلى قراهم.. وكف المثقفون عن جدالهم حول معنى الحياة وعدلوا عن رغبتهم فى الموت، وتملكهم تشبث مجنون بالأرض، وانفضت الموالد، وسارعت الحكومة إلى منع الاجتماعات العامة. وخلت دور السينما من روادها، وأُقفلت المطاعم والمقاهى، وأغلقت الحمامات ومحال بيع البوظة. وأصبح كل فرد ما بين يأس وأمل، يأس أن يصيبه المرض هو دون باقى الناس، وأمل أن يصيب باقى الناس دونه هو. ورأى بعض المتدينين أنه أمر أعمار فى لوح القدر، ليس الوباء سوى وسيلة اليها..

فلما انحدرت شمس ذلك اليوم كانت صحف المساء قد أعلنت أنه صدر الأمر بوقف الحج هذا العام. وهكذا رفض الله محاولتها.

كانت تعتزم فى كل عام أن تحج لتكفر عن حياتها الملوثة، وتعود تعرض بضاعة غير جسدها، غير أنها تعدل فى كل مرة، وفى هذا العام صامت رمضان، وقررت السفر، وأعدت الجواز واشترت التذاكر، وسافر من قبلها فوج وفوج. وعندما أوشك أن يقوم حاجز كبير بينها وبين ماضيها، أدركت أن الله رفض نقودها ومحاولتها.

وفى اليوم التالى ذكرت الصحف أن الإصابات تسع وعشرون والوفيات سبع، وفى اليوم الثالث كانت الإصابات أربعا وتسعين والوفيات إحدى عشرة، وفى اليوم الرابع كانت الإصابات مائة وخمسين والوفيات سبعا وعشرين، وفى اليوم الخامس هرب أحد الملوثين من قريته إلى عاصمة القطر الثانية مخبأ فى برميل بسيارة تنقل البضائع، فما أن وصل هناك حتى ارتمى يتلوى..

وهكذا أفلت الزمام وأُعلن أن القطر كله منطقة موبوءة.. وبدأت المعركة الجبارة بين الناس وعدو صغير منتشر فى الأطعمة والأجساد لكنه لا يُرى، مما أمده بقدرة خارقة على إرعاب الناس وإزعاجهم..

ومنذ أكثر من ألف عام جاء (فى ذيل الروضتين لأبى شامة المقدسى الدمشقى) أنه لم يزد نيل مصر واشتد الغلاء والوباء حتى مات أكثر الناس جوعا وأكل بعضهم بعضا.

وفى الوقت الذى كان الناس يتزاحمون فيه حول مكاتب الصحة يطلبون اللقاح الواقى، كانت نعمات تستعد للعودة مع أفواج الحجاج الذين لم يُقدر لهم أن يروا بيت الله الحرام هذا العام..

لكن أحدا غيرى لم يكن يعلم شيئا عن معنى الحج فى حياة هذه المرأة، ولا كان ثمة آخر يدرك أن هذه المحاولة إن هى إلا رغبة بلورتها سنوات عشر من الذهب والقذارة والدم..

وفى ضحى اليوم السابع من الشهر الأول للوباء حاول رجل بدين أن يركب أحد القطارات المتجهة إلى العاصمة، فرأى فيه زحمة الناس وتكالبهم على نحو لم يسبق له مثيل. وأدرك أنه لا يمكنه أن يجد مكانا لشخص واحد فضلا عن أنه يحتل مكان شخص ونصف شخص. عندئذ وضع إصبعه فى فمه، ورآه الجميع يتقيأ فهرولوا فى ذعر هامسين أولا ثم صائحين:

ـ مصاب .. مصاب..

ولم يكن فيهم بخيل واحد يحرص على مقعده، ولا قديس يبقى إلى جانب الرجل.. بل تدافعوا جميعهم من العربة وأخلوها كلها له.. أما البدين فجلس واضعا يده على بطنه طلما بدا له من العربة الأخرى وجه فضولى ينظر ليتحقق أنه مازال على قيد الحياة..

فلما وصل المسافرون الجبناء إلى المحط النهائى هرولوا إلى الضابط المختص ينتقمون من هذا الذى أزعجهم وأخذ منهم مقاعدهم ويبدون له أعمق الإشفاق وأعمق الرثاء، غير أن البدين سرعان ما خيب إشفاقهم حين أفهم الضابط أنه استغل مقتضى الحال كوسيلة لإيجاد مقعد له، فما كان من كرم الناس إلى أن وهبوه عربة كاملة..

وهكذا شل الرعب الجميع..

فى ذلك الوقت كنت أنا قد أشرفت على الثالثة والعشرين. حين كان العالم قد أصبح مهددا بالقنابل الذرية، وثمة مذابح فى الهند ومجزرة فى اليونان لا تنتهى، أما مؤتمر السحرة فكان قد انفض .

فى ذلك الوقت كانت الليمونة تباع بمليمين.. ثم نشرت إحدى الصحف أن عصير الليمون الحمضى يقى من المرض. وسرعان ما ارتفع سعر الليمونة إلى خمسة مليمات ثم إلى سبعة مليمات ثم إلى عشرة مليمات، وأخيرا نفد الليمون من كل مكان وقُطف وهو لما يزال أخضر على شجيراته، وبعد أن كوم كلٌ فى منزله كومة من الليمون عادت إحدى الصحف ونشرت أنه قد اتضح عدم دقة هذه المعلومات، وسرعان ما عاد الليمون إلى الظهور..

وأنا لم أتحدث بعد عن نفسى. وهذا أمر لا شك متكلف، فلئن كان من الأنانية أو الفردية أن تجعل نفسك محور الحديث فإنه من غير الطبيعى ألا تذكر نفسك أبدا..

•

هذا إلا أنى كنت صديق نعمات، بل لعلى أكون حبيبها المفضل. فحين زرتها لأول مرة مع صديق لى أعطيتها كل ما كان معى من نقود فمانعت فى أول الأمر وأبت أن تأخذ إلا أجرها، لكننى أصررت أن تقبل كل ما أعطيتها، ويبدو أنها تأثرت بذلك كثيرا مما يرجح أنها لم تلق من قبل مثل هذا التعبير عن الامتنان.. أما أنا فلم أبادلها حبها، ذلك لأنى متعلق بفتاة أخرى لست أقابلها ولن أتزوجها ولا أحبها لكننى متعلق بها..

فمنذ السادسة عشرة من عمرى حتى العشرين كنا نتبادل الحب أو هكذا كنا نظن، أربع سنوات كاملة كأنها مدة أمضيتها فى وظيفة ما.. ثم حدثت أزمة، أزمة سخيفة أبعدتها عنى، لكنها لا تزال باقية فى حياتى مسيطرة عليها، تحطم لى كل محاولة أن أعيش سعيدا..

ومنذ ذلك الوقت وأنا أعرف نعمات، قامت لى بأعظم خدمة فى الوجود، فهناك عندها أردت أن أنسى ولو أنى ما نسيت!

وكانت تعلننى بين حين وآخر برغبتها فى الانصراف عن هذا اللون من الحياة (وهو مالا تقوله أبدا لأحد غيرى) ثم أراها تتردد وتعدل. ولما كانت تربط هذه الرغبة بالسفر إلى بيت الله الحرام، فإننى ما دهشت حين أخبرتنى ذات مساء بما أزمعت عليه من سفر، تعود لتجد عملا بين جيش العمال والعاملات الذى يملأ المصانع الناشئة هنا وهناك..

وفكرت أن أتزوجها لكن منعتنى إنعام (وهى الفتاة التى كنت أحبها، وأنت تلحظ قرب اسمها من اسم نعمات) إذ زارتنى فى الحلم، وكانت رقيقة معى كل الرقة، لطيفة معى كل اللطف، قبلتنى قبلتين: إحداهما فى جبهتى، والأخرى على شفتىّ، وأذنت لى - رغم الفرقة التى بيننا - أن احتضنها قليلا فأحس بدفئها. ورغم أننى عندما صحوت حاولت أن أنفذ ما كنت قد اعتزمته، إلا أن الأثر العاطفى الذى خلفه الحلم كان قويا للغاية: بحيث أننى عندما نمت الليلة التالية تمنيت أن أحلم حلما آخر..

وفى الطرق والأزقة والحارات كان رجال الشرطة يطاردون الباعة المتجولين، ويقلبون لهم الفطائر والبلح والترمس والحلوى وفصائل الذباب تتطاير أمامهم، فيهرول الباعة ويختفون عن الأنظار من حارة إلى حارة، حتى إذا غادر المكان رجال الشرطة عادوا وافترشوا الأرض كما كانوا يفعلون وعاد الذباب معهم من جديد.

وفى فجر اليوم الرابع عشر من الشهر الأول للوباء بدأت الطائرات بإلقاء الغازات على الأماكن المزدحمة بالذباب، وفى ضحى ذلك اليوم كان ثلاثون فى المائة منه قد اختنق وبقيته تترنح وتعانى سكرات الموت، فلما كان الغروب أُعلن أن إبادته قد تمت..

ولشد ما دُهشت حين رأيتنى أمام نعمات. وكان مبعث الدهشة هو أنى سبقتها إلى الحج بخيالى. فرغم أنى لم أحج أبدا إلا أننى استطعت أن أتخيلها بين هذه الزحمة من الحجاج

وأتخيل هذا الأثر العظيم الذى يمكن أن يحدثه فى امرأة مثلها ما تفعله وما تراه وما تفكر فيه هناك. غير أنى وجدتها أمامى فجأة، فى نفس الوقت الذى كنت أتأمل فيه معنى الحياة ومعنى الموت. وكان ذلك يوم عيد ميلادى، يوم أتممت الثالثة والعشرين، فرأيت أن أحتفل به مع نعمات..

وفى القرى كان الفقراء يحملون موتاهم على الجمال ثم يذهبون بهم إلى الجبل كى يدفنوهم. لكن المشيعين ـ كالموتى ـ لا يعودون، يبتلعهم الجبل بعد ما يتقيأون ويتبرزون بضع ساعات. وعندما تمر بقية الأحياء فى أحياء القرية الضيقة ويلمحون علامة على أحد الأبواب المغلقة يدركون أن الوباء قد غزا هذا المكان ولا مكان فيه لإنسان..

وكان المساء قد اقترب. قلت لها:

ـ تعالى نكفر عن ذنوبنا، هيا نطهرها..

قالت: كيف؟

وتذكرت طريق الحج وأماكنه المقدسة الرهيبة. قلت:

ـ نمشى على جسر من جسور النيل..

فحملقت عجبا.. كانت تعلم أن مصيرنا الذى نحياه أقوى من أن تنتزعنا منه مشية على النيل، إنه ليس مستقلا عن الأرض، فمن هذه الأرض تنبعث قيود وعلاقات تجذبنا دائما نحو مصيرنا الذى نحياه ونحاول الفرار منه. هى تعرض والناس يشترون، حتى إذا عشنا لحظة معا نسينا قصة البيع والشراء، هى تُرضى هنا أنبل عواطفها التى تئدها أمام بيئتها، وأنا أحاول أن أنسى مالا يمكن نسيانه.

وأنت إذا مررت بهؤلاء النسوة فى أحد أحيائهن وهن منتشرات فيه كالذباب لم تشهد غير الاستهتار الذى يزعجك كإنسان مهذب، فإذا اقتربت منهن وجدت أن الأمر لا يعدو نوعا من التجارة الجادة التى لا هزل فيها، فإذا اقتربت أكثر من إحداهن عرفت تاريخا مؤلما يخلق فى صِلتك بها نوعا من الحنان الذى يشيع بعضا من روح الإنسانية فى نظرتك إليها..

قالت إنها تشعر ببعض التوعك. وكنا نسير فى طريق من المدينة شبه مهجور.. وقالت إنها تخاف، ووضعت يدها على بطنها وما لبثت أن تقيأت..

لا تنزعج، سأطمئنك، لم يكن ما أصابها سوى تقيؤ هستيرى وهو نوع من العدوى التى لا تمس الجسد لكنها تصيب الروح. وكان هذا كافيا لإلفات نظر رجل الشرطة، وكان كافيا لأن يولى هاربا فلا يعود إلا ومعه ضجة من الشرطة والممرضين..

وزعمت أنها أختى أو زوجتى (لست أذكر تماما) وهكذا وجدنا أنفسنا فى غرفة متسعة بها فراش على الأرض قيل لنا إنها المعزل ريثما يعدون لنا مكانا فى المستشفى القريب.. وكنا وحدنا..

ولم يأتنا طبيب.. وكان من المتوقع أن يفصلوا بيننا، فهى مريضة وأنا ملوث، وهى امرأة وأنا رجل. لكن لم يجرؤ أحد أن يقترب منا، فقد سمعنا أحدهم يصيح قائلا إن إصابتين حدثتا الليلة بالمدينة: إحداهما حيث كنا والأخرى بمستشفى المجاذيب!

وكنت أحسبنى فى ذلك الوقت ملوثا، وكنت أحس أننى قوى بما أحمل من مرض، إننى أخيف بمرضى كل هؤلاء الأصحاء، أستطيع أن اقترب منهم فأنشر العدوى بينهم وتتساقط جثثهم كأوراق الخريف. وكانت هى وحدها التى لا تخاف، لأنها المريضة الوحيدة إلى جانبى، ولأنها تحبنى..

ويبدو أننى نمت وقتا غير قصير فعندما فتحت عينىّ كانت الظلمة تغمرنا، وكنت قد أخذت أتساءل عن قيمة اللحظات التى نعيشها لا سيما إذا كان الإنسان قد انفصل عن المرأة التى ربط وجوده بوجودها. وفكرت أن أقوم أفتح الباب وأنبه الواقف به إلى هذه الحقيقة. لكننى أدركت أننى ملوث، وأنه لن يسمح لى أحد أن أقترب منه لئلا يأخذ منى العدوى ويموت، فلن يلبث أن يهرب إذا رآنى، وحسنا يفعل.

وأردت أن أتأملها، فأشعلت عود ثقاب أضاء وجهها لحظة، وتراقصت الظلال على جدران الغرفة الخالية المتسعة. كانت مستيقظة، وهى مستلقية إلى جانبى فى ثوبها القاتم الشفاف، وكانت قد تحسنت كثيرا وعصبت رأسها بمنديل حريرى أزرق، ولمحت على وجهى علامات كآبة، وانطفأ النور وعُدنا نتنفس فى الظلام. وكان إيمانها بالحياة قد ساعدها على أن تدرك أنها ليست مريضة، وكنت قد أشرت إليها من قبل أنه قد يكون مجرد تقيؤ هستيرى .. وكانت الآن قد تأكدت من صحة ما أقول، فسمعتها تقول ضاحكة:

ـ لماذا أنت واجم يا أحمد ، هل أصابك الوباء أنت أيضا؟

ـ بل أنا مكتئب لأننى أقضى ليلة ميلادى هنا..

ـ بل هيا نحتفل به!

ـ كيف؟

ـ بأن أدغدغك فتضحك!

وانفجرّت فى قهقهة عالية، وفجأة صمت..

ففى ذلك الوقت كان العالم يستعد لحرب جديدة بغير أن يحاول التخلص من آثار الحرب الأخيرة، وكان كثير من المفكرين قد اقتنعوا بأن الحياة لا مغزى لها، وكان الفقراء والبغايا يزحمون العالم، بينما انتشر الوباء يزحف وينشر الموت والرعب بين الجماهير فى كل مكان..

وكان هذا هو سر قوتى، فلى القدرة أن استمر فى قهقهة عالية، ولى القدرة أن أصمت فجأة فى أى وقت.

زين

عندما ولدت له زوجه طفلته الأولى أطلق عليها اسم ربعة، فلما ولدت فى المرة الثانية طفلة أخرى، رغب عن التشاؤم فقال زين ما أعطى ، وهكذا أصبح اسمها زين.. ثم ما لبثت زوجه أن ولدت له مرة ثالثة ورابعة وخامسة.. حتى العاشرة ما بين ذكور وإناث..

وكان عبد الصمد وأسرته يسكنون قرية من قرى المنيا هى جزيرة وسط النيل فكان عليهم أن يعبروا النيل كلما قصدوا المدينة غربا فى يوم من أيام الثلاثاء حيث يقام السوق فيبيعون بعض ما عندهم ويشترون بعض ما يريدون. وكان عليهم كذلك أن يعبروا النيل شرقا كلما قصدوا جبل المقطم يدفنون فيه موتاهم أو ينقبون بحثا عن الملح أو عن كنز من هذه الكنوز التى تركها لهم قدماؤهم الفراعنة هناك، كى تصنع المعجزة فى حياة شخص أو شخصين من أهل الجزيرة كل قرن من الزمان وهكذا نشأت زين واختلطت بأطفال القرية وتعفرت بترابها. وقد حدث ذات يوم أن داستها جاموسة وسال الدم منها وظنوا أنها أصيبت بضر عظيم، ثم تبين أن طرفا من أحد أصابعها قد قطع فحسب.

وفى سن السادسة أصيبت بقرع خبيث ذهب بشعرها وكان مأساة حياتها حتى بلغت الحادية والعشرين.. وقد حاول أبواها كل الطرق المستعملة وغير المستعملة لإزالة هذا القرع فلم ينجحا.. وأخذاها إلى طبيب المدينة غربا وإلى العرب فى الجبل شرقا، واكتوت بالنار ووضعت القطران فوق رأسها لكن ذهبت عبثا كل هذه الجهود..

وكانت ربعة فتاة المنزل المدللة ، لا تكاد تقوم بشىء من عمل المنزل أو الحقل.. أما الوالدان فكانا أنانيين مسرفين فى الأنانية، إذا حدث أن اشتريا لحما فى يوم ما - ونادرا ما يشتريان - فإنهما يستأثران به من دون أطفالهما ما عدا ربعة. وهما لا يعطيان أطفالهما إلا ما بلى من

الثياب، ثياب الأم للفتيات، وثياب الأب للأولاد. أما القماش الجديد فهو يُفصل لهما أولا، تفصله زين منذ بلغت الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة..

ولما كانت الأم مكسالا نؤوما، فإن عمل البيت كله أُلقى على كاهل زين.. كانت تقوم فى الفجر إن شتاء وإن صيفا، وشخير أمها لا يزال يعلو وينخفض، ثم تحمل جرتها- التى كانت صغيرة أول الأمر ثم أخذت تكبر كلما كبر جسدها وكبر تحمله لمشاق الدنيا وهمومها- وتذهب إلى النهر حيث تقابل خادمات العمدة وتحسر عنها ثيابها حتى فخذيها.. وتعوِّم الجرة قليلا ثم تملؤها وتعود إلى منزلها على مسيرة ثلث الساعة من النهر لتعاود ملء جرتها من جديد. ولما ازدادت حاجة المنزل إلى الماء جعلت تحمل جرتها وتسوق أمامها حمارا يحمل جرتين. ثم لا تلبث بعد عودتها أن توقد الموقد لتعد الشاى الأسود المر، وتتركه يغلى وهى تحلب العنز أو الجاموسة. فى هذه الأثناء يعلو النهار ويستيقظ أهل البيت تباعا وفرادى، لا يجتمعون للطعام، بل يأكل كل منهم عندما يريد مايريد. هذا يتبلغ بقطعة من "البتاو" يغمسها فى "المش" أو اللبن الخاثر، وذاك يكتفى بقليل من الشاى مع قليل من اللبن..

كان على زين أن تنظف المنزل وأن تروى الجاموسة من النهر كل عصر، وأن ترج اللبن، وتصنع منه الجبن والزبد، وأن تصب قوالب الطوب حتى إذا ما اجتمع منها عدد كاف قامت ببناء غرفة للأسرة التى تنمو وتزداد .. وكان عليها أن تذهب إلى السوق يوم الثلاثاء كى تبيع البيض وتشترى الحناء والمناديل المحلاة بالترتر .. وكان عليها أن تُعنى بالأطفال ـ طعامهم ونظافتهم ونومهم ـ وفى كل شهر تقوم بالعبء الأكبر عند عمل الخبز حتى لقد اشتهرت بمهارتها فى ذلك فى القرية كلها .. فكانت تشارك الجارات يوم يخبزن فى مقابل بعض الدقيق تصنعه خبزا لأسرتها .

وكانت زين تقوم بكل هذا لأنها تعتقد أن شعرها ضاع منها ذات ليلة، ولن يعود إليها إلا فى ليلة أخرى من الليالى القمراء كما أخبرتها بذلك " أم دهب " قابلة القرية الزنجية ..

لهذا عندما يكتمل القمر بدرا فى كل شهر كانت زين تتطلع فى أمل ويأس إلى رأسها ، وتنزع المنديل الذى تخفى به علتها وتتحسس رأسها .. فلا تجد غير البثور وبقايا رائحة الدهان الأخير ..

وهكذا امتزج لديها ضوء القمر بإحساس إنسانى غريب ، هو مزيج عنيف من الأمل واليأس .. كانت تتوق أن تصحو ذات ليلة ، وهى راقدة فى ضوء القمر المكتمل فتجد شعرها منسدلا على كتفيها ، غزيرا ناعما ..

وكانوا يخصصون لها فراشا لا يقربه أحد غيرها .. وكانت ربعة تأبى أن تمس زين مناديلها الحريرية .. وكانت زين ترتب شعر أختها الناعم المسترسل ، وها هى قد أوشكت أن تتم السادسة عشرة وستزف إلى ابن عمها مفتاح ، وقد تدلى القرط الذهبى من أذنيها .. أما هى

فكانت تعلم أنها نجسة ، وأن رجلا لا يأبه لها ، وعليها أن تشكر هذه الأسرة لمجرد تحمُّلهم وجودها وهى ترجو أن تكفر عن وجودها البغيض بما تقوم به من خدمة لا تسمع عنها كلمة شكر أو تقدير ، فما اشترته بالأمس ليس الصنف المطلوب ويجب أن تعيده ، والطعام ليس شهى المذاق، وهذا الماء الذى جلبته اليوم من النيل ليس كافيا ، والطفل قد تركته ملقى على الأرض ، والشاى ليس أسود مرا كما يجب أن يكون ..

ولقد بكت زين كثيرا فى وحدتها التى قلما كانت تحصل عليها ، وفكرت كثيرا فى أن تموت، لولا أن أملا يائسا يداعبها كلما مرت بمنزل العمدة أو كلما قابلت خادماته على البحر يملأن جرارهن ، وهن يتحدثن عن ميهوب ابن العمدة الغرير وعن مغامراته النسائية وهو لما يبلغ الثامنة عشرة..

كانت تحب فيه عبثه وخشونته .. وكانت تعلم أنه على استعداد ليضم إليه أى جسد نسائى.. فهو فى المدينة لا يأنف أن يتصل بشحاذاتها وعاهراتها ، وهو فى القرية لا يتورع عن مغازلة الفتيات الأجيرات وهن يجمعن القطن .. وكان يداعبها الأمل أن يقترب منها يوما ، وهى تدرك خطورة هذا المعنى ، كما تعرف استهتار ميهوب بكرامة الناس ، وتعرف طيشه ونزقه ، وأنه لن يلبث أن يقص القصة على أصدقائه وغير أصدقائه..

أما الفجر فما أجمله فى ريفنا المصرى ، وأما الليالى القمراء فما أروعها .. وبين الفجر وأعماق الليل يكدح الفلاحون فى أرضهم السوداء منذ أجيال وأجيال ..

وهذه زين قد خرجت إلى الحقل وهى فى العشرين ، تتمايل وراءها ضفيرتاها الطويلتان المستعارتان وهى تحلم باللذة المفقودة العارمة .. وكانت الريح شديدة ، والبرد لاذعا والعيدان الصغيرة الخضراء ترتجف والقمر يتدثر بالسحب .. أما هى فقد كانت تنتظر بلا يأس ، كما ينتظر كل منا نهايته ..

وفى ضوء القمر الناعم رأت فرسا آتية ، فاقشعر جسدها إذ أدركت أنه ميهوب ، ودوت فى أعماقها صرخة مرعبة : قرعاء ..

قالها اليوم أخوها لها ، وطالما سمعتها من قبل حتى لكأنها أصبح اسمها : قرعاء .. قرعاء.. قرعاء ، وظلت الكلمة تعلو وتتضخم وتعلو حتى رأتها تسبح أمامها فى ضوء القمر ، ثم تدور فى دوائر حلزونية : قرعاء .. قرعاء .. قرعاء ، والدوران يشتد ويشتد ويرتفع ويرتفع فى المساء صاعدا نحو القمر ـ حتى عبر ميهوب ـ أما القمر فكان لا يزال يرتج كأنما كان يغتسل لتوه فى مياه تضطرب ، ثم أخذ يهدأ قليلا قليلا ..

فى هذه الليلة الباردة المقمرة هبط القرية رجل من هؤلاء الشعراء المشردين، يغنى على ربابته ويحمل سره فى حقيبته . حمله القارب الأخير الذى رسا على شاطئ الجزيرة الشرقى

عند مغيب الشمس ومطلع البدر من وراء تلال المقطم .. وقد رآه أهل القرية وهم يعودون مساء إلى منازلهم يقودون ماشيتهم ويحملون بعض حصادهم .. ورووا أنه يضع عمامة بيضاء ويرتدى عباءة ملونة مأخوذة أجزاؤها من ألف ثوب وثوب ، وقد هبط أولاً ضيفا على العمدة ، حيث استأثر به ثلاثة أيام ، ثم نزل يطوف بالقرية ويعود كل مساء ليبيت فى منزل العمدة .. وقد لمح زين أثناء تجواله وغنائه ، وعرف علتها وعرض أن يشفيها لقاء مبلغ زهيد من المال لم يكن يستطيع عبد الصمد أن يجده ..

كان عبد الصمد يؤجر الأرض من العمدة ، وكان الإيجار مرتفعا قاسيا لا رحمة فيه ولا مفر منه ، وما يتبقى من ثمن المحصول لا يكاد يكفيه لأن يعيش وأسرته التى تتضخم حتى المحصول الجديد .. وسرعان ما تبتلع المدينة المحصول ويبتلع العمدة الثمن .. وقد شك أهلها فى قدرة هذا الرجل على شفائها ، أما هى فكانت تحس أنه لو ذهب بغير أن يحاول وسيلته فستتعذب عذابا لا يطاق .. فهى تدرك أن شفاءها سيتم فى محاولة من ألف محاولة ، وستظل تذكر أن هذه ربما كانت فرصتها التى لن تعود إلا بعد عشرات السنين ..

لهذا ظلت ثلاث ليالى ترقب القمر وهو يتأخر فى صعوده وينقص فى حجه حتى عرفت وسيلتها إلى الشفاء .. أو الموت ..

وقد قامت فى اليوم التالى بواجباتها المنزلية باضطراب ، لكن بلا ذلة ولا انكسار ، وسمعت الشتائم والإهانات لكن بلا بكاء .. وفى المساء سرقت القرط الذهبى الصغير الذى لا تملك أمها سواه فحق أن يكون لها قرط مثل الذى كان لأختها يوم زفافها .. ثم خرجت فى عصر ذلك اليوم تروى جاموستها كعادتها وتخفى القرط بين ثيابها ، غير أنها لما عادت كانت تحمل معها دهانا ستدهن به رأسها شهرا كاملا ، ثم ينمو شعرها سريعا أسود ناعما غزيرا .. ومنذ هذه اللحظة اختلط الحلم بالواقع فى حياتها ..

وفى أحلام المعذبين تتحقق اللذة والتكفير عن هذه اللذة بعجلة وبنفس العنف والقسوة .. لهذا عندما أتمت زين الحادية والعشرين كانت قد اقتربت من لحظة خلاصها المروعة ، فنزعت منديلها الكريه ومزقت شعرها المستعار ، وفضحت للناس سرها ، إذ انسدل شعر ناعم رائع طويل ، وبدا وجهها مشرقا وضّاء يفيض بالحيوية والحياة والرغبة العربيدة الجامحة .. وكان القمر قد اكتمل إذ ذاك .. ولفحت الرياح الباردة عيدان الحقول الغضة..

فى تلك الليلة أدركت الأم أن انسدال شعر ابنتها على هذا النحو المباغت المغرى يحمل معنى خطيرا .. غير أنها ضلت بحثا عن هذا المعنى .. لعله أن تتزوج ابنتها فتفقد بذلك شيئا من كسلها الذى ظلت تتمتع به منذ بلغت زين الثالثة عشرة ، ولعله شىء آخر أخطر من هذا .. آه ، لعله يفضح سر اختفاء القرط الذهبى فى ليلة باردة كتلك من ليالى الشتاء الماضى ، عندما كان القمر يصّاعد متأخرا وناقصا فى حجمه قليلا ..

وكان قد شاع فى القرية أن زين سرقت قرط أمها الذهبى . وذهبت إلى دار العمدة حيث كان ميهوب والشاعر المتطبب يجلسان فاقتسما جزئى القرط بينهما ، الواحد ليشفيها والآخر كى يصمت .. وهذا السر كانت زين هى التى أشاعته أولا على حكرش عبيط القرية .. وما لبث حكرش أن أذاعه على الحلاق مرزوق ، وهو بدوره نقله إلى زوجه ، وهكذا سرى الخبر حتى وصل الليلة ـ وبعد شهر ـ إلى منزل عبد الصمد ..

وثارت عزيزة الأم الاقتصادية وأدركت فجأة بشاعة الفقر الذى تحيا فيه وقيمة القرط الذهبى ، وانهالت ضربا على ابنتها وهى تصيح :

ـ أين قرطى ، أين قرطى ؟..

وزين تنكر وتبكى ، أما الأم فلم تعد تأنف من رأس ابنتها ، بل اقتربت وأمسكت بشعرها الطويل الناعم .. ثم شدته وشدته حتى غمره ضوء القمر..

فى تلك الليلة تسللت زين هاربة من منزلها تسعى مكرهة إلى منزل أختها ربعة وهى تجفف دموعها .. غير أنها كانت تحس لأول مرة أن هناك أنيسا معها ، يغمر رأسها وكتفيها نورا وحنانا .. فلم تعد تخشى البرد ، ولا الضباع التى دخلت القرية فى عام جفت فيه مياه النيل واحترق الزرع ، والتى يزعمون أنها ترتاد الطريق الواقعة على حدود القرية التى تسير فيها زين الآن ، فهذه الطريق وحدها هى التى تأذن لها أن تمر على منزل العمدة المضىء، لعل ميهوب أن يلمحها بوجهها المشرق ورغبتها الجامحة ، فيعجب بها وهى تعدو خجلى بغير أن يعرفها .. ورأت العيدان الصغيرة الخضراء ترتجف والقمر يتدثر بين السحب ، وحلمها الكبير يملأ الأرض والسماء حتى أحست أنها تسير فوق الهواء .. وفجأة سمعت وقع خطوات فرس مقبلة..

فى تلك الليلة أشبعت زين رغبة بلورتها سنواتها الإحدى والعشرون ، وإذن فقد حق عليها أن تموت .. وكانت أمها قد علمت بالسر ، قاله ميهوب أولا لحكرش عبيط القرية وحكرش قاله لمرزوق حلاقها ، وهذا بدوره نقله لزوجته .. وهكذا سرى الخبر حتى وصل منزل عبد الصمد ..

وقد انتُشلت جثة زين من النيل فى إحدى الليلى المظلمة ، حين لم يكن هنالك قمر ولا ريح تلفح العيدان الغضة .. ولم يكن لها كفن سوى شعر طويل منسدل فاحم، أما القمر فقد ظهر من جديد بعد هذا بأيام قلائل ، مكتملا وصامتا ومبتسما .

دفاع منتصف الليل

-١-

كان ذلك عند هبوط المساء إلا قليلا، حين كنت أبحث عن شيء أحك به جسدي، وكانت الليفة هي حاجتي الحقيقية للخلاص مما أنا فيه، وأنا أؤجل ذلك من يوم إلى يوم، حتى أدركت أخيرا أن الأمر أصبح ضروريا لا مفر منه.

ولقد صدق حدسي حين هبطت الطريق التي توسمت أنهم يبيعون فيها أمثال هذه الحاجات، فقد عثرت أخيرا على الليفة الأخيرة في دكان بائع متآكل الأنف، وكانت ليفة كبيرة في غير نفع، فهي ممزقة كئيبة ومليئة بالثقوب كأنما أكلتها الفئران. لكنني لا أحب الجولان في الطرق وأخشى أن تثير كثرة السؤال شبهة حولي، كما أني ما أحب أن أعود من رحلتي فارغ اليدين. فدفعت الثمن في غير جدل، ولاحظت البائع وهو يلفها لي في كثير من ورق الجرائد في عجلة وبغير كبير عناية ، ثم يمد قامته نحوي قليلا ويدسها تحت إبطي.. فلما خرجت وسرت وجدتني- وعلى بعد خطوات قلائل- أمام واجهة زجاجية تزدحم خلفها أدوات مختلفة وكثيرة للزينة، فبدا لي أن أقف لأسرح فيها البصر. وكانت زجاجات العطور وألوان الصابون وأرقام الأسعار تنتشر وتنتصب وتستلقي، وإلى جانبي معطف من الفراء يطل منه وجه حسناء وتنبعث منه رائحة نفاذة، وشاب يحادثها وهما يتصنعان تأمل العطور والصابون والأسعار ثم يلتفتان يمنة ويسرة كأنما في حذر، فلما دخلا الدكان أحسست أن شيئا يشدني بخيوط لزجة نحوه كأنه المادة الكريهة المتراكمة على جسدي.. ولم أدرك ذلك الشيء في أول الأمر، لكن حين استدرت لأعبر الطريق وسط زحمة السيارات والناس كنت قد امتلأت رغبة عنيفة في الاختفاء، فأسرعت نحو طريق يهدأ فيه النور قليلا وتهدأ فيه الحركة كثيرا، ولما أصبحت على

مبعدة من هذين الشخصين استدرت خلفى فجأة، وكان الطريق يكاد يكون خاليا، إلا أنى كنت موقنا أن ثمة عينين لزجتين تنتظراننى فى مكان ما وتتعقبان طريقى لسبب ما..

فانحنيت نحو أحد الشوارع الخلفية، وكانت اللفافة تعوق حركتى وهى تحت إبطى، فنقلتها إلى يدى اليمنى، وهكذا أصبحت أكثر حرية. ثم أصبحت أكثر انحناء وأسرع مشيا وأنا أخطو فى حذر إلى جانب المنازل الضيقة المتراكمة المعتمة، باحثا عن طريق للفرار. غير أن طريقى الضيق سرعان ما أفضى بى إلى آخر متسع، يضج بالنور الباهر والحركة والناس والعطور، وينعكس الوهج على عينىّ ويملأ العطر أنفى، وأحسست جسدى يخوض فى قطع اللحم المتحركة المسرعة المتعطرة، وأدركت أية سهولة يجدها فى مهمتهم من يقتفون أثرى حين ينتشرون فى هذه الزحمة الكبيرة المتسعة، وهكذا أشرت إلى سيارة من سيارات الأجرة، فلما انحنى بها سائقها نحوى لمحته يتردد قليلا، وحين وقفت سيارته أمامى تماما أخذ يتفحصنى بريبة وينظر إلى اللفافة فى يدى، فأدركت أن ثمة ما يقلقه مثلى، وثمة ما يقلقه منى، وفكرت أن أفتحها له وأريه أن ما بداخلها ليس سوى ليفة مما يستحم بها الناس، غير أنه لم يكن ثمة مجال للنقاش، فلوحت له بحافظتى، وفى لمحة واحدة كنت قد أغلقت بابها على نفسى وجلست وحيدا وأمامى سائقى الأسود..

وكان عليه أن يتجه إلى مكان ما.. وكان هذا غريبا وضروريا وصعبا للغاية.. فأين يمكن أن أختفى فى غير هذه السيارة؟ لكن السيارة كانت منخفضة للغاية وجسدى منحنيا فى داخلها كأنما للصلاة بغير أن أصلى.. وقد كرر السائق سؤاله عن الجهة التى أقصدها وهو يلمحنى فى مرآته التى أمامه منبعجا إلى هذا الحد الفظيع فى سيارته الصغيرة الخانقة. فلما عبرنا طريقين مزدحمين وتأهبنا للانحناء فى طريق ثالث أحسست السيارة ترتج فجأة كأنما تزلزلت الأرض تحتها، وسمعت صوتا مزعجا، صوتا غير إنسانى ينبعث من أسفل سيارتى.

ولمحت رأس السائق كأنما تتأرجح فى الهواء، بينما اصطدم جانب السيارة بشدة فى ذراعى اليمنى حتى لقد أصبح كتلة خالصة من دم متجمد، فلما أطللت من زجاج النافذة المرضوض وجدت ما يشبه بقايا رجل كأنما أُجبر على أن يزحف بنصفه الأسفل تحت عجلات السيارة، والدم ينزف من ذراعه اليمنى، والقوم يتجمعون ويتفرجون وينزعجون..

وخُيل لى أن ذراعى أنا أيضا - وبغير حق - تقطر دما.. فأمسكتها بيدى الأخرى وأنا أضغط اللفافة بينهما. وكان علىَّ أن أجد مخرجا وأنا أنظر فى عينىْ سائقى، وهو مشغول بالإجابة على غضب الجماهير التى تزاحمت حتى أصبح مجرد انتسابى إلى السيارة شيئا خطرا للغاية.. وهكذا كان على أن أتخلى عن سائقى فى هذه اللحظة الحرجة من حياته لئلا يكتشفنى أحد الذين يتعقبوننى ويجدون الفرصة ملائمة لهم، فيشركوننى فى اتهام لا يد لى فيه. وهكذا حملت لفافتى وتسللت من السيارة وأنا أحس ارتجاجها فى ذراعى حيا ومؤلما وفظيعا للغاية..

وتركت سائقى وحيدا وله فى عنقى بضعة قروش لم أدفعها له، واتجاه لم أخبره عنه، ومعونة ما قدمتها له، ونظرات الذعر فى عينيه لا تُمحى من عينىّ.

وكان على ألا أستسلم أبدا لمطاردىّ. لهذا عندما وجدتنى أمام باب للسينما وفى مقابل الجمهور المزدحم تماما، عرجت ناحية النافذة الحديدية المربعة، حيث جلست عجوز مصبوغة الألوان تقضم أظافرها وتتأملها فى سرعة وقلق، فانحنيت واشتريت منها تذكرة بغير أن أعرف أى الأفلام سأرى ولا من ذا الذى سيجلس على المقعد التالى بجوارى. وحين انحنيت وأنا أدخل من الباب المنخفض لمحت قاطع التذاكر يهمس شيئا فى أذن زميله، ولا ريب أن اللفافة أثارت شيئا من ريبة فى نفسيهما، مما أحزننى حزنا شديدا، لأنى كنت واثقا أنه إذا قُدر لأحد ممن يقتفون أثرى أن يسألهما عنى، فلا شك أنهما يستطيعان تذكُّرى ويدلانه على رقم مقعدى.

وكان الفيلم قد بدأ وأنا داخل على أطراف أصابعى، والأشياء تبرز قليلا من العماء التام الذى واجهنى حين دخولى.

وحين أصبحت أكثر ألفة مع العتمة لمحت سقف القاعة يكاد ينحنى فوق الناس وقد ازدحموا ازدحاما لا مثيل له كأنهم مذعورون يلجأون من غارة، وقد حُشرت بين رجلين عن يمينى يتحدثان بصوت خفيض كأنما يقلقهما أمر، وأحدهما دائم التمخط، وسيدة عن يسارى تحك ذراعها وهى تهمس شيئا فى أذن زوجها على ما يبدو، مما أغرانى لحظة أن أحك أنا أيضا ظهرى الملبد بالعرق، لكنى ما كنت أجرؤ على ذلك لئلا ألفت الأنظار وأبعث الاشمئزاز من حولى.. وكان فى همسهما شىء من الكآبة كأنما انتُزع ابن أمس منهما، أما وجودى المفاجئ فيبدو أنه قد أثار حولى شيئا من التأفف لأننى أحدثت شيئا من ضجة وقطعت عليهم صمتهم وإنصاتهم كأنما أزير الطائرات فوقهم.. ولا شك أن الجالس خلفى كان سيىء الحظ تماما، فقد سمعته يبدى بعض التبرم ويهمهم بكلام غير مفهوم راجيا أن يصلنى منه شىء، فقد كان يبدو أنه قصير القامة وعليه أن يميل إن يمينا وإن يسارا إذا حرص ألا يفوته انتحار أحد أبطال القصة، ولقد انتحر البطل فعلا، لكنه لم يكن البطل الرئيسى بطبيعة الأمر، الواقع أن هذا كان البداية فقط. وكان مقعدى منبعجا إلى الأمام بحيث أكاد أنكفئ على وجهى، فى أحد جانبيه انخفاض شديد. وحين حاولت أن أعدل من جلستى المضنية سرت طقطقات فى المقعد وانتشرت حتى آذت القوم من حولى وأحسستها تسرى فى أسنانى فآثرت أن أظل ساكنا لا ألتفت يمنة ولا يسرة منحنيا إلى الأمام متشبثا حتى النهاية بمسندىّ مقعدى. وبينما كانت السيدة تحك الآن فخذها بأظافرها بصوت خشن مسموع كان البطل الحقيقى يطبع قبلة على شفتىّ حسناء تصاحبها موسيقى عاطفية حالمة.. وفجأة وعلى الشاشة، بدأ ضجيج موسيقى كتفجر القنابل.. والسيدة إلى جانبى ما تنفك تحك ساقها اليمنى، ثم تمسك منديلا به تجفف دمعتين، فلا ريب أن البطل كان يستحق كثيرا من الرثاء. بحيث لم أستطع أنا أيضا أن أمنع عن

نفسى إحساسا فجائيا بالكآبة. فلما لمحت زوجها يشاركها دموعها أدركت أن شيئا هنا- مريرا وكئيبا- يمس حياتهما.

غير أن هذا لم يكن كل شىء، فقد كانت النهاية السعيدة مقبلة بلا ريب، فرغم هذا الخطر الحقيقى الماثل، ورغم هذه الكآبة الضرورية الفجائية ، فقد كان يملؤنى إيمان أستمده من كثرة الأفلام التى رأيتها من قبل أن هذا ليس إلا السبيل إلى الإحساس بالنصر الحقيقى السعيد. وهكذا سرعان ما انشرحت الأسارير - التى اكتأبت مدى ثمانين ثانية كاملة - ثم ضجت القاعة بتصفيق متقطع أجوف، وقهقهات منبعثة من أماكن بعيدة ومجهولة، والرجل ماض يحدث صديقه حديثا مهماً، أكثر أهمية عما كان عليه من قبل، بحيث مال تماما على أذنه وأصبح خفيضا ومتصلا وجديا..

وكان يبدو أن البطل يبحث الآن عن حسنائه ليقبلها القبلة التقليدية الختامية على ما أعتقد، أو لعله سيبدأ معها دورا جديدا من أدوار القصة، غير أن صوت الأظافر الخشن عن يسارى وحركة الرجل قصير القامة من خلفى، وتوقعى وجود شخص أو أشخاص حولى ممن يبحثون عنى، وتمخط الرجل عن يمينى، ثم مقعدى المنحنى المتكسر كأنما سيهبط نحو الأرض فى كل لحظة جعل المدة التى عشتها فى هذا المكان كافية تماما. والعتمة والأنفاس الحارة والصمت والتوقع ... جعلت مغادرتى لهذا المكان حاجة ضرورية وجدية للغاية..

- ٢ -

فلما خرجت أهرول قبل أن تفرز السينما جمهورها،كانت الطرق قد ازدادت إظلاما، والناس يمشون فى حذر فرادى بجوار الحوائط كأنما سيلتقون بفاجع عند نهاية الطريق أو هم يتدحرجون على حافة الأرصفة تماما كأنما يعدُّون خطواتهم، وقد وجدتنى أسير خلف رجل أعرج وأنا أعدُّ خطواتى أيضا كأنما أقيس بها الطريق، وكان الأعرج يهرول وقد جذبنى خلفه وفى دائرته، بحيث حرصت- وبغير أن أحرص- على أن أبقى المسافة بيننا بلا زيادة ولا نقصان، فاضطررت أن أهرول مثله، ولما تنبهت إلى ذلك أشعت الاضطراب عامدا فى سيرى، وأسرعت قليلا فى خطوى، فقد خشيت أن يحسبنى الرجل أننى أتبعه وما كنت أحب أن أعرِّضه لمثل هذا الإحساس المحير الخانق، فعبرته ومضيت أسير أمامه حتى أثبت له حسن نيتى، وأن الأمر كان مجرد صدفة خالصة وليس ثمة خطة مبيتة على الإطلاق، وهكذا رضيت لحظة عن نفسى لأنى قد أكون أزحت عنه إحساسا لا شك أنه لازمه لحظة ، فهأنذا الآن أسير أمامه وها هو ذا يخب ورائى مرتفعا ومنخفضا باستمرار، وها هى ذى المسافة بيننا تبتعد حتى لنكاد نفترق.

وكانت اللفافة لا تزال فى يدى، وقد ضمرت وتهلهل بعض ورقها لقبضتى المتشبثة بها، إلا أنها أصبحت مبعثا حقيقيا للريبة والخطر، فإن أحدا لا يمكن أن يدرك أبدا - وعلى وجه يقينى

ـ ما بداخلها، فهى تثير للسائرين معى شتى الظنون، حتى لقد فكرت أكثر من مرة أن أتخلى عنها وألقى بها فى أقرب زاوية. إلا أن ذلك كان أكثر خطرا بالنسبة لى: لئلا تستحيل ريبة العابر إلى يقين، ويدركون أن شيئا خطرا وفظيعا حقا بها، مما يسبب لى مضايقات لا نهاية لها، وكنت أكافح كفاحا هائلا حتى أقتنع أخيرا، لحظات معدودات، بأن أحدا لا يهتم بما فى يدى. وهكذا كنت بين شعورين متناقضين يتبادلانى الواحد بعد الآخر، كأنهما يدان متوحشتان تلطماننى على وجهى بالتناوب، فكنت أرى الناس ينظرون- ولا ينظرون- إلى اللفافة.

وكلما انزلقت فى شوارع أكثر إظلاما، كنت أسمع بين حين وآخر قهقهات وهمهمات تنبعث من زوايا ومنحنيات مجهولة.

وكنت أخشى دائما أن يصلهم وقع أقدامى فيحسبوننى سأفاجئهُم لاستجوابهم، فأفسد عليهم- وبمجرد هذا الشك الذى يصيبهم- لحظة من حياتهم. لهذا كنت أتعمد أن أضرب بقدمىِّ الأرض بصوت واضح مسموع، حتى أعطيهم المهلة الكافية لتدبير أمورهم، لكن ما أن بدا لى أحدب متآكل الوجه، يدخن سيجارا على مهل وبطء عند بدء الطريق المفضى إلى الميدان التالى، حتى وجدتنى أنكمش وأسرع وأخفف من وقع أقدامى، حتى لقد نظر إلىّ فى ارتياب ، وصعَّد بصره نحوى، مما زاد شكى أنه قد يكون فى إثرى أو فى إثر آخرين، فها هو ذا شخص لا يخاف وقع أقدام فى الليل، وفى مثل هذه المدينة المتسعة الكئيبة يدخن سيجاره بهدوء، وينظر إلىّ فاحصا، حتى إذا ما استقر بصره على اللفافة أحسست أننى أحمل فى يدى خطيئة ملموسة وحقيقية يستطيع ـ إذا شاء ـ أن يديننى بها. وهكذا عشت ثلاثين ثانية فقط شخصا يقتفى الناس، ثم سرعان ما أصبحت موضوع ذلك الاقتفاء.

وكان علىّ أن أجتاز ميدانا صغيرا قبل أن أصل إلى الطريق النهائى. فسلكت جانبا كانت قد نُصبت فيه مراجيح قلائل متفرقة ومهجورة غمرها صمت ووجوم. ورأيت على ضوء المصابيح الخافتة ظلى الطويل ينعكس على أرض الميدان المغطى بالحشائش الجافة والتراب، حتى يصل إلى ما وراء الضجيج. وثمة عابرون قلائل يتهامسون ويتلفتون، والأشجار الساكنة تلقى ظلالها كأنما فى تراخ وملل. ولم يكن أمامى أن أختار، فقد كانت الظلمة هى ملجئى الوحيد. الظلمة التى يغور فى نهايتها منزلى قابعا ومستكينا للفجيعة التالية.. فمضيت أتدحرج وأصوات القوم تتقهقر من أذنىَّ شيئا فشيئا أمام نباح الكلاب المخشوشن الجاف وهو يرتفع وينداح، وكان هذا علامة على اقترابى من منزلى. فلما سمعت صوت الكلب الأسود الضخم على السطح التالى لمنزلى ينطلق أجوف منخوبا فى الظلمة أدركت أننى وجها لوجه أمام بيتى، وترامى إلى سمعى وقع أقدام بعيدة، فلما تلفتُّ لمحت ما يشبه الظل المتكور البعيد، ما أن رآنى حتى انحنى نحو الأرض كأنما يبحث عن شىء مجهول، فتفرست أبحث لعل أحدا يتصنع التنزه حول جدران بيتى، أو لعل الظل أن يقترب متصنعا السؤال عن طريق أجهله.

وكنت أعلم أن خادمتى "نور" لا بد أن تكون قد نامت منذ زمن بعيد، فها هى ذى أطفأت أنوار المنزل جميعه، وهى ما تعودت منى المجئ فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولولا مرضها لكانت قد ذهبت واشترت الليفة بنفسها، وكنت أحب ألا أزعجها، وكنت أدرك أنى سأزعجها، وذلك عند محاولتي فتح الباب فى مثل هذه الساعة من الليل، فهى -مثلى- رقيقة حساسة، تتوجس خيفة من كل طارق فى الليل، فهى لن تسمع الحركة الحذرة للمفتاح فى الباب حتى تهب مذعورة من نومها. ويزدحم رأسها بخليط رائع - أنا آلفه تماما - من الأوهام والحقائق، وستكون الحركة الخافتة الحذرة هى أقرب إلى حركة الغريب المتلصص منها إلى حركة صاحب البيت المطمئن، وستعانى لحظة انتظار واستسلام هائلة كالقضاء. لهذا بدا لى أن أدخل البيت فى حركة مسموعة مطمئنة. غير أن هذا أيضا لم يكن أقل خطراً من المحاولة السابقة. وفكرت أخيرا ألا أدخل على الإطلاق وأنه من الخير لى ولها أن أفضِّل البقاء خارج بيتى، غير أن هذا التفكير لم يستمر أكثر من عشرين ثانية. فقد كانت هناك قلقلات بطيئة خفية تشرئب فى الليل حولى، لا يخفيها تماما نباح الكلب الأسود الضخم وانقياد الكلاب له، فلا أنا أعرف مكانها بوضوح ولا هى تختفى تحت ستار هذا العواء المتصل المستديم. وكان نباح الكلب قد ارتفع واتجه نحوى - ومعه جوقة الكلاب الأخرى - متصلا ومؤلما عن ذى قبل، بحيث لا بد وأن يثير السكان فى وجود غريب يتلصص قريبا من بيوتهم. وهكذا اتضح لى أن محاولة البقاء خارجا إن هى إلا محاولة خيالية ليس من سبيل إلى تنفيذها. لهذا جمعت أطراف شجاعتى وأولجت مفتاحى فى الباب فانفتح على الفور، ودخلت وأنا أتلمس الضوء بيد وأقفل الباب بيد فى بطء وإنصات.

وأنصت. فسمعت مواء قطتى ممطوطا ومبحوحا كأنه نواح، فقلت لا شك أنها جوعانة، وأن خادمتى المريضة السمراء ذات العين الواحدة قد نامت بغير أن تطعمها لما أَلَمّ بها من تعب هذا النهار.

فما أن أضأت النور حتى وضعت اللفافة على المنضدة، وأسرعت أنزع الورق، ورقة ورقة، بغير أن أصل إلا إلى فراغ، فلا شك أن الليفة -وأسفاه- قد سقطت منى أثناء هذه المطاردة المضنية. وفكرت أين يمكن أن تكون قد سقطت، فى السيارة أم فى السينما أم فى الطريق حين نظر الأحدب فى ريبة نحوى؟ ولم أستطع أن أفهم شيئا، وما كان يمكن لى أن أتذكر أو أفهم. لقد كنت أحس بكتلتها داخل الورق حين اشتريتها وكذلك حين وقفت أمام الواجهة الزجاجية لكن متى بدأت أفقد الإحساس بكتلتها؟ ليس ثمة سبيل إلى معرفة ذلك أبدا، وسيظل هذا اللغز مجهولا إلى الأبد.

لقد كنت أمنىِّ النفس بحمام رائع هذه الليلة، حتى أتخلص من هذا العرق الذى يتسرب متلكئا فوق جسدى، ويزحف فى خطوط متعرجة من منابع تنضح باستمرار وبلا انقطاع، وحتى أنام-لأول مرة منذ ليال - فى سعادة عميقة.. فأنا شخص عندما ينسكب فوقه الماء المتدفق

أحس إحساسات عظيمة رائعة، وأقوم بمشروعات ضخمة وحقيقية، وتنفتح أمامى كل معانى الحياة المقدسة، وأتشبث بالأرض وبالإنسان، وأحس أننى كائن عظيم وسعيد. فهنا، وفى الحمام، أدع الماء ينهمر فوقى حتى يتشربه شعرى وعيناى وكل مسام بدنى، ويظل يعلو فى داخلى إحساس سماوى يرتفع شيئا فشيئا وأنا أصيح وأغنى وأقفز، حتى أصل إلى قمة فيها تقترن العظمة بالسعادة كأنما لأول مرة ولآخر مرة. وكانت هذه هى حاجتى الحقيقية إلى الليفة فى حياتى.

فألقيت نظرة جد آسفة على هذا الورق الكثير الفارغ الراقد فوق المنضدة بلا منفعة، وعلى هذا الجهد الضائع الذى بذلته مخلصا طوال هذه المرحلة الشاقة المضنية. وأدركت أننى أمام قوى تسلبنى كل شىء وتفقدنى فى عراكى معها كل شىء، حتى الليفة التى كنت أحلم بما ستنعم به على من حمام رائع وسعادة مطهرة. وأدركت أننى فى معركة غير شريفة، لكن علىّ ألا أيأس، والا ألقى أسلحتى أبدا، وأن أستعد للدفاع عن نفسى، وأن أدرك الخطر المقبل.

وكان مواء القطة لا يزال ينوح فى جنبات البيت، ولم أكن أعرف أين يمكن أن يكون طعامها، فذهبت نحو (نور) علها تكون مستلقية مستيقظة متعبة، لكنى وجدتها نائمة، نوما عميقا وبلا قلق، فلما أصبحت أكثر اقترابا منها لأتأكد من ذلك، لفحتنى أنفاسها المنتظمة على وجهها، وثمة عرق كريه- أكثر كرها من عرقى- فابتعدت عنها. ثم اتجهت إلى المطبخ أبحث للقطة عن طعام..

وانحدرت نحو المطبخ أتلمس الضوء، فلما أضأته، لمحت على المنضدة طبقا فيه ما يشبه الجبن وخطوطا هندسية من النمل تذهب وتجىء منه وإليه، فأشعت الاضطراب فى هذه الخطوط بنفخة من فمى حتى أبعدتها عن الطبق قليلاً ثم قلت: ها هو ذا قد وجدت لك أيتها القطة المسكينة ما تتبلغين به فتواصلين إطعام صغارك حتى الصباح. غير أنى لاحظت أن قطعة الجبن تموج بالدود خلالها وحواليها وينتشر منها ويقفز فى اتجاهات مختلفة لا معقولة. وحاولت عبثا أن أغرى بها القطة فلا شك أنها تعرف مكانها وتأنف الاقتراب منها، وها هى ذى تعاود المواء وتتشمم زوايا المطبخ وأثداؤها المدلاة تكاد تلمس الأرض.

فلما خرجت من المطبخ أدركت أن نوافذ بيتى لا تزال مفتوحة وكنت قد لاحظت ذلك منذ دخولى، وكانت النوافذ المفتوحة تثير فىّ قلقا خافتا ظللت أقاومه وأقاومه حتى اتضح، فقد كانت النوافذ منخفضة بحيث يمكن للعابر فى ظلمة الطريق أن يرانى وأنا مغمور فى النور بغير أن أراه..

وكانت بها قضبان حديدية تمنع اللصوص، وشِباك سلكية تمنع الحشرات التى قد تسعى خارجا فى الليل، لكنها- ما دَامت مفتوحة ـ تبيح للنظرات الخارجية أن تنفذ إلى داخل بيتى حين يغمره النور تتأمل ما فيه من أثاث وما فيه من حركات وهمسات..

وكانت نافذة الردهة أمامى مفتوحة على مصراعيها وخيل لى- وربما بغير حق- أن ثمة خيالا قد مر، فأسرعت أطفئ النور حتى يخفينى عنه الظلام وتضل عنى عيناه، فلما انطفأ النور رأيت الطريق الآن من خلف نافذتى الحديدية مغمورا فى ضوء لا هو بالعتمة ولا هو بالنور، وكان كل شىء ساكنا كأنما الحركة التى سمعتها قد ربضت تتحفز حتى أضىء النور من جديد. وكافحت كفاحا هائلا وحقيقيا وأنا أتجه نحو مفتاح النور لأضىء الردهة من جديد، لكن الكلب كان دائب النباح، والقلقلات تنبعث من خلف نافذتى، حتى مرت دقيقة ولعلها عشرون، وكانت هذه نهاية طاقتى الانسانية، فاتجهت نحو النافذة وأغلقت بحذر نصفها الخشبى على أن أخفى جسدى فى المكان الذى يحميه هذا النصف من الغرفة، وكافحت من جديد وأنا أوجِّه نظرى ما بين حين وآخر إلى النصف المفتوح فإذا حولت بصرى عنه أرهفت أذنى نحوه..

ومرت ثلاثون ثانية ثم قمت أغلق نصفها الآخر وأنا أنصت لما عسى أن يكون خلفها متسائلا عما إذا كان هنالك من رأى حركاتى وهواجسى، وما إذا لم يكن قد ارتاب فىَّ لمجرد هذه الحركات وهذه الهواجس. لقد أغلقت الآن النافذة ووضعت بينى وبينه حاجزا يمنعه من العمل فى الظلام والتستر فيه، فإذا كان ثمة من يتبعنى فليطرق الباب وليواجهنى فى نور بيتى وليحدد لى شكله وصوته ومهمته فهذا خير من تحركه فى الظلمة خارج بيتى كأنه هاجس شيطانى أعرفه ولا أعرفه ، كأنه قريب جدا منى وبعيد جدا عنى، كأنه موجود ولا موجود. وهنالك ذلك الكلب الأسود الضخم يعلو نباحه ويشتد كأنما هناك من يزمعون اقتحام بيتى فى كل لحظة أو كأنما هناك آلاف المارة الغرباء يسعود ذهابا وجيئة فى حارتنا المتواضعة هذه الليلة..

-٣-

وسمعت طرقا ناعما على الباب كأنه وقع حوافر الدواب فى ليالى الحصاد أو كأنه تساقط المطر فى أوائل الخريف أو كأنه تكسر أحطاب جافة تحت أرجل حيوان، فوجف قلبى، فقد كان هذا هو ما توقعته تماما، ثم عاد الطرق من جديد شديدا متعاليا مغمورا فى الظلام كأنه أحجار يلقيها أطفال على شجرة النخيل أو كأنه أظافر كلب تبحث عن عظمة بين التراب أو كأنه الريح تصفق حطام منزل خرب.. وعاد الطرق يشتد حتى اهتزت له جدران المنزل وتململت (نور) فى فراشها فأدركت أنه يجب ألا أتأخر أكثر من ذلك وأن الطارق يريدنى جديا أن أسرع إليه فليس علىّ إلا أن أفتح الباب ثم أكون على أهبة الاستعداد..

فلما فتحت الباب وجدتنى أمام ذلك الأحدب البشع الذى عبرته فى الطريق منذ لحظات ثم برز وراءه من الظلمة شخص أنيق الهندام رائع الوجه حتى لقد حسبته فى أول الأمر حسناء يصحبها الأحدب، وكانا يرتديان ثياب السهرة السوداء. ودخلا بلا استئذان وانصرفا ناحية

المخدع فهما ـ كما يبدو ـ يعرفان الطريق.. وكان الطرق قد أزعج (نور) فرأيتها تفتح عينيها، إلا أنها ما إن لمحت الأحدب بوجهه المتآكل حتى أغلقت أجفانها من جديد، وشدت على وجهها الغطاء بحيث ظهرت أصابع قدميها. فلما حاولت الدخول وقف الرشيق إلى جانبى يمنعنى ويقول لى موضحا إن تحقيقا سيجرى معى وبشأنى هذه الليلة وهما يبحثان الآن عن أدلة الاتهام.

واتجه الأحدب نحو الدولاب يقلّب فى ملابسى، ثم اتجه نحو صندوق فى زاوية سفلية منه علاه التراب وكنت قد نسيت ماذا وضعت فيه. فلما اقترب منه أخذ ينفض عنه التراب. وتذكرت ما به وعرانى وجوم ثم ضحكة خافتة أنّبنى عليها الرشيق بنظرة منه. ورأيتِه يفض الرسائل القديمة يقرؤها واحدة واحدة، وكنت قد حرصت أن أضعها بعيدا- حتى عن نفسى- فى مثل هذا المكان، حتى كدت أنسى أمرها، ولو أنى تذكرتها أخيرا لأحرقتها فيما أحرقت من صور وذكريات ما كنت لأطمئن إلى عدم وصول كائن إليها.. وهكذا قُدر لى أن أرى رجلا أحدب متآكل الوجه يقرأ قبل منتصف الليل أعز ذكرياتى ويفض الأسرار التى تكوِّن مقومات حياتى والتى ذخر بها شبابى، والتى حرصت على أن تستمد قداستها من علاقتها الصامتة القائمة بينها وبين نفسى. وكان الأحدب يبحث حينا فى دقة ثم يبدو أن نباح الكلب المستمر يضايقه فتضيق عيناه وينظر نحوى ثم يعاود القراءة من جديد، وكان عجزى هو أنى لم أستطع أن أشاركه ولا أن أفهم التيارات الخفية التى تعتمل فيه وهو يقرأ رسالاتى القديمة العزيزة، ثم اتجه نحو (نور) ـ بعدما أدرك عبث قراءاته ـ وتأمل فيها قليلا، وخشيت أن تصاب بسوء، فقد أزاح الغطاء عنها، ولا ريب أن المسكينة كانت تقشعر الآن، فقد انحنى- حتى أصبح منبعجا كنصف الكرة- وأدركت أى فزع يتملكها، وأنا ما أستطيع إنقاذها، فعلى قيد ذراع منى يقف الشاب الأنيق ومعه ما يشبه مسدسا فى يده، وأنا حريص على حياتى بل أنا حريص ألا أصاب بجرح ولا بألم سخيف، كأن يكون لكمة مثلا. لكنى تساءلت فى هذه اللحظة ما إذا لم يكن حرصى على حياتى بهذه الصورة يفقدنيها، وكإن ذلك عندما انحنى الأحدب يقبِّل (نور) ويحتضنها، قبلة حقيقية لا شك فيها هذه المرة، رغم الرائحة الكريهة، ورغم ما رآه بوضوح من جحوظ إحدى العينين جحوظا بشعا مشوها تفقده كل شهية نحوها..

فلما انتهى من هذه المداعبات المريبة، أخذ يعدل من ياقته البيضاء ثم أخرج ما يشبه المذكرة ودون ما يشبه الملاحظات، ثم مضى يقلب تحت السرير، ورأيته يخرج نصلا ذا حدين ويغوص به فى الوسادة حيث كانت المريضة نور راقدة، ومضى يعبث بقطع القطن المتلبدة وينثرها أمام عينيه ثم ينفخ فيها وهو يتأمل محاولاتها الفاشلة للصعود، ثم يبعثر بقيتها على الأرض، فلما أبديت شيئا من اشمئزازى ألقى به فى وجهى.

وخرج من المخدع وأنا أتبعه مع حارسه الأنيق، حتى وصلت إلى باب المطبخ، فمُنعت كذلك من الدخول، واكتفيت بأن أقف بحيث أستطيع أن أرقب كل شىء، فلقد ذهب الأحدب يقلِّب بطرف سبابته فى القطعة التى كانت جبنا واستحالت- منذ الأمس على وجه التقريب- إلى

مجموعة من دود، وكان النمل قد عاد إليها من جديد. ثم مضى يقلّب فى القمامة، وبها فضلات من طعام وبقايا خبز جافة وأوراق متسخة يحاول أن يقرأها بعينيه الكليلتين، ولاحظ القطة وهى تموء فنظر إليها بارتياب فى أول الأمر وإلى أثدائها المدلاة، وتتبعها وهى تتشمم زوايا المطبخ، ثم ما لبث أن انصرف عنها وقام يقيس عرض المنضدة، وهو دائب يدون ملاحظاته المهمة الدقيقة، ويرفع يده اليمنى نحو أذنه اليمنى كأنما يطرد بها الذباب كلما تنبه إلى عواء الكلب المتصل فى الظلمة الخارجية.

ثم خرج من المطبخ ليعدَّ نوافذ المنزل واحدة واحدة ، وأبوابه، ثم بدا لى أنه يُعَّد قطع البلاط فى كل غرفة، ولو أنى ما تأكدت من ذلك أبدا فقد أغفلوا ذكر ذلك فى التحقيق. وكان هذا هو كل ما يحتويه منزلى، غرفة للنوم ومطبخ للطعام وردهة فيما بينهما. فلما أوشكا على الخروج لمحا الأوراق الفارغة منثورة وممزقة فوق المنضدة بالردهة وكانت لا تزال بها بقايا العرق من آثار قبضتى التى تشبثت بها طوال هذه الليلة، وقد أثارت هذه الأوراق اهتمامهما البالغ، فأدناها الأحدب من أنفه ثم أدناها إلى أنف زميله يتشممها معه، فلما لم يقنعا بذلك أخذا يقرآنها بعناية وما لبثا أن وضعاها فى ظرف كبير ونظيف ثم رأيتهما ينتحيان ويتهامسان، كل منهما يهمس بدوره كأن ثمة مؤلفا وضع لهما حوارا وهما يشيران إلى ما وضعاه بالظرف، وقد عددت المرات التى تكلم فيها كل منهما فوجدتها اثنتى عشرة مرة، فقد همس الأحدب فى أذن الرشيق اثنتى عشرة مرة وهمس الرشيق ردا على الأحدب اثنتى عشرة مرة. ثم دوَّن كلٌّ فى مذكراته ما يشبه الملخص العام وما يشبه الرأى النهائى فى الأمر .. وانتزعانى من بيتى. ثم اقتادانى إلى الخارج حيث ظلمة الظلمات.

وكانت غرفة التحقيق-بعكس ما كانت السينما- مرتفعة الباب شديدة النظافة قوية الإضاءة، خالية صامتة كأنما تنتظرنى. وقد دفعنى الرجلان إلى الداخل بغير أن يدخلا، ولم أجد مقعدا واحدا فاضطررت أن أجلس القرفصاء على الأرض متأملا ظلى المطمئن إلى جانبى. وجعلت أنتظر. كان ثمة منضدة مستطيلة ومرتفعة ونظيفة جدا أمامى وليس عليها شىء على الإطلاق، ومن خلفها ستارة مزركشة يغلب عليها اللون الرمادى كالتى يضعونها فى بعض الهياكل، ثم أربع زوايا وسقف وأرض خشبية كلها نظيفة ومضاءة ومعنى بها عناية فائقة. ومضيت أنتظر وأرقب ما عسى أن تكون الحركة التالية.

وسمعت صوتا ينادينى، فاستدرت أبحث عمن يكون مصدره لكنه كان يبدو آتيا من خلف جدار، أو من خلف الستارة على وجه التحديد. وهكذا أدركت أنى لن أري وجه محققى، ولكنى عرفته رغم هذا الجدار المصطنع القائم بيننا فلا شك أنه كان صوت ذلك الشاب الرشيق الذى كان يحرسنى بينما بدا لى الأحدب يقوم الآن بدور ثانوى هو دور الكاتب، فقد سمعت حفيف القلم أكثر من مرة وهو يحاول اللحاق بى حتى لا يفوته شىء مما أجيب. وكان واضحا أن المحقق يعرف كل شىء عن حياتى، فقد مضى يلقى أسئلة كثيرة وسريعة ومتلاحقة، علىّ أن

أجيب عنها جميعا بلا تردد ولا غموض. وقد بدا لى أكثر من مرة أن أفاجئه بمعرفتى له، أو على الأقل أن أطرد - فيما بينى وبين نفسى - سلطته، وأنتزع من قلبى الإيمان بقدرته التامة على اتهامى وعقابى، وبهذا وحده أستطيع أن أضع بينى وبينه حجابا حقيقيا وكثيفا لا يستطيع أن ينفذ من خلاله إلى ما يَجِدُّ من أسرار حياتى. كان ضعفى أمامه وخوفى منه وإيمانى بقدرته وحرارة الغرفة المعذِّبة هى التى تساعده على الحصول منى على كل ما يريد. سألنى عن اسمى وعن وظيفتى وعن أقربائى، وسمعت الأحدب يكتب جميع الإجابات فى سرعة فائقة، ثم عاد يسألنى عن سبب اختيارى لهذا المسكن فى هذه الحارة، وعن سبب وجود هذه الخادم بهذا الاسم فى منزلى وما إذا كان لى بها علاقة . ثم عاد يسألنى: ما الذى كنت تحمله معك مساء اليوم؟ وأجبته: ليفة مما يغتسل بها الناس. فقهقه قهقهة مدوية وسألنى: أين اختفت إذن؟ أجبته: لقد ضاعت منى أثناء الطريق. قال: إذن فها أنت ذا تعترف. ثم زاد ضحكه رعبا ودويا، كما يبدو أن الأحدب رمى قلمه واستلقى على قفاه ليشترك معه فى الضحك. ثم سألنى عن معنى الكلام الذى كان مكتوبا فوق ورق الجرائد، وعن لون مخدعى الأزرق، ولماذا أخذت سيارة الأجرة ثم هربت منها، ولماذا شاهدت ذلك الفيلم بالذات وجلست بين السيدة والرجلين، ولماذا انحنيت على أرض الطريق، وماذا التقطت إذ ذاك- وهذا أمر لا أذكر أنى فعلته هذا المساء إلا أننى لم أستطع أن أنكر احتمال ذلك، بل وتصديقه، فقد كان يبدو أنه يعرف أشياء أجهلها أنا عن نفسى، وهو لا يريد حقائق فهو يعرفها، لكنه كان يريد أن يحصل على اعتراف. وهكذا بت على استعداد لأن أؤيده على اقتراف أعمال بمجرد ذكْرها لى. فمضى يسألنى عن القط الذى يموء، والجبن والدود والكلب الذى يملكه جارنا والخطوات التى كنت أقيس بها الطريق، ولماذا لا أدخن ولماذا لم أستطع الزواج ولماذا لا تستطيع الاختلاف إلا إلى مقهى واحد؟. كان يطلب منى تفسيرا لأشياء لا أجد لها تفسيرا، وكان هذا عجزا حقيقيا منى فقد توهمت أننى هيأت نفسى بكل ما أملك من دفاع، لكن سرعان ما ثبت لى خطأى الفاحش وأنى مجرد أعزل من كل شيئ أمام هذا السيل المنهمر من الأسئلة الدقيقة التى تخصنى تماما والتى كان يجب أن أعرف إجاباتها جميعا. كان المحقق يضعنى موضع المسئولية من كل ذلك، وإنى لمسئول عنه جميعا.

وحين انقطع حفيف القلم أدركت أن التحقيق قد انتهى، وعلىَّ أن أخلى المكان، فقمت أتجه نحو حارسى الذى كان ينتظرنى فى الظلمة الخارجية، متذكرا كيف كنت فى جبن أتحايل على التهرب من الإجابة الصحيحة، لأنه كان يبدو لى أنه لم تكن ثمة إجابة لكثير من هذه الأسئلة .. لهذا أدركت أنى قصرت تقصيرا شديدا، تقصيرا يكاد يدنينى من العدم.. ففى استطاعة هذا المحقق أن يلصق التهمة بى، ولهذا أعددت عن نفسى هذا الدفاع.

فغدا سيجلسون لمحاكمتى ، وسيلقون على التهمة تلو التهمة ولن أدعهم يستمرون.. سأدافع عن نفسى، سأجعلهم يدركون أن شيئا مما فعلوه لم يكن ليفاجئنى. سأخبرهم كيف نشأ لدىَّ ذلك

شيئا فشيئا وأنا أعبر طرقات هذه المدينة المزدحمة فى طريقى إلى عملى صباحا وفى طريقى إلى مقهاى مساء وفى طريقى إلى منزلى صباحا ومساء.. سأقول لهم إن زحمة الطريق كانت تضايقنى، وحتى المقهى الذى اخترته لأن به شيئا من هدأة، كان أحيانا ما يزدحم فى بعض الأماسى، فينعكس ضجيج الناس ووهج النور فى عيونهم وفى رائحة دخانهم، فيصيبنى انقباض ويأس شديدان. لقد كانت المسألة فى أول أمرها مجرد رغبة فى الهدوء ثم أصبح شبه إحساس بالخوف وبلزوجة فى أجساد الناس وكلماتهم ونظراتهم، وأخيرا أدركت وأنا أعبر شوارع المدينة أن هناك من يتبعنى وسط الزحمة، وكان هذا أبعد مما وصلت إليه مخاوفى، فأنا رجل مسالم لا أصدقاء لى ولا أطفال، فلماذا يتعقبنى شخص أو أشخاص وأنا سائر فى هذه الزحمة الكريهة؟ وهكذا نشأت لدى رغبتى المستمرة فى الانكماش والتضاؤل، حتى أصبحت كأنى فأر فى مصيدة عليه أن يتجه إن يمينا وإن شمالا حتى يدمى وجهه وينهك عبثا قواه.

لقد كان كل أملى فى الحياة أن أعيش فى هدوء، بعيدا عن كل صخب وضجيج ملتصقا بعمل هادئ لا مجال فيه للمغامرة والمقامرة، وظيفة ذات أجر ثابت، حيث تتبلور كل آمالى أن يزداد أجرى جنيها أو جنيهين كل بضع سنين، لهذا نفضت يدى من الحب وتحاشيت الزواج، وتجنبت أسرتى منذ زمن بعيد، وحاولت أن أختار مسكنا هادئا وخادمة مطيعة فى منعزل عن الناس، ومضيت أدبر شئون حياتى بأقل قلق مستطاع، لكن ها قد ذهبت كل محاولاتى أدراج الرياح، وبالرغم من كل هذه المحاولات فقد وجدت أخيرا من يتعقبنى فى شوارع المدينة وأزقتها، ومن يعرف كل أسرار حياتى ومن يحاول أن يسد كل منافذ الخلاص، ويتدخل فيما حرصت أن أخفيه عن كل إنسان. حتى وُضعت أخيرا فى مكان مظلم تذهب فيه الخفافيش وتجىء طولا وعرضا وصعودا وهبوطا.

سأعلن على الجميع أنى ما أردت يوما أن أكون بطلا ولا رجلا مشهورا، وسيكون شهودى على ذلك أولئك الذين شاهدونى لآخر مرة هذا المساء، سأستشهد بالبائع المتآكل الأنف، وبالحسناء والشاب الذى يحادثها كأنما فى حذر، وبالسائق المذعور والمصاب الذى وطأته العجلات، وبقاطعىّ التذاكر والسيدة التى تحك جسدها فى كآبة إلى جانبى، وبالذين كانوا يتهامسون وبالذين كانوا يتلفتون ويتآمرون. ثم أستشهد بخادمتى(نور) وبالقط الذى يموء وبالكلب الذى ينبح وبلون غرفتى الأزرق، فكل هؤلاء معى، وهم يدركون أن كل ما أردته هو أن أكون مطمئنا- ولا أقول سعيدا.. ولقد كانت طريقتى اليوم إلى ذلك هو ليفة أحك بها جسدى المتلبد. وسأحلف بنوافذ بيتى السبع- التى دوَّن عددها الأحدب- وبحق البطل الذى انتصر على الشاشة، أننى حين اشتريت هذه الليفة ما كنت أدرك ما يترتب على ذلك من خطورة بالغة ومعركة مضنية. سأشهد هؤلاء أمام الناس مكررا أنى ما أردت أن أصبح عظيما ولا زعيما ولا غنيا، بل مواطنا تطمئن أقدامه للخطوة التالية. وأنا أعلم أن هذا هو موطن الضعف الوحيد فى دفاعى ولكنى سأدافع عن نفسى حتى نهاية النهاية.

الطريق إلى المعتقل

كنا على أهبة الاستعداد، وعندما انحنت علىّ أمى لتودعنى بقبلة، لمحت بعينيها شبكة من الشعيرات الدقيقة القاتمة الحمراء فأسلمت لها وجهى وأنا أحس بمذاق القبلة الباهتة على جبهتى. ثم مضيت أتبع والدى، وكل منا يحمل حقيبة مثقلة متآكلة كأنها حقد قديم.

وأمام الباب وقفنا ننتظر، كانت عيوننا تمتد إلى نهاية الطريق المتعرج كأننا نستعجل قدوم السيارة المقبلة، وهى ما تنفك ترتفع مع ارتفاع الطريق وتنخفض مع انخفاضها. وأمامها- وعلى بعد ذراع واحد- كان ثمة طفل قد رفع يديه وجعل يعدو كأنما يفسح لها الطريق أو كأنما يشدها نحوه بخيط رقيق خفى.

فلما وقفت نزل منها سائق عملاق قد لوحته الشمس، ثم فتح لنا فى انحناءة باب السيارة الخلفى، ونظرت إلى والدى أتهيب الدخول إلى مثل هذا المكان، أو كأنما أتهيب ما أزمعنا عليه من أمر. ثم انحنى والدى حتى كوّن ما يشبه القوس المتعرج ودفع أمامه حقيبته ، ثم انحنيت خلفه ووضعت قدما داخل السيارة ورفعت الأخرى. فلما أرقدت حقيبتى بأرض السيارة أدخلت قدمى الأخرى. وحين استوينا على المقعد المبطن المهلهل دفع الطفل وراءنا باب السيارة فى عنف، ثم تقدمت السيارة إلى الأمام قليلا، ثم كأنما عادت فعدلت فجأة عن أمر ما فتقهقرت بشدة إلى الوراء حتى لقد ارتطمت ذقننا بحرف المقعد الأمامى، وكان السائق قد استقر عليه، فجعلت أتأمل الآن رأسه السوداء المنحنية أمامى فى الفراغ.

وربما لم يحدث منذ سنوات أن اختليت بوالدى مثل هذه الخلوة، كان كل منا مأخوذا بمشاغله مندفعا مع جيله، لا يكاد يجد وقتا يهبه للآخر، أما الآن فقد كانت قسوة الحدث ووحدة الطريق تربط بيننا. وقد فصلنا عن السائرين والعابرين باب انصفق فى عنف وقلقلة

السيارة المترنحة وهى لا تزال تدفع أحدنا لصق الآخر بشدة ثم تعود تفصلنا لتلصقنا من جديد، وثمة رأس شبحية هلامية قد استقرت فى عيوننا.

وقد بدا لى فى أول الأمر أن هناك مجرد إحمرار مجهول يشوب هذه الرأس السوداء، ثم فجأة فغرت فمى. فقد كانت أذن السائق اليمنى -ومن نهايتها السفلى تماما- تقطر دما. وكأنما هناك قطعة صغيرة من اللحم قد انتُزعت حديثاً بلا رحمة، والتفتُّ إلى والدى لأريه كيف تذوب الأذن الكبيرة الماثلة أمامنا وكيف ينسكب منها الدم كأنما يسقط فى هاوية. لكن والدى كان جالسا مطمئنا وقد عبر بنظراته إلى ما وراء الرأس وما وراء الذين فى الطريق يعبرون الخطر أمام زجاج السيارة. وكانت الأذن تذوب شيئا فشيئا وقد أمسك السائق عجلة القيادة بكلتا يديه، وأبى كأنما لا ينظر فى شىء، وأنا لا أستطيع أن أشيع الاضطراب فى التسلسل اللامتناهى للأفكار المتداعية عليه. وكان السائق قد رفع الآن يده اليمنى للحظة، فلما اطمأن إلى تلوثها عاد يضعها أمام عينيه كأنما يبحث فيها عن شىء، ثم نفخ فاتسعت النقطة، وتناثرت على أجزاء الكف، ثم عاد يضغطها فى العجلة التى أمامه.

وقلبت فى جيبى بحثا عن منديل. فلعل المنديل أن يكون ضمادة مؤقتة، لكننى أدركت أننى نسيت كل المناديل على المنضدة بالمنزل حيث أعدتها لى أمى قبل خروجى. وكان ثمة منديل يشوبه الاصفرار يطل بإحدى زواياه من جيب والدى، لكننى خشيت أن أسحبه فأقطع الصمت الضرورى المتصل بيننا، فآثرت الانكماش والانتظار. وكان الدم قد أخذ يتلكأ الآن حول نهاية الأذن المقضومة، ويتكاثف ويقتم، ثم يتجمع فى نقطة كبيرة تسقط على مهل فى الفراغ . وفجأة مال علىّ والدى وهمس قائلاً: لقد اقتربنا.

ولمحت التجاعيد المرتسمة على وجهه كأنما أراها فى مجهر، ونقطتين من العرق توشكان على السقوط من جبهته. ومن خلفنا كانت الأبنية ترتفع، والطريق تتسع، والعابرون يندفعون كأنهم قطيع مجفل متفرق بلا راع. وكان واضحا أن السائق الأسمر يبحث الآن عن مكان ملائم يقف فيه بسيارته، وفجأة -وبلا توقع- وقفت السيارة كأنما على غير إرادة سائقها، وانفتح الباب، ودفعنى والدى أمامه إلى الخارج، فنزلت أحمل حقيبتى ومن خلفى أبى وهو يجر حقيبته على أرض السيارة، وأطل السائق من مقعده، وبسط كفه يقبض فيها الأجر، ثم صفق باب السيارة الخلفى بشدة وغاب عن أنظارنا، وكان الضحى إذ ذاك قد ارتفع.

وارتقينا الدرج ، ودلفنا بين الأعمدة الكثيرة المنتصبة، وعرج والدى جهة النافذة الحديدية الضيقة، وامتصته الزحمة وسمعنا صفير القطار، ونفذنا من باب ثم من باب، ثم انخفضنا فى دهليز رطب مستطيل، ثم عدنا فارتفعنا على سطح الأرض، ونفذنا من باب ثم من آخر، وشاهدت الرصيف يطفو بالحمالين والحقائب والباعة والمتعانقين والأطفال والسيدات، ثم ازدحم القطار بحيث بدا كأنما عزم على ألا يزدرد آخر، واحتشد فى نوافذه وممراته وأبوابه

رؤوس وأيد ومجموعة من المناديل المترنحة القذرة، وبدا بعرباته الست الضيقة المنخفضة ونوافذه الكثيرة المتعددة وسطحه المقوس كأنما هو سلسلة فقرية لحيوان جيولوجى هائل بائد، قد علاها فجأة جيش كبير من النمل.

واقتربنا من أحد الأبواب وقد احتشدت فيه مجموعة من الأجساد المنضغطة المستطيلة، تدلت منها أقدامها وأذرعتها. وكان لابد من إيجاد مكان ما، فالقطار ما ينفك يطلق صفيره كأنما يوهم الراحلين فى كل لحظة بأنه على وشك التحرك. وقد تقلقل من مكانه قليلاً فشاع ما يشبه التفصم بين المحتشدين على الرصيف وبين الأذرع المتشابكة بالنوافذ، لكنه عاد فوقف. وشقت الحقيبة طريقها بين الأجساد الملتصقة اللزجة ومن خلفها والدى، وكنت أود أن أعود الآن لحظة لأعرف ما تم فى أمر السائق وأذنه، لكن يبدو أن تفكيرى فى ذلك قد جاء متأخراً جداً، فما لبث والدى أن جذبنى معه إلى الداخل. ثم شق لنا طريقاً خلال الأذرع والأرجل حتى وجدنا لأقدامنا مكاناً داخل العربة، ثم صفر القطار صفيراً متقطعاً ثم آخر متصلاً رفيعاً وامتلأت السماء بالدخان الأسود المتناثر. ثم شاعت القلقلة بين العربات من جديد واستأنفت العجلات دويها.

ويبدو أنه كان فى الزحمة شىء من الوهم، فما أن تفرسنا فى العربة بحثا عن مكان بين الأجساد المتناثرة، حتى وجدنا مقعدا يسع شخصين أمام رجل وسيدة وصبى فى الثامنة أو التاسعة يبدو أنه طفلهما، فجلستا ووضعنا الحقيبتين بيننا حيث لم يكن ثمة مكان آخر. وكان يبدو أن الرجل فى الأربعين أشيب الشعر، لا يفتأ يتمخط بين حين وآخر، وفى هندامه شىء من عدم الاكتراث، أما السيدة فكانت أصغر منه قليلاً، على شىء من الملاحة، لكن أنفها طويل للغاية، وعجيزتها ضخمة جداً. وكنت لا أعلم هل هما فى حالة من الهيام أو من التعب، فالسيدة لا تنفك تميل برأسها وشعرها على ذقن الرجل وعنقه، والرجل ما ينفك يداعب شعرها بأنامله مداعبة هادئة أحيانا، عنيفة أحيانا، أما الطفل فكان فى أول أمره مشغولاً بالنظر من نافذة القطار ومداعبة الغبار والفراغ، ثم عاد فاعتدل فى جلسته ونظر نحوى وجعل يبتسم، ولم يكن لابتسامته فى أول الأمر معنى محدود، فهى قد تكون رضاء وقد تكون سخرية- فتحولت بعينى، وتلفت إلى والدى لأرى الأثر المرتسم عليه، وعسانى أخلق الآن معه حديثا.

لكن والدى كان مشغولاً بشىء غريب ما توقعته. فقد كان ثمة بقعة كبيرة سوداء قد انطبعت الآن أسفل جاكتته، وكان من الواضح أن شيئا مما فى داخل الحقيبة قد انسكب داخلها وتسرب بعضه على ملابسه. وكان الآن منشغلا يمسح فى هدوء هذه البقعة المبتلة بمنديله الأصفر الباهت، وانتشرت رائحة فريدة فى المكان، ربما كانت رائحة سمك، وخُيِّل للزوجين-بغير حق- أنها انبعثت من هذه البقعة المستديرة السوداء فانقطع ما كان بينهما من هيام ، وبدا على وجهيهما شىء من التأفف والاشمئزاز، واستطالت من جديد شفتا الطفل وضاقت عيناه.

وتمخط الرجل وانحنى نحوى وهو يقول مشيراً إلى الحقيبة: هل بها سمك؟

فأجبته: سمك؟ كلا، إن هذه الرائحة تنبعث من مكان آخر. هذا مجرد خل.

فطأطأ رأسه وقال: ولكن ماذا يفعلون بالخل فى المعتقل؟

فقلت له فى دهشة: لكن كيف عرفت أننا نقصد المعتقل؟

فأجابنى وهو يبسط يديه: كيف؟ هذا بسيط للغاية، فأنت ترى كل الراكبين بلا حقائب وأنتما وحدكما اللذان يحملان حقائب مثلنا، ومعنى هذا أنكما لن تقصدا الميناء الجوى، ولا يوجد مكان آخر سوى المعتقل.

فأجبته مندهشاً: لكن ما أمر الزوجات والأطفال إذن الذين كانوا بالرصيف؟

فتمخط من جديد وقال: هؤلاء كانوا يودعون ركاب الدرجتين الأولى والثانية ممن يقصدون إلى ما بعد المطار والمعتقل.

وكأنما لمح على شفتىّ سؤالاً حائراً فاستطرد فى شىء من السرعة: إننى ذاهب مثلكما إلى هناك لزيارة ابننا خليل، فتى لا يزيد عن السابعة عشرة، لا ندرى كيف أصيب بهذا الداء الوبيل. وأنتما من تقصدان؟

فأجبته مطرقاً: أخى صالح..

فصاح قائلاً: آه صالح، لقد رأيته فى الزيارة السابقة لابنى، إنه فحل كبير. لا تكتئب، سيخرجان أكثر سمنة مما دخلا.

فرفعت رأسى إلى الرجل مؤنبا: يبدو أنك ما سمعت أنهم مضربون عن الطعام منذ عشرة أيام..

فأجابنى بهدوء: بل سمعت بلا شك، وأنا ذاهب مع أمه اليوم لنقنعه بضرورة العدول عن هذا الهوس.

فسألته فى تردد: ولكن أليس خليل عنيدا؟

قال إنه عنيد إلى حد ما ، لكننا أحضرنا ما يفتح له شهيته، انظر هنا فى الحقيبة حلوى وكنافة. وفى تلك لحم وسمك.

فصحت فى تأنيب: سمك؟ إذن هذه الرائحة تنبعث من حقيبتكم ؟

فأجاب فى طمأنينة: لا، لا لقد لففناه بكثير من الورق ولا يمكن أن تنبعث منه رائحة ما. إنها تنبعث من مكان آخر بلا شك. انظر .

ورفع الحقيبة الثقيلة وكاد يدسها فى وجهى . وهنا انحنت السيدة بأنفها الطويل على ابنها، وأقبل والدى بوجهه وهو لا يزال يمسح بمنديله على البقعة الكبيرة السوداء وقال: إذن أنتما جئتما لزيارة هذا المكان من قبل وتعرفان الطريق؟

- نعم لقد جئنا من قبل بغير شك. وسيقف القطار بنا بعد خمس دقائق، ثم يمتد طريق رملى صحراوى لمدى نصف ساعة، تبلغان فى نهايته البوابة الكبرى.

ولقد هدأ بالفعل دوى العجلات قليلاً، فقام والدى يحمل حقيبته المبتلة، واندفعت وراءه. لكن المرأة ضحكت ضحكة خافتة وطلب منا الرجل أن نتريث فالقطار يهدأ هنا بسبب انحناء الخطوط الحديدية ولا يزال أمامه أربع دقائق كاملة ليقف . ثم أردف قائلا: وسيغادره معظم الراكبين ، فلا داعى للعجلة.

ومع ذلك فقد ظل والدى واقفاً وجلست أنا على حافة المقعد متأهباً للقيام، وقد بدت أبنية المطار وطائراته الجاثمة من بعيد. ثم عاد القطار يهدأ قليلاً قليلاً، والراكبون من عمال المطار يقفزون تباعاً من أبوابه ونوافذه.

ولم يكن هناك ما يشبه المحطة فى شىء، بل مجرد أعمدة أربعة من الخشب كأنها نُصُبُ فوق قبور لمجهولين، ثم رمال وتلال تمتد إلى نهاية البصر، فما مرت لحظات حتى كانت الأرض قد ابتلعتهم جميعا . وكان واضحا أن الرجل وطفله وزوجه ذات العجيزة والأنف قد قفزوا إلى إحدى هذه السيارات مع العمال، أما نحن فكان علينا أن نقطع بقية الرحلة سيرا على الأقدام فى هذه الأرض الغريبة، وأن نستدل من حين لآخر بإنسان هنا أو نُصُب هناك. وقد وقفنا وحيدين أمام الرمال المترامية والرحلة المجهولة والفزع الغامض، والظهيرة ما ينفك قيظها يعلو ويشتد.

وكان القطار قد ابتعد الآن فكوَّن ما يشبه الخط الأسود الغامض فى الأفق البعيد. ومضى كل منا يحمل حقيبته، ونحن نقتفى أثر السيارات المتدحرجة هنا وسط الصمت والقيظ، وكانت التلال المنخفضة ومسارب السيل القصيرة الجافة المترددة كأنما تمتد حتى تلتقى نهايات الأفق بنهايات الأرض، وكأنما هناك دعاء مرير ينبعث حوالينا من السماء الزرقاء، ومن الأرض الفسيحة المنبسطة ومن الريح التى تهب بين حين وآخر، غريبة وبلا توقع، فتثير الحصى والقذى، ثم تعود فتهمد كأنما إلى الأبد. كان مكانا يضطرنا إلى العزلة، وهى عزلة موحشة لا قداسة بها، فهو يعزلنا حتى عن أنفسنا. وكان السراب يلوح لنا على بعد فنلتقى هناك، ثم يرتد بصرنا فينحسر عن أثر العجلات ومواطئ الأقدام. وكان لا يبدو لى شىء من أمل ، فالطريق ما تنفك تزداد طولا، والقيظ ما ينفك يشتد اندلاعاً، والصخور من حولنا ما تنفك تزداد قتامة وتوهجاً. وعندما انحنى بنا الطريق لمحنا رجلين يصلحان أسلاك البرق فى هذه المنطقة ، فلما اقتربنا منهما صاح أحدهما بصوت كالرعد:

أنتما ذاهبان إلى المعتقل بلا شك.

فاقترب منهما والدى وقال: حقا نحن ذاهبان إلى ذلك المكان ، فهلا تعرفان الطريق .

فضحكا معا كأنهما يقومان بدور فى مسرحية أو جوقة، ثم أشار أحدهما إلى الأفق وصاح: وكيف لا نعرفه؟ ربما كان هناك..

فآثرنا الابتعاد وعدنا نستأنف المسير.. وكان الحوار الصامت قد أخذ يتصل الآن بينى وبين والدى، حوار تتداخل فيه عناصر الصخر والرمل، والأذن التى جمدها الدم، والآخ الراقد فى المكان المجهول وفزع الوقت وكآبته. كان بيننا حوار يمتد ثلاثين عاما فصلت ووصلت ما بين جيل وجيل، ونحن نوغل فى هذه المنطقة من الوجود حتى التقينا بنقطة يتفرع عندها الطريق.

وكنت إذ ذاك قد بلغت قمة الإعياء، ودب الضعف إلىّ، وخُيِّل إلىّ أننى لن أصل أبداً ولن أعود. ورأيت فى هذا التفرع ما يبرر لى عدولنا عن رحلتنا التى لا تنتهى، فنظرت نحو والدى وهو يبتسم ثم اندفع فى أحد الطريقين لا يلوى على شىء. ولوح لى يشجعنى فهناك ما يشبه الحياة على مسافة من الطريق، فتحركت من جديد، وبكارة التجربة تربطنا بغاية واحدة، ثم تعود تفصل بيننا السنون والرؤى والأساطير. وكنت أود الآن لو أقطع هذا الحوار بكلمة أو همسة فأثير الشك فى نفس أبى وأستعيد منه شيئا من الإيمان، لكن شيئا من التهيب كان يدفع الحوار فى طريقه فلا تقطعه كلمة ولا همسة. وهكذا اندفعنا نسمع وقع أقدامنا، ونجفف العرق، ويستبدل كل منا حقيبته من يد إلى أخرى متى امتلأت كفه باللزوجة والعرق.

ولاح لنا هيكل لسيارة صغيرة متداعية، ينحنى تحتها رجل قد أخفى نصف جسده هناك كأنما يصلح من عجلاتها أو يستظل من حرارة هذا القيظ. فلما اقتربنا، وأصبح لأقدامنا وقع فى مسامعه زحف برجليه إلى الوراء ثم رفع رأسه نحونا وهو ينفض يديه مما علق بها من رمل وحصى، وفغرت فمى وأمسكت على يد والدى أشدها، فعلى بعد ثلاثة أمتار منا كان يقف السائق ذو الأذن المقضومة والذى تركناه خلفنا بالمدينة. وصحت فى فرح ودهشة:

كيف وصلت أيها الرجل العظيم إلى هذا المكان الميت القائظ وكيف قطعت هذا الطريق الشاق بسيارتك تلك؟

ولم يبد أنه استاء من حديثى بل ضحك قائلاً: إننى أحمل كل يوم ألوانا من الناس إلى مختلف الأنحاء ، ولشتى الأغراض، وسيارتى سليمة على ما بظاهرها من القدم، وإنى لأرى أنكما ذاهبان إلى المعتقل فهلا تتفضلان؟

وانحنى أمامنا يفتح باب سيارته لنا، وانحنينا نحن ودخلنا وصفق الباب وراءنا، ثم جلس إلى عجلة القيادة. وكان الدم قد تجمد الآن حول الأذن وكوَّن ما يشبه السواد وسط الجرح . أما بقية الأذن فكانت شديدة الاحمرار كأنما تلتهب.

ومضت بنا السيارة ترتفع وتنخفض ، وتتشابك أمام زجاجها المسارب الجافة ونهايات الأفق، وتنتشر على جانبيها قبور لجنود أجانب مجهولين أقبلوا من أحضان أمهاتهم وزوجاتهم فى هذه الصحراء المحرقة فلا يعودون. وكانت النباتات الشوكية الرمادية الحادة تفجؤنا بين حين وآخر ثم سرعان ما تختفى وراء كثبان من الرمال لا تنتهى ، والريح واللهيب وقلقلة السيارة كأنما تأتى الآن من عالم متباعد نهائى. والسيارة تشق طريقها فى فراغ برئ طاهر، يفضى بنا إلى نهاية قريبة مرجوة. فها قد لاحت لنا البوابة العظيمة من بعيد، وهدأت سرعة السيارة قليلاً وهى تعبر بقايا الطريق الصخرى.

لقد أوشكنا على نهاية الرحلة، وبقيت أمامنا المغامرة الأخيرة، فها نحن نغادر السيارة، وبعد قليل سنعبر هذه البوابة الضخمة ثم نجتاز الممرات الكثيرة المتعددة والقيظ والصخر، ونلتقى بالأخ العزيز فى مكان ما، ونقبّله فى عنقه وفى وجهه، ثم نبلغه سلام الأم ، ونسأله ذلك السؤال الذى لا يجيب عليه أحد: لماذا اعتقلوه ومن ذا الذى أمر باعتقاله؟ فلقد ألقينا هذا السؤال مرارا على أنفسنا وعلى الجالسين إلى مكاتبهم وعلى العابرين فى الطريق ، فلم نحظ بجواب حتى الآن لكننا ما مللناه.

أننا سندخل المعتقل الآن أيها السائق العملاق الأسمر، فانتظرنا حتى نعود ولا تمل الانتظار، سنضاعف لك الأجر، ونداوى لك أذنك حالما نعود، وربما حملنا إليك هذه السيدة ذات الأنف الطويل والعجيزة الضخمة لتجلس إلى جانبك وتداعب بشعرها عنقك.

لقد استيقظنا مع الفجر، وأعددنا هذه الحقائب الثقيلة ، وقطعنا طريقا شاقاً طويلاً، وحرصنا أن نُقْبِل فى الميعاد تماماً، وها قد أشرفنا على المعتقل فرأينا منه أسلاكه الشائكة وحراسه المسلحين فانتظرنا لكى تحمينا من الصخر والرمل، ومن مخاوف السراب والأفق، ومن شرود هذا التيه. فنحن بدونك لن نُبَلِّغ أخبار الأخ إلى الأم القلقة فى المدينة بانتظارنا، ولن نجد ما نستتر به رأسنا عن وهج الشمس ، ولا من يدلنا على المنحنى التالى فى الطريق، ولا من يحمينا من قلق هذا الزمن وكآبته.

سياحة البطل

مؤمن عبد السلام عيد، استطاع أن يحصل على وظيفة كاتب بمصنع للدخان بمرتب شهرى قدره أربعة عشر جنيها، كما خطب إلى نفسه أخيرا فتاة استطاع إقناعها بأن تشاركه حياته، واسمها- على سبيل المعرفة - عنايات، لكنه ما لبث أن قال: وما فائدة الوظيفة وما فائدة الخطيبة إذا لم يكن لى بيت؟.

لهذا فى صباح كل يوم من أيام الجمعة، يوم عطلته الأسبوعية، يقوم كأنه ذاهب إلى عمله اليومى، يقوم كأنه يؤدى واجبه الدينى، يقوم كأن أمامه رحلة طويلة شاقة.

ونظر إلى الرجل الذى شاركه غرفته هذه الليلة. كان شخيره لا يزال يعلو وينخفض، ورائحة الريف تنبعث من ثيابه، وصياح الدجاج ورائحته تنتشر فى المكان. ففى مساء الأمس أقبل هذا الرجل يحمل أقفاصا من الدجاج، حين كان النعاس قد أخذ يتسلل إلى عينيه، وحين كان المكان قد هدأ إلا من صوت الأرانب التى يربيها صاحب الفندق وهى تقفز فى الظلمة وتحت السرير من حين لآخر. ثم جمعتهما الغربة والوحشة والظلمة المغرية الخبيثة، فمضى يدلى باعتراف كامل عن تاريخ حياته، وكيف تدرج حتى أصبح اليوم تاجراً للدجاج، وها هو ذا قد أقبل بهذه الأقفاص جميعها يرجو أن يبيعها فى سوق المدينة صباح اليوم.

وأمام باب الفندق كانت هناك نصف دائرة تنحنى نحوه، تتكون من زجاجات المياه الغازية المقلوبة، قد دُفنت منها رؤوسها فى التراب وبقيت بقية أجسادها متساندة منحشرة بعضها إلى بعض على هيئة نصف دائرة تنحنى نحو طرفَىّ الباب. وكان صاحب الفندق يقصد بذلك- فيما يظن —إلى زركشة المدخل العام وجذب أنظار العابرين وكان هذا هو —على ما نعلم- جهده الوحيد الذى بذله للإعلان عن فندقه العظيم.

وعبر نهاية الحارة، وفكر لحظة أن يقف عند مطعمه المفضل ليتناول شيئا يستعين به على رحلته الطويلة المقبلة خلال أزقة المدينة وشوارعها. لكن لم تكن له شهية على الإطلاق. وكان المطر قد هطل غزيراً فى تلك الليلة وتبقى منه الآن برك وأوحال مضى أطفال الحارة يتسابقون فى خوضها فتفاداهم وهو يواصل سيره. فقد كان يعرف اليوم إلى أين يتجه ولو فى الساعات الأولى من النهار، فقد كان عليه أن يمر بمنزل صديقه صلاح ليدله على مسكن متواضع عساه يروقه وتروقه عروض صاحبه. وكان مطلبه- كما يبدو من إخفاقه المتتالى- عسيراً للغاية، فهو لا يريد سوى مسكن متواضع بأجر متواضع، مسكن به يؤدى غرائزه الأولى: غرفة نوم وأخرى للاستقبال ومطبخ للطعام ومرحاض، كان هذا- فيما يبدو- عسيرا للغاية.

فما أن وصل إلى منزل صاحبه وعلا الدرج المعتم المتكسر، حتى طرق الباب طرقا خافتا متواليا، فقد كان يبدو كأنما النعاس لا يزال يملأ جنبات البيت. وحين أعاد الطرق من جديد، أعلى صوتا وأكثر جرأة، ترامى إلى سمعه وقع أقدام مقبلة ، فلما فتح الباب وجد نفسه أمام الزوجة الشابة وهى لما تزل فى قميصها الليلى، وكتفاها تبدوان مستديرتين ناعمتين. ولما لمحته تراجعت إلى الوراء قليلاً، وصاحت معتذرة: لا تؤاخذنى ، ظننتك بائع اللبن. ثم أذنت له فى الدخول.

ولقد رأى صديقه جالسا فى الردهة يتناول إفطاره. وبدا له أنه شخص متطفل يزعج الناس فى بيوتهم فى مثل هذا الوقت المبكر وفى يوم راحتهم الأسبوعية، لكن ما كان له أن يتردد، فاندفع وصاحبه يصيح به: تفضل يا مؤمن، فأنت لم تأكل بعد بلا شك. وأحس أن شهيته تتفتح الآن حقاً، لكنه ادعى أنه أفطر ، وتمتم متشكراً، وهرول متجها نحو غرفة الاستقبال ، لكن صديقه صاح من جديد يريده أن يجلس معه ويشاركه الحديث. وهكذا جلس أمامه، وهو يود لو ينتهى من طعامه سريعاً، فوجوده فى مثل هذا الوقت قد قيد حركات الزوجة قليلاً بلا شك، ولعله أزعجها حين رآها وهى لما تنفض عنها النعاس، وهناك البيت الذى يود لو يحصل عليه سريعاً. لكن إلحاح صديقك يا مؤمن وهدوءه وعدم اكتراثه لما بدا عليك من خجل، لم يدع لك مجالا للاعتراض ولا لإبداء شىء مما يعتريك.

- هل لك يا مؤمن فى سيجارة، ما أخبار عملك يا مؤمن، هل لك يا مؤمن فى قدح من الشاى؟

وكانت الشمس تنفذ من خلال النافذة، وصلاح يتناول القدح ويقدمه لى ، ثم يقذف نحوى بعلبة سجائره، وكان علىّ أن أرضيه فأطيع، فأنا اليوم فى حاجة حقيقية إليه وهو وحده الذى يمكن أن يكون واسطة بينى وبين صاحب البيت الذى نقصده. وحدثنى عن عملى، وحدثته عن طفله، وشرب قدحه من الشاى وشربت قدحى من الشاى، وتناول قدحا آخر ودخنت سيجارة أخرى، وقام يتحرك وشعاع الشمس يزداد اقترابا منى، وهو يغسل وجهه، وهو يختفى عنى، وأنا

وحدى فى الردهة، وزوجه تعبر أمام وجهى، وأنا أشتهى النساء وأشتهى حبيبتى، عارية بضة، وغرفة النوم، وغرفة الاستقبال، والمطبخ والمرحاض، وصديقى قد ارتدى بذلته، وأنا أود لو أستعجله، وهو يختفى عنى قليلاً ليداعب طفله ويودع زوجه، وأنا فى حاجة حقيقية إليه، حتى جرؤت أخيراً أن أصيح فيه قائلاً:

لقد آن لنا أن نخرج!

وفيم العجلة يا صديقى وأمامنا نهار كامل؟

لكنى لا أريد أن تضيع منا عبثا دقيقة من دقائق هذا النهار.

لا تخف ، لا تخف، فإن زوجى تعد لنا القهوة، فإذا شربناها خرجنا توا..

لكننا شربنا الشاى؟

ما رأيك فى سيجارة أخرى؟

فلما تناولا القهوة، خرجا إلى الطريق، فإلى طريق آخر فثالث. طريق بعد طريق. طرق بعضها متسع وطرق بعضها موحل. وكان عليهما أن يخوضا، وكان عليهما أن ينفضا الوحل وأن يستنشقا الوحل، ومؤمن يتكئ على ذراع صديقه بين حين وآخر، يتأمل رأسه أحياناً وعينيه أحيانا.

كانت بينهما صداقة طويلة عنيفة، فهو يتوجس منه، وهو يحبه، وكانا يحسان فى هذه اللحظة أنهما قد استنفدا كل شىء بينهما: تحدثا فى كل موضوع، وعاشا كل انفعال، ولا يزال كل منهما فى حاجة إلى الآخر، وصارا صامتين، يعبران بقايا الوحل، ويتفاديان دوائر الماء الضحلة، ومؤمن يبحث عن معنى يتألق فى نفسه أو خبر يثير من اهتمامهما أو أمل يصطنعانه معاً، فقد كان صمتهما الآن محرجا للغاية كأنما فيه حكم على ما يشوب علاقتهما من شيخوخة تحتاج إلى التجديد. وكان مشروعهما الذى يهدفان إليه الآن قد أدخل شيئا من الجدة على علاقتهما، وأحيا الرابطة التى بينهما. ولمحه مؤمن يتفرس فيه كأنما ليؤنبه على صمته، وأدرك أن صديقه ينوى ويمهد للحديث، وكان يود لو يحادثه، فعاونه على محاولته بأن تهيأ بوجهه لما عساه أن يقول، وقد صدق توقعه حين رآه يهمس:

فيم تفكر؟

- لا شىء..

- بل تفكر فى شىء.

أفكر فى شىء، بل بل أنا أفكر فى أشياء كثيرة، غير العلاقة التى بيننا، وأنا أعلم أنه يصر أن أحدثه، وكان لى- وأنا أعبر بقايا الوحل- أن أختار له موضوعا ما، فأجبته:

ـ فى البيت الذى نحن ذاهبون لرؤيته ..

ـ بل تفكر فى شىء آخر.

ـ بل هذا ما كنت أفكر فيه.

ـ بل فى شىء آخر.

وهكذا حدث ما كان يخشاه، فها هو ذا يحاول أن ينتزع شيئاً منه، شيئا من أعمق أعماقه، يخفيه هو عن نفسه، شيئاً غامضا لا يعرفه وربما لا يريد أن يعرفه، وهو يعتبر موضوع المسكن تافها لا يرضيه، عليه أن يختار له موضوعاً يقنعه أنه محور تفكيره.

وكان قد قرر ألا يذكر له كثيرا عما بينه وبين خطيبته عنايات، فيكفيه أن يعرف أمر العلاقة العامة، أما التفاصيل فهى شىء خاص به، وكان يعلم أنه كثيرا ما أغراه بالحديث عنها، لكن فى كل مرة يعود من عنده وهو يحس أنه قد امتلكه فلم يعد له سر خاص، وقد سلبه، سلبه بطريقة تهلكه تماما، فلما لاحظ صمته همس فى رقة: وكيف حال عناياتك؟

وابتسم مؤمن وتملكه إغراء أن يحدثه عنها طويلا طويلاً، لكنه كان يقاوم وهو يواصل هجومه:

– هل قابلتها بالأمس؟

ـ نعم، وهى على خير حال وتبلغك تحياتها.

نعم هى تبلغك تحياتها، وهو خبر ليس مختلقاً، إلا أننى ما ذكرته لك يا صلاح إلا عساه أن يرضى غرورك، راجيا أن تعدل عن مواصلة الحديث فى هذا الموضوع، لكن هذه الوسائل ما كانت لتجدى معك، فعلىَّ إذن أن أندفع فى الحديث، وأن أذيع آخر الأخبار، التى كنت قد قررت– كما قررت فى مرات كثيرة سابقة– أن تظل ملكى أنا وحدى.

* * *

فى النهاية وصلا إلى زقاق، والزقاق ينتهى ببناء، والبناء ضخم جديد لا يتفق والزقاق. وحين رأى مؤمن صديقه يتجه نحوه، لم يصدق ذلك أول الأمر ثم قال لعله ذاهب يستفسر عن شىء ، فلما أصبحا وجها لوجه أمام بوابه النوبى الضخم، أحس شيئا من الإشفاق والتهيب وهمس فى أذن صاحبه:

ـ هل المسكن الذى نبحث عنه موجود فى مثل هذا البناء؟

ـ بلا شك، وإلا فما معنى هذه الرحلة الطويلة كلها؟

ـ لكن مساكن هذا البناء من النوع الذى يعلنون عنه فى الصحف.

ـ لكن هناك مكاناً أعتقد أنه يلائمك. ألا ترى هذا الطابق الأرضى؟

ـ بل هو تحت الأرض.

ـ بل هو خير من مسكنى الذى أوشك أن يتداعى.

لكن هذا المسكن تحت الأرض، ومسكنك يوشك أن يتداعى، والبواب يُقْبِل نحونا، وصديقى يحدثه وأنا أتفرس فى سمرته، وفى النقوش المحفورة على خديه، فعلى كل وجنة أرى شكلاً هندسيا لخطين متوازيين، وهو ذو ثقة عظيمة فى نفسه، إنه يحس بأهميته وأننا الآن نعتمد عليه وعلى كل حركة وكلمة منه. وغاب لحظة، ثم عاد وبيده مفتاح من النحاس الأصفر مربوط إلى قطعة من الدوبار مع كمية هائلة من المفاتيح المختلفة الألوان والأحجام. وتقدمنا ونحن ننخفض خلفه بضع درجات. ثم وقف وتنحنح وبصق. وأدار المفتاح فى الباب. وكان علينا أن ننحنى قليلاً جداً ونحن نعبر الباب حتى لا نصطدم بأعلاه. وكانت رائحة الطلاء لا تزال تفوح من جنبات الجدران، وكانت الغرف ضيقة ومنخفضة ومعتمة ورطبة لكنها نظيفة جداً، مهيأة أكثر مما أرجو، فها هى ذى غرفة الاستقبال، وها هى ذى غرفة النوم، ومطبخ ومرحاض، وهنالك أيضا ردهة وحمام. كانت فيه الكهرباء وكانت تمتد خلاله أنابيب المياه وكان يكسو أرضه البلاط، وبنوافذه زجاج عليه طلاء أبيض كثيف يحول بيننا وبين أقدام العابرين فى الطريق وبين نظراتهم إذا شاءوا الانحناء ، وهناك أسلاك دقيقة الفسحات وقضبان حديدية بين الزجاج والأسلاك. وكان البلاط فى بعض الغرف مزخرفا، والجدران فى بعض الغرف مزركشة، وثمة صدى لوقع أقدامنا على بقايا الرمل هنا وهناك، وصديقى يتمتم: رائع رائع، ما رأيك، رائع، وأنا أفكر فى ضيق الغرف، فى عدد النوافذ، فى زواجى القريب ، فى صديقى، فى المطر، فى خطيبتى، فى صاحب هذا البناء، فى مصنع الدخان، فى الأجر الذى عساه يطلبه، وصديقى يتمتم: رائع رائع. فلما رأى صمتى، اغتنم فرصة ابتعاد البواب- وأحسبه قد ذهب يبول فى مرحاض بيتى الجديد- وصاح:

ـ الأمر لا يحتاج إلى تردد.

ـ انتظر حتى نرى كم يطلب أجراً.

دائما تعلق أمورك على شرط، هل أعجبك البيت؟

وظهر البواب من جديد ، فصمتا وكأنهما منشغلان بشىء آخر . ووقف البواب وقد عقد يديه كأنما ينتظر أمراً، وكأنما لمح ما على وجهيهما من إشفاق وتهيب. وكان إحساسه بأهميته فى هذه اللحظة قد ازداد، فتفرس فيهما لحظة واحدة لكنها ما كانت لتغيب عن أنظارهما، وكأنما شاب نظرته شىء من ريبة فيهما، فمال عليهما كأنما يوشك أن يدلى بسر خطير وهمس:

ـ هل تنويان أن تؤجرا هذا المكان ؟

ـ نعم نحن نفكر فى ذلك.

ـ وهل ستؤجرانه معاً؟

ـ بل سيؤجره واحد منا، صديقى هذا.

ـ وكم يستطيع أن يدفع ؟

ـ بل كم يطلب صاحب هذا المسكن المعتم الرطب.

إذا كان منخفضا معتما رطبا ، فاتركاه وعودا بعد يومين لن تجدا غرفة واحدة خالية فى هذا البناء كله.

ـ قلت لك كم يطلب؟

ـ لست أعرف على وجه التحديد، لكنكما تجدانه الآن جالساً بمقهى الأزهار بميدان الحرية ويحسن ألا تقابلاه مباشرة .

فقالا فى صوت واحد :

ـ لماذا ؟

ـ لأنه من الخير أن يكون بينكما وبينه وسيط فيؤجر لكما المسكن بأجر معتدل.

ـ لكننا لا نعرف أحداً من أصدقائه.

وجلس البواب على مقعده الخشبى ، خارج البوابة العظيمة تجاه السلم الرخامى، والساكنون الجدد يصعدون، والساكنون الجدد يهبطون، وهو يرفع عينيه من حين لآخر ليتم حديثه، وهما يصدقان كل كلمة مما يقول.

* * *

وكان المقهى يحتل زاوية عند التقاء الميدان بأحد الطرق المتفرعة عنه، ومساحو الأحذية منتشرون على طول الرصيف يلتقطون الداخلين كلما لمحوا حذاء موحلاً أو شبه موحل، وكانت أبواب المقهى زجاجية ، قد طليت عوارضها الخشبية بطلاء حديث أصفر، وعليها لافتات تحذر الداخلين من التلوث، فاقتربا من أحد هذه الأبواب يرقبان الجالسين.

كان رواد المقهى من سن واحدة تقريباً، يكادون يرتدون زيا متماثلا كأنهم تلاميذ فى مدرسة، وكان أكثرهم لا يسير باعتدال، بعضهم يسير كأنما قدماه صناعيتان، وبعضهم يخب كأنما له قدم أطول من الأخرى، وبعضهم يفسح ما بين رجليه كأنما به شىء من كساح أو كأنما هنالك مسامير داخل حذائه، ورغم اختلاف السن واختلاف الزى بينهما وبينهم إلا أنهما شعرا أنه من الواجب عليهما أن يعرجا قليلاً فى مشيتهما حتى لا يلفتا الأنظار. أما القائمون بالخدمة فكانوا يملكون

أقداما سليمة صحيحة، وكان الرواد جميعهم -بلا استثناء- يلعبون الشطرنج ويحتسون القهوة ويدخنون، وكأنما قسموا أنفسهم إلى فرق وأعلنوا السباق، كل يريد أن يصرع أخاه. كانوا منهمكين فى اللعب، وثمة صمت منتشر فى المكان كأنما هو رواسب حوار عميق وعظيم وغريب قائم بين كل اثنين قد اشتد التنافس بينهما، والداخلون يعرجون والخدم يذهبون، والخدم يجيئون ، وهما يتفرسان عساهما يختاران الشخص الذى يتوسمان حاجتهما فيه.

وكانا قد تسللا داخل المقهى، ودنا من ناحيتهما خادم أسمر بيده كوب ماء، فلما وضعه أمام أحد الجالسين وقفل راجعاً اقتربا منه ليستوقفاه، وتفرس مؤمن فى وجهه فإذا به نوبى أيضا وعلى وجهه نفس الشكل الهندسى: خطان متوازيان غائران فى وجنتيه. ورغم أنهما كانا يعرجان قليلاً فى مشيتهما إلا أنه أدرك على الفور أنهما غريبان، وحين أخذ صلاح يسأله لمح مؤمن فى عينى الرجل نفس البريق، بريق الإحساس بالأهمية كأنما هو ليس مجرد خادم بينهما وبين الذى يطلبانه. ولقد أخبرهما أن " البك" ليس موجوداً ولو أنه كان هنالك منذ لحظات إلا أن صديقه يونس بك لا يزال يجلس ويعرف أين يمكن أن يكون.

إذن فالرجل ليس هنا، ويونس بك هنا، ونهار كامل، بل أسبوع آخر يوشك أن يضيع عبثاً، وخطيبتى عنايات تدفعنى وصديقى صلاح يدفعنى، والفندق ذو الأرانب يدفعنى، ورحلتى هذا النهار، ووجودى فى هذا المكان وخطواتى التالية، كل ذلك لا يدع لى مجالا للاختيار، فعلىّ إذن أن أواصل كفاحى بقية النهار.

ودلهما الخادم على رجل فى نحو الأربعين ، رأسه تلمع وعويناته تلمع وبذلته السوداء تلمع وحذاؤه يلمع، من رأسه إلى قدميه. كان ينبعث منه بريق كأنما يبدو من خلال مرآة، وكان مهذبا للغاية، فقد كان يضع ساقاً على ساق فلما رآهما أنزل ساقه إلى جانب الأخرى، وأذن لهما بالجلوس، وسارع ينادى الخادم كى يقدم لهما شيئاً، ولاحظا رقعة الشطرنج أمامه، وكانت القطع السوداء فى جانب بينما اصطفت القطع البيضاء فى الجانب الآخر، وكان يبدو من وضع القطع أن اللعب قد بدأ حديثاً. وقد أدرك مؤمن فى الحال ما طرأ على فكر صديقه، فصلاح يود لو يجلس أمام يونس بك ويلاعبه الآن، ولا بأس أن يستمر اللعب ساعة وساعات إلى آخر النهار، عساهما يستطيعان أن يكسباه إلى جانبهما ، فلماذا لا يكون يونس بك واسطة بينهما وبين صاحب المسكن، وكان صلاح يجيد لعبة الشطرنج، أما مؤمن فهو لا يزال يتعلم المشاركة فى هذا اللون من الصراع. وقد حدث ما توقعه مؤمن، فإن صديقه صلاح لن يفاتح يونس بك فى المهمة التى أقبلا من أجلها، بل كأنما سعى إليه خصيصاً لكى يلاعبه الشطرنج، وبدأ يكشف له عن سعة معلوماته، ولكى يوضح له أنه رغم عدم إصابته بالعرج كأكثرية الباقين، إلا أنه لا يقل عنهم فى اللعب مهارة، وكأنما كانت كلمة الشطرنج هى كلمة السر بينهما، فما لبث أن صاح فيه يونس بك قائلاً: لقد جئت إذن فى وقتك المناسب أيها الرجل، فلقد غادرنى صديقى منذ لحظات، وكنت حائراً فيما يمكن أن أفعله الآن.

وجلسا وجها لوجه، وبدا التحمس على وجه صلاح، وأصر على أن يبدأ صف القطع من جديد بعكس يونس بك الذى كان يود لو يبدأ اللعب من حيث توقف، وكنت أتمنىّ أن تطرأ على ذهن صلاح فكرة خبيثة ذلك ألا يتحمس كل هذا التحمس وألا يخلص للعب كل هذا الإخلاص، بل يقدم هزيمته للرجل على سبيل الرشوة، لكنه فى الواقع قد اندفع لا يتنبه لشىء من ذلك، بينما كان مؤمن يرقب عقربىْ الساعة المثبتة فى أعلا الحائط أمامه.

وفى الساعة الحادية عشرة كان قد مات أول بيدق أبيض، وفى الحادية عشرة وثلاث دقائق مات أول بيدق أسود، ولا بد أن كلا منهما قد ضحى ببيدق من عنده ليستر وراء ذلك هجوما بعيدا. وفى الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق كان قد مات ثلاثة بيادق أخرى سوداء وثلاثة أخرى بيضاء، وفى الساعة الواحدة مات رخ الملك الأبيض وحصان الملك الأسود، وفى الساعة الثانية تذكر مؤمن أنه لم يتناول طعاما من الصباح حتى تلك اللحظة. وفى الساعة الثالثة والنصف كان رواد المقهى قد أخذوا ينصرفون، وفى الرابعة كان الرذاذ يطرق زجاج المقهى فى الخارج ثم انقطع، وفى الخامسة كان فيل أسود قد مات ، وفى السادسة إلا عشر دقائق قال يونس بك "كش ملك" وفى السادسة تماما كانت المعركة قد وصلت لحظتها الحاسمة وكأنما لم يعد الصراع أمام مؤمن مجرد قطع سوداء وقطع بيضاء، وفى السادسة وعشر دقائق مات رخ أسود، وفى السابعة إلا ربع كان مؤمن يجتر أشياء كثيرة عجيبة حول حياته ورئيسه ومستقبله وفتاته ومسكنه، أفكار يعيدها مرة بعد أخرى بلا نهاية فى دائرة مغلقة على نفسها كأنما يقضم أظافره، وفى السابعة إلا خمس دقائق كان المقهى قد ازدحم بالرواد من جديد وفى السابعة تماما قال صلاح " كش ملك" وفى السابعة والربع كان مؤمن يشرب فنجان القهوة السابع ويدخن السيجارة العشرين ، وفى السابعة والنصف إلا سبع دقائق مات الوزير الأبيض وبعدها بخمس دقائق مات الوزير الأسود مما أنبأ أنهما موشكان على نهاية هذا الصراع.

وفى السابعة والنصف تماماً لم يبق من القطع السوداء إلا الملك وأربعة بيادق بينما تبقى من القطع البيضاء الملك وبيدقان وحصانان ورخ الملك، وبهذا أصبحت نهاية الملك الأسود معروفة ومحتومة، فبعد ثلاث نقلات سيموت لا محالة ، وبهذا أصبح صراع الأسود مع الأبيض صراعاً لا جدوى من ورائه.

وبدا على الرجل أنه لا يقبل الهزيمة، وأنه يود أن يبدأ من جديد، وهما يحاولان إيجاد طريقة للخلاص، حين شاهدا يونس بك يرفع بصره نحو رجل مقبل ضخم الجثة يسير على مسندين، فلا بد أن ساقيه صناعيتان، ولما أصبح أكثر اقترابا وقف يونس بك باحترام شديد، مما اضطرهما أن يقفا معه ـ وبنفس الاحترام ـ بدورهما، وأقبل الرجل الضخم محييا يونس بك، وقدمهما إليه يونس بك بغير أن يقدمه لهما ولا أن يذكر اسمه، فيبدو أن الرجل كان من الشهرة بحيث افترض فيهما يونس بك أنهما لا بد يعرفانه من قبل، وقد لمحا ساعته الذهبية

وسلسلتها التى تهبط. من جيب داخلى، وعرفا فيه صاحب المسكن الذى جاءا يطلبانه، وظل الرجل واقفا بضع دقائق فظلا واقفين معه، فلما جلس ومرت نحو نصف دقيقة أذن يونس بك لنفسه أن يُجلِس معه مؤمن وصلاح، وسمعاهما ينهمكان فى الحديث.

ـ وماذا قال محاميك؟

ـ ليس أمامه إلا أن يرفع الأمر الى القضاء.

ـ إذن فلم يترك الرجل المسكن ولا يريد مغادرة المكان.

ـ بل لا يزال يصر ويرجو.

ـ آه قصة زوجته وأطفاله، والرصيف والسماء.

ـ وقصة المال الذى سيأتيه ولا يأتيه!

ـ والوسطاء الذين يرسلهم وراءك فى كل زمان ومكان!

وهنا انحنى الرجل الضخم وهمس فى أذن يونس بك :

ـ أظنهما وسيطين.

ـ بل يريداننى وسيطاً بينك وبينهما.

قالها يونس بك ضاحكا، لكنه ما لبث أن دُهش حين أخذنا نوضح الأمر، وكنا متحمسين للغاية، فليس هناك مجال للخوف أو الخجل، حدثه صديقى عن وظيفتى وحدثته عن مرتبى، حدثه عن اسمى وحدثته عن اسم خطيبتى، حدثه عن حبى وحدثته عن زواجى، حدثه عن الفندق الذى ترعى به الأرانب وحدثته عن أصدقائى وأحلامى، والرجل يستمع إلينا، وأنا مدرك أنه قد يطردنى ذات يوم من مسكنى الذى لن أملكه، حين يكون لى زوجة وأطفال ولا مأوى لهم بعد ذلك إلا الرصيف والسماء.

ـ وكم تريد أن تدفع؟

ـ خمسة جنيهات.

ـ بل سبعة جنيهات.

ـ لكن هذا نصف مرتبى.

ـ لكن المسكن سيظل خاليا ولن يؤجر لك إلا بهذا الأجر.

وفى الساعة الثامنة وخمس دقائق أعلن يونس بك أنه يريد نفس هذا المكان مخزنا لبعض بضائعه. عند ذلك فقط أدرك صلاح أنه كأنما أخطأ بانتصاره، وأنه سلك إلى نفسية هذا الرجل طريقا عكسيا فأبعده عنه بقدر ما كان يريد أن يقربه إليه.

وبينما هما خارجان، التفت صلاح إلى مؤمن وقال هازئا:

- لقد بدا عليه الغضب كأنما أخطأت بانتصارى، كأنما ليس من حقى أن أنتصر.

* * *

ولقد هبط المساء الآن والسماء توشك أن تمطر من جديد. وعليك أن تعود يا مؤمن إلى الفندق، حيث تحس كأنما أنت قادم من سفر وكأنما أنت على أهبة سفر جديد، ستجد زجاجات الكازوزة المقلوبة، وترى صاحب الفندق وهو ما يزال يبصق ومن حوله الأرانب تقفز. وستدخل غرفتك وتضىء النور لتشم بقايا رائحة الدجاج وترى من عساه يشاركك غرفتك هذه الليلة، ثم تجمعكما الغربة الموحشة والظلمة المغرية الخبيثة، وتحصل على اعتراف جديد.

بل ستعترف أنت الليلة لزميلك الجديد، ستروى له كيف كافحت حتى أصبحت كاتبا بمصنع الدخان، وكيف كافحت حتى تعرفت على عنايات، وخطبتها إلى نفسك، ثم تخبره أنه لا بيت لك، قل له إن بيتك فى المقهى، وفى الطرقات، وفى سينما المدينة حيث يعرضون عليك منازل فخمة، وبيوتا رحبة واسعة، ذات حدائق وذات أثاث بلورى، لها غرف كثيرة، وأبواب، ونوافذ، وفيها أطفال وفيها حفلات، قل له إنهم يهدمون فى المدينة كل منزل منخفض، ويخططون كل أرض فضاء، ثم ترتفع منازل ضخمة عالية رائعة الهندسة متعددة الحجرات كقصور التيه، ذات نوافذ كثيرة وشرفات كثيرة وأبواب مغلقة كلها فى وجهك.

فإذا صحا الصباح ستذهب إلى عملك حيث تلتقى بصديقك صلاح، ثم تنحنى ظهرا على منزل خطيبتك حيث دعتك لتناول الغداء، لا تنتظر هذه المرة للأسبوع المقبل، فلتواصل بحثك غدا وبعد غد وبعد بعد غد. اغتنم كل فرصة وكل دقيقة، اقرأ إعلانات الجرائد جميعها وسر بطرقات المدينة جميعها واسأل من تعرفه وتعرَّف على مَنْ لا تعرفه، واجمع حولك كل مِنْ لا بيت له. فأنت بطل من أبطال هذا القرن، لأنك استطعت الحصول على وظيفة والحصول على حب، ولا بد لك - وللآخرين - من الحصول على بيت.

هذيان

نجوى هو اسم الفتاة التى أحبها، وديعة وجبانة، مثقفة ولا لباقة فى تصرفها، وذات جسد جميل، وأنا أعرف أننى إنسان ملعون، فقد شاهدت أهلها ذات يوم وقد صبغوا وجوهم بالنيلة وهم يلطمون . وأنا فى حاجة إلى خمسة مناديل وجوربين ومجموعة محاورات أفلاطون . وهذه موسيقى شهرزاد لريمسكى كورساكوف .. لا تزال فى نفسى أصداؤها، فقد كان يُحكى أن ملكا اسمه شهريار وجد امرأته تخونه مع عبد أسود فقتلها وجعل يتزوج كل ليلة بامرأة وفى الصباح يقتلها .

ووضعت أمه الضمادات المثلجة فوق جبهته، وبذل جهداً هائلاً كى يعود إلى الواقع، كى يتشبث بأطر الصور الموضوعة على الجدران وفوق الرفوف فلا تعود ألوانها تتمايل . وحاول أن يحتفظ أكبر وقت ممكن بالمعالم الدقيقة لوجه أمه.. حتى استطاع لحظة أن يعى بشعرها الأبيض المحلول وبالدموع التى اغرورقت بها عيناها وبالضوء، ثم أحس أشياء هائلة تتحطم فوق ظهره، وأضواء تبرق وتتلاشى فى الظلمة المفزعة، وهذا الضجيج العربيد يرتفع من أسفل حيث أصوات المدينة الصاخبة تستحيل إلى عواء. وعاودته النوبة من جديد، وسرت فى جسده موجة من الحرارة والقشعريرة، فأحس بحاجته إلى التقيؤ بغير أن يتقيأ ، وكأنما هنالك قوى شيطانية تنبعث من أعماق الجحيم تجذبه من العالم الخارجى حيث المدركات ثابتة وواضحة ومنظمة إلى ضجيج داخلى فظيع لا يمكن تحديد مصدره فى دقه .

وامتلأت الغرفة أمامه بالبطيخ، من الأرض حتى السقف، حتى كادت أنفاسه تختنق. وكان البطيخ يزدحم فى الركن الشمالى من الغرفة ثم يتفرق فى خطوط مستقيمة وأخرى منحنية، ثم أخذ البطيخ يتدحرج فى سرعة جنونية واشتبك فى معركة خفية. ووقف مذعوراً يركل

غطاءه ويرتعش . واقتربت منه أمه العجوز واحتضنته قائلة : مم تخاف يا ابنى ؟ أنا أمك بجانبك . وظل متشبثا بها وهو يحدق فى البطيخ الذى يملأ كل مكان ويتدحرج الآن فى تباطؤ وتلكؤ .. حتى خارت قواه، فعاد من جديد إلى الظلمة والدوى العربيد .

وكان رأسه يكاد ينفجر، وخشى لحظة أن يصبح مجنوناً، أن يدخل هذا العالم المزدحم بالبطيخ المتدحرج فلا يعود .. وصرخ ، وقام من جديد يركل غطاءه وهو يتوجه نحو النافذة صائحاً.. أضيئوا الأنوار .

ومن قبل راقب بنيلبوب وقتا طويلا وهى تتعلل بمغزلها الذى لا ينتهى لأنها كانت تنقض فى الليل ما تفعله فى النهار، وشاهد بياتريس وهى تستقبل دانتى صاعداً من جحيمه بعدما عبر المطهر مع فرجيل، ثم تقوده خلال السموات التسع حيث أعشى بصره نور الله فعجز أن ينظر إلا فى عينيها، وعرف جان ديفال وهى تعذب بودلير عذابات سوداء لا نهاية لها .. وكان قد جاء دوره هو ، بطل مجهول بين ملايين الأبطال الذين يتعذبون فى صمت، وليس لديه شاعر يذيع بطولته فى أنحاء الأرض .

وكان قد جاب أنحاء الأرض، زار إيطاليا حيث تعرف بجرازييلا وقضى معها وقتا طيبا، ثم مر بروما وشهد لوحة العشاء الأخير، وزار ألمانيا حيث نزل ضيفا على هنرى ومعشوقته مرجريت ووقف وجها لوجه أمام نفرتيتى ، وبعد الحرب الأخيرة زار باريس وشاهد لوحات سيزان ولوحات بيكاسو الأخيرة، وفى دار الأوبرا رأى كاليجولا يتصارع مع حريته، وعرج على جنوب الهند، وعاد أخيراً من نيويورك حيث صعد فى ناطحات السحاب وجاب الأحياء الخلفية المظلمة الرطبة. ثم صاح مرة أخرى : أضيئوا الأنوار .

ذلك أن الغرفة فى ذلك الوقت كانت قد ازدحمت بنساء متكورات كالبطيخ، وكانت النساء البطيخ متلفعات بالسودا يجلسن طبقات بعضهن فوق بعض، من الأرض حتى السقف وهن يتثاءبن ويتنهدن كأنما انتهين لتوهن من مناحة كن يعددن ويولولن فيها، وزعق فيهن عسى أن يجفلن او يختفين فلم يزددن إلا تعبا وتراخيا. وود لو يهرب منهن، فقام يحاول أن يشق طريقه نحو الباب .

وكان الباب مغلقاً، ورأى الطبيب يدخل من خلاله، ثم جسه وخرج، واختفت فى أثره النساء البطيخ. ورأى من النافذة قبة السماء الداكنة الزرقاء تلتمع فيها النجوم،فأدرك أن الليل هبط. وسمعهم فى الخارج يتهامسون ، وحدس أنهم يعدون له نعشاً، صندوقا طويلا له أحرف مذهبة وفوقه زهور صناعية بيضاء.. هناك حيث تربض نهاية العالم. وشيئاً فشيئاً أخذت تستيقظ أمامه معالم الغرفة، رأى أولاً زجاجات الدواء القاتمة الموضوعة على أسفل الرفوف من الجهة الشمالية، ثم شاهد بلاط الغرفة وفى وسطه بقعة كبيرة حمراء كالدم، ولمح مقعداً خالياً، وبقعاً سوداء فى أعلا الجدار أمامه، ومنشفة بيضاء ملقاة على الأرض، وطنين حشرة لا يعرف

مصدره.. ثم اهتزت الصور والجدران، والمقعد والرفوف، والنافذة والباب، والأرض والسقف، وأحس آلاما جبارة كأنه امرأة تعانى المخاض، ثم نضح العرق غزيراً من جبهته ومن كل جسده، وعاد كل شىء يستقر .

وكان قد قرأ عن الراقصات المقدسات فى معبد أنيانيس وفى معبد أفروديت بشبه جزيرة كورنث حيث يهبن أنفسهن فى الأعياد نيابة عن بنات جنسهن. وكان ينشد بُنَّية مضت تحرر جنسها وتحمل لهن الخلاص من الموت الذى يتربص فى كل لحظة بهن، مثلما فعلت شهر زاد لبنات جنسها فأصبحت بحق نبية الأساطير فى الشرق. وفى سن التاسعة عشر عثر فى زاوية صغيرة على امرأة صغيرة.

وكانت نجوى تجوب طرقات القاهرة تبحث عن نبى بين الرجال، عن الفارس الذى سيهدئ من ثورة العالم مستلهما من صدرها الحنون. ففى ذلك الوقت- كما فى أيامنا - كان الحب والكره يتقاتلان فى صدور الرجال والنساء وفى المصانع والميادين وفى كل أنحاء العالم، فاقترب منها وسألها عمن تبحث؟ ورأت فى وجهه ما يشبه شفتىْ نبى، وحدثها عما إذا كانت تعرف الطريق إلى الراقصة المقدسة فى هذا المكان من الأرض، وجعل يصفها لها كأنه رآها من قبل ، حتى تبلورت الفكرة فى جسدها فسألته عما إذا كانت هى لا تشبهها فى شىء. أما هو فكان قد قتل روح النبوة فى نفسه، فقد روح النبوة التى استلهمها ذات يوم من هاملت ودون كيشوت، ومات من أذنيه تصفيق الجماهير وضرب على نفسه حصاراً حتى لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه ولا الجلوس.. ورقصت أمامه نجوى أحياناً فى الظلام وأحياناً على ضوء أحمر بوهيمى، حتى أخذت تسرى إليها عدواه .

ولقد تكشفت نفسه شيئا فشيئاً أمام نجوى، وتركته يكشف عنها شيئاً فشيئاً، وارتعش وارتعشت، واستاءت منه فاستاء منها، ثم ضمتهما قبلة طبعتها الشفاه القرمزية ورأتها العيون النجل فى الليالى السود، وأمسى الجسد الإنسانى البكر وسيلة عظمى من وسائل المعرفة ، وفاحت رائحة العسل ، وتقطَّر الندى من السماوات المزدحمة بالنساء الشجر .

وكأنما كان جسده يحترق فى أتون. وارتفع ضجيج المدينة وصوت مصانعها الحية النابضة. ولمح وجها ميتا، ورأى أسنانها بيضاء بارزة بين شفتيها الصفراوين، وتكشفت له جبال الألب عن ثلوجها، ورأى الجن تعقد عيدها السنوى فوق قمة جبل بروكن، وتدحرج البطيخ من جديد، وفتح عينيه يحملق باحثا عن المرئيات الواضحة المتميزة حيث للأشياء حدود لاتتعداها ، وهاربا من الماضى والعالم الداخلى المتضخم فى حرية خطرة .

ومنذ ثلاثة أيام ، وفى الحديقة المظلمة الخلفية، وراء شجرة الجميز الكبيرة، غمس خنجره فى دمها ثم فى دمه، وكان يمكنه أن يستخدم وسيلة أخرى، غير أنه أحب أن يرى قطرات الدم تقطر منها ومنه كأنما انبعثت فيه همجية العصور جميعها وقداستها .

وعندما أقبل القوم فى الصباح غمغموا قائلين : حبيبان منتحران. وكانت هى قد ماتت وتركته طريحا على الحشائش يشاهد أهلها وقد صبغن وجوهن بالنيلة وهن يلطمن ، ثم غاب فى فراغ لا يسمع فيه وطء قدميه .

ذلك أنه ذات يوم فى الخريف، حين بلغ الحادية والعشرين تشاجرا وأهانها وقبلته ثم هربت منه. ومنذ أسبوع واحد شاهدها تعود . فانتابه فرح شيطانى لأنها لا شك الآن قد عرفت كل موطن فى جسد الرجل، وخبرت كل إحساس نسائى، وأعطت للرجل كل ضرب من ضروب اللذة وما يشتهيه، وأعدت نفسها للرسالة التى حدثها عنها ذات يوم. فلما أقبلت قصت عليه كيف حملت منه، ولم تستطع أن تجابه الناس بعارها فهربت وألقت بولدها فى اليم، مما ذكره بما فعلته مرجريت معشوقة هنرى ذات يوم .

إذ ذاك أدرك أنها لم تستطع أن تجعل منه تلميذا، فليست لديها أصالة النبوة، ولا تزال تحلم بنبى من الرجال، وهذا أمر قد أصبح مستبعدا ولا ضرورة منه، فالنساء كن الجنس المستعبد فى تلك الأيام ومنهن ستنبثق روح الثورة والإلهام. فأحس خيبة هائلة وتقاتل الحب والكره فى أعصابه ودمه وقرر أن يرضيهما معا، ثم عاقب نفسه على ما فعل .

ولقد مر عليه ثلاثة عند الفجر، وكان هؤلاء هم أصدقاؤه : أحدهم طالب طب والآخر بائع اللبن، وربما كان ميفوستوفيلوس ثالثهم. فوجدوا أمه تقول- والدموع تنهمر من عينيها —إنه فقد صلته بالعالم الخارجى منذ الليل .

وكان يهدد المدينة فى ذلك الوقت فيضان كبير من ناحيتها الغربية، فظل العمال ساهرين يقيمون الجسور على طول الشاطئ ويراقبون مواطن الضعف لئلا تتدفق منها المياه، وكانت الجزيرة المقابلة فى النيل قد غرقت فنزل فلاحوها يخوضون ويجمعون بقايا حصادهم الأخير قرب الماء إلى إحدى القرى الجنوبية حيث تزاحم عليها البعوض والهوام .

ولمح الباب المغلق، حيث يعتقد أن طريقه إلى الحرية هناك فود لو يختم حياته بعمل عظيم: أن يتخلص من هذه الجدران الأربعة ومن رائحة العرق وينطلق إلى الخارج باحثا عن خطر جديد. حين لمح المقعد الخالى، فحدس أنها ستُقْبل هنا بعد دقائق، وتجلس على هذا المعقد فى ثوب عرسها الأبيض الشفاف ثم تقوده خلال السموات التسع . وكان يحسب أنه قد نسى، غير أنه أدرك أخيراً أن الملك شهريار كان يذكر زوجه الأولى الخائنة فى كل مرة يقتل فيها امرأة جديدة .

وشم رائحة نتنة، وخيل إليه أن الجرح الذى فى جسده ولا يراه قد ازدحم الآن بالدود، فقد أحس به يرعى فى طمأنينة وبلا عجلة. وانزعج أن يرى نفسه يتعفن ولما يزل به رمق من الحياة. ومد يده فى خفة وحذر يتملس موضع الجرح، لكن يده ضلت طريقها ولم تستطع العثور أبدا عليه، غير أنه كان واثقا أن النار والدود يرعيان الآن فيه، وأنه يمتد شيئاً فشيئا

ويزحف على بقية الجسد. وتعالى من حوله ضجيج حاول أن يعرف أين هو منه. فرأى آلهة الأولب يقيمون حفلا صاخباً فوق قمة جبل البرناس، وكانت هناك هيلانة وباريس وبرسيفون ومانتو ابنة اسكيلاب إله الطب وهى تطمئنه قائلة : إننى أحب من يطلب المستحيل .

وكانت أنفاسه الآن تحترق، وأحس أن الدم ينزف منه بغزارة، ومن قبل كان قد صارع كل لذة وكل ألم، وعرف دفء المرأة وشراستها، وضعفه هو وقوته. وبلغ اليوم سن الرجولة والنضج بعد ما تزود بتراث العالم وحضارته، وخبر الناس ومعاملاتهم ، وتجاذبه الحلم الواقع .. وكانت الظلمة التى تحجب كل شىء أمام عينيه لا تزال تفزعه، فغمغم فى صوت خفيض متعب : أين الأنوار ؟.

ورأى طفلاً - ربما كان طفله الذى لم يره ولن يراه - ذهبى الشعر أزرق العينين قاتم الأهداب كأنه حلم عذراء شرقية ليلة زفافها ، يقف وسط الغرفة وفوق بقعة الدم العظيمة ويمسك بوقا فضياً كبيراً بين يديه ولا صوت يخرج، غير أن الغرفة تمتلئ بالهواء، وتمتلئ حتى لا تقوى حيطانها على الصمود، فتتناثر أجزاؤها وتهوى فى الفراغ .

فى هذه اللحظات أقبلت أمه تداعب شعره وتقول : لا شك أنك تحسنت الآن، ففتح عينيه ورآها وهز رأسه وابتسم ، ثم أغلقهما ربما إلى الأبد .

جسد من طين

كانت ليزا قد بدأ يضعف أملها فى الزواج، فقد رأت صديقاتها يتزوجن الواحدة تلو الأخرى وهى تعبر ربيعها الواحد تلو الآخر حتى هذا الربيع الثامن والعشرين بغير أن يتقدم أحد لخطبتها.

وكانت ليزا تعلم أن وجهها ليس جميلا، لاسيما منذ أصابها ذلك " الجدرى اللعين " فترك على وجهها ندوبا شوهت منه كثيرا، لكنها كانت تؤمن إيمانا راسخا بجسدها، وكثيرا ما تحس الاحتقار نحو صديقاتها لأنهن لا يملكن ما تملكه هى من الجسد ، وترمى الشباب بالبله والغفلة لأنهم لا ينتبهون إلى جسدها الذى تحسه لدنا دافئا كلما احتواها فراشها فى ليلة باردة، فتتمتم : ما أسعد الرجل الذى سيضمنى إليه .

ولم تكن ليزا قد عرفت الحب ، ومع ذلك فإنها كانت قد تعودت أن تحلم بأشياء عجيبة مرهقة لا يستطيع أن يتخيلها أحد غيرها ، فكانت تستطيع أن تحلق بجسدها الغض الرائع فى قصور ذهبية أو إلى جنات سحرية حيث تجول دائما وفى اهتمام كأنما تبحث عن كنز ، حتى تبهر أنفاسها ويضطرب جسدها .. جسدها كله وهو يحلم معها فى وعى عنيف وتستيقظ ثائرة من حلمها لأن هذه الأفكار المخيفة تملأ قلبها ، وتستطيع أن تزورها من حين لآخر ، فتقرأ فى كتابها الدينى ما هو كفيل بأن يطرد الشيطان .

لكن شابا صغيرا كان قد بدأ يصاحبها فى هذه الرحلات البعيدة المرهقة، طالب من طلبة الطب، سكن حديثا غرفة تطل على غرفة نومها، كانت تلمحه يسارقها النظر وهى مستلقية فى استرخاء على فراشها نصف عارية ، أترى جسدها الرائع قد أثار اهتمامه وخلق فى نفسه أحلاما عجيبة سحرية كالتى يخلقها لها ؟ ومنذ أيقنت أن الطالب متنبه لوجودها بدأت تحس أن

جسدها يزداد جمالا يوما بعد يوم ، وقد كانت ليزا فتاة متدينة جدا ويؤلمها أشد الألم أن تجول برأسها مثل هذه الخواطر ، وكانت تُطَمْئن نفسها أن المسألة لا تعدو مجرد فكرة فى لحظة ضعف ـ لكن جسد ليزا كان جميلا حقا وقويا حقا ، وكانت له مطالب حُرمها بسبب وجهها . .

وقد جاء محيى إلى العاصمة حديثا ، فر من هذا الجحيم الذى كان يحياه فى سوهاج، وكانوا يحدثونه دائما بأنه واجد فى القاهرة مرتعا للذاته وتحريرا من كل ضغط أو قيد .

وقد أقبل إلى القاهرة ، غريبا وحيدا ، وهو يخجل أن يقول لأحد إن الأسباب القوية التى دعته أن يلتحق بالطب هى أن يتمتع برؤية أجساد النساء عاريات ، فقد حدث أنه بلغ العشرين ولم ير أنثى عارية أبدا ، ولا يزال يذكر ابنة عمه الحسناء وكيف استطاع طبيب المركز أن يفوز فى لحظة برؤية جسدها البض الطرى الذى يشتهيه، وهو ما ظل يحلم به عبثا أعواما طوالا فجاء العاصمة كالذئب النهم ، يبحث له عن فريسة فى أى مكان ، وكان قد أقنع نفسه منذ زمن طويل أنه بهذا يريد أن يعبر مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة ، كما كان يؤلمه إحساسه أن حياته حلم طويل طويل لا فعل فيها .

وقد كانت أول رؤيته لليزا على سبيل المصادفة ، لا بل نتيجة طبيعية حتمية بعد هذه الممهدات التى تجعل من رؤيته لها عملا مقصودا ومطلبا له من ورائه غاية . كان قد جاء غرفته الحديثة ذات ليلة فوجد الهواء خافتا غير نقى ، ففتح النافذة على مصراعيها ..

واندفع نسيم بليل ملأ به رئتيه ، لكن ضوء القمر الناعم الندى لم يكن يستطيع أن ينفذ داخل الغرفة ، واشتاق محيى أن يراه فأخرج رأسه يتقبله .. ولفتت نظره هذه الغرفة التى تطل عليها نافذته ، فقد كان ثمَة شبح لامرأة تتقلب على سرير فيها ، وكان ضوء القمر الباهت يغمر جسدها وهى ترتدى غلالة شفافة ، وكان هذا حدثا خطيرا فى حياة محيى، فتلك أول مرة يرى فيها امرأة نصف عارية ، وكان الضوء ناعسا لا تكاد تبين فيه المعالم ، فحاول جاهدا أن يكمل الصورة من خياله الخصب ، حتى أحس غرائزه تثور ، وقد تكررت بعد ذلك هذه "المصادفات" بينما كانت ثمة معركة ترهق ليزا وأحلامها ، فقد بدأت تحس بوضوح وجود ذلك التناقض بين مطالب جسد من الطين وما يتطلبه خلاص روحها واستمرارها نقية طاهرة ، وكان جسدها دائما ينتصر ، لكن ثمن فكرة ، كانت صغيرة تافهه أول أمرها : ذلك أن الشيطان قد اختار هذا الشاب لإغوائها. هذه الفكرة بدأت تتضخم حتى أصبحت كالحقيقة فى نفس ليزا ، ومع ذلك فإن ليزا كانت تشتاق أكثر وأكثر إلى أن تهب هذا الشيطان جسدها، حتى أصبح هذا الاشتياق مزمجرا عاليا لدرجة أنها تفزع منه إلى آياتها المقدسات تلتمس الخلاص.

ورغم أن محيى تبين وجهها المجدور وأسف لهذا بعض الشىء، إلا أنه رأى فى ذلك ما يجعل الجو أمامه خاليا يعينه على أن يحقق الفكرة التى بات يحلم بها ويأمل فيها حتى أصبحت مُلِحّة مرهقة تدفعه دفعا كى يحيلها إلى فعل .

ولقد حدث أن فاز بها ، قاومته أولا ثم حدثته عن الحياة وكيف أنها واد للشقاء والدموع، وكيف أن للجسد مطالب وللروح مطالب تناقضها ، وأننا يجب أن ننتصر فى هذه المعركة مهما تألمنا، أن نقضى على شهوات البدن ورغائبه ونسمو بالروح ونطهرها، ورأت الدهشة فى عينىّ الطالب ، وخافت أن يقتنع بما كانت تقول ، ثم رأته يسخر منها وهو يحاول أن يلمس جسدها، جسدها الجميل الذى أخذ يقشعر الآن ، وأحست أنفاسه الحارة تلفح وجهها المجدور ، لكن يده كانت تقترب من جسدها .. اللدن .. الشهى .. وراودتها الفكرة المزعجة ، أنها أمام شيطان متجسد ، فخافت لحظة ، ثم سألته وهى تريه أنها تبتعد : لماذا لا تعانى أنت الآخر ؟ قال : لقد كانت ثمة معركة صغيرة قضيت عليها، لكنها لم تكن بين مطالب جسد ومطالب روح، بل بين مطالبى أنا ومطالب المجتمع ، ولقد رأيت مطالب المجتمع قاسية ظالمة ومطالبى أنا عادلة لذيذة ! فانتهت المعركة . واقتربت منه ليزا ، وهى تحس أن رغباتها الهائلة العنيفة التى يخفيها المجتمع فى قسوة مع جسدها الجميل خلف ذلك الوجه المجدور قد آن لها الآن أن تنفجر من عقالها .

لكن ليزا لم تستمتع فى هذه الأمسية كما استمتعت فى الأمسيات السابقات ، أحست كأنما صدمت رأسها الصغير بحائط هائل ، وأن عليها أن تترنح الآن . وشعرت أن الشاب الصغير أذلها ، وحاولت فى عبث أن تفهم لماذا لا تكون هى التى انتصرت ؟ أما حققت ما كانت تبغى ؟ ثم ضميرها ، ضميرها الذى أرقدته حين ثار جسدها قد عاد الآن من جديد يسحقها ولا يكاد يرحمها ، ثم المجتمع —ماذا لو حملت جنينا ؟ ماذا لو عرف أهلها وصديقاتها ؟ ووجدت نفسها تتحطم ، وما عاد لها القدرة على أن تحلق من جديد أو ترحل نحو هذه الأراضى السحرية البعيدة بل أصبحت كطائر قُص جناحاه كلما حاول أن يطير عاد إلى الأرض من جديد ، وأزعجتها هذه الفكرة المخيفة : أن الشيطان قد أفلح فى إغوائها فتلوثت روحها الطاهرة كما تلوث جسدها الدافئ البض.

وفتحت ليزا نافذتها فى جنون تنادى على محيى بصوت مبحوح وعيناها واسعتان من الخوف. كانت تريد أن تتأكد من شىء يزعجها الآن، بل يجنُّها، لكن نافذة محيى كانت مغلقة والسكون الرهيب لا يريم عنها. وجحظت عينا ليزا وأفزعتها الفكرة أكثر وأكثر مما أفزعتها فى أى وقت آخر. وبدأت تتيقن أن الذى ضم جسدها الرائع هذه الليلة لم يكن إنساناً، بل روحا خبيثة مضت إلى عالمها بعدما أغوتها. وأخذت تنبعث فى نفسها كل ما سمعته فى طفولتها من أساطير وقصص عن شياطين أفلحوا فى إغراء عذارى أمثالها، فمضت تبكى وقد أمست على يقين أن الشيطان أصبح له الآن حق فى أن يشاركها غرفتها.

وفتحت ليزا نافذتها مرة أخرى ونادت على محيى للمرة الأخيرة لكن النافذة كانت لا تزال مغلقة. وعندما بحثت فى كتابها الدينى لم تستطع أن تهتدى إليه، أما الآيات التى استطاعت

أن تذكرها فما كانت إلا لتزيدها إحساسا بثقل الخطيئة التى ترزح الآن تحتها. ولقد حدث قبيل الفجر أن ألقت ليزا بنفسها من النافذة.

أما محيى فقد أمضى ليلته محتفلا بنشوة هذه الأمسية، وعاد إلى غرفته قبيل الفجر. وفى الصباح علم بما فعلته ليزا، فأسف لهذا بعض الشىء، لكنه كان واثقا أن التهمة التى طالما وجهها إلى نفسه وهى أنه دائما يحلم ولا يستطيع أن يفعل، قد انتهت منذ تلك الليلة الرائعة.

كل ما قاله وهو يحزم أمتعته لينتقل إلى غرفة أخرى: ما أسخف المعركة التى تنتهى فى نفس إنسان بمثل تلك النهاية. ثم مضى يحزم أمتعته أسفاً لأنه لن تتاح له فرصة أخرى كى يضم إليه جسد ليزا. لكنه كان واثقا أنه انتقل أخيراً من حياة الحلم إلى حياة الفعل.

زوجى

طبقا للتواريخ التالية

٥ من إبريل

كنت أسير بالأمس مع زوجى، حين قابلت زينات، ولم أكن قد رأيتها منذ خمسة شهور-أى منذ زواجى ـ فاستأذنت زوجى، ووقفت معها بضع دقائق أسألها عن حالها وصحتها فعلمت منها أنها لا تزال تشتغل بالتدريس، وأنها كانت قد خُطبت ثم فسخت خطبتها، وطلبت منها زيارتى فاعتذرت بكثرة مشاغلها، والواقع أننى لم أكن جادة فى دعوتها، فلم تكن لى بزينات علاقة وثيقة فى يوم من الأيام. ولست أذكر أننى ذكرتها فى هذه الأشهر الخمسة يوماً ما.

لكن عندما عدت أسير إلى جانب زوجى، رأيت على وجهه بعض الشحوب، وهو يسألنى فى استياء: هل تعرفين هذه الفتاة منذ زمن طويل؟ فأجبته بأنها كانت زميلتى فى الدراسة يوماً ما. فقال فى حدة لم أعهدها فيه: أرجو ألا تطيلى الوقوف مع من تقابلينهن فى الطريق وأنا سائر معك.. فسألته ، لمجرد الحديث ولتخفيف حدة هذا "الرجاء" : يبدو أنك تعرفها؟ فأجاب لدهشتى: نعم كنت أعرفها ذات يوم.

وحاول بهذا أن ينهى الحديث، ثم سار صامتا على غير عادته حتى وصلنا إلى المنزل.

وفى الفراش تذكرت ما حدث فجأة، وذكرت تفاصيل وجهه ونبرات صوته. وتبادر إلى ذهنى-لسبب يبدو غير منطقى- أن ثمة علاقة كانت بين زوجى وزينات انتهت نهاية غير سارة، على أن هذا كان مجرد خاطر قد يكون تخمينا لا معنى له لشىء تافه ربما حدث عرضاً، وأن أكثر ما يتبادر إلى أذهاننا فى مثل هذه الأحوال هو عادة أبعد ما يكون عن الواقع، على أية حال فإننى أعرف كيف أكتشف سر الأمر.

١٠ من إبريل.

عندما جلسنا الليلة للعشاء، تعمدت أن أذكر اسم زينات أمامه فقلت له: إننى سأسمى مولودنا الأول "زينات" إن جاء أنثى. وقد حدث ما توقعته، فإنه حدق فى استياء نحوى، ثم صمت، فمضيت فى الحديث قائلة : هل تعرف أننى دعوت صديقتى زينات إلى زيارتنا؟ فبدا عليه الاهتمام وقال: ماذا؟ وهل ستأتى؟ ثم عاد يقول: زينات لن تدخل هذا البيت. لا شك أنك تعرفين القصة منها أو من زميلة لها، فأجبت، وقد علمت أننى على وشك الحصول على ما أريد : أية قصة تعنى؟ فأجاب: يجب أن أوضح لك الأمور يا هدى، إن هذه الفتاة خدعتنى، إنها فتاة كاذبة جبانة، إنها الفتاة التى ذكرت لك من قبل أنها وافقت على زواجى بها، حتى إذا ما تهيأ كل شىء فضلت علىّ شخصا آخر لأن مرتبه يزيد على مرتبى بضعة جنيهات. لكنه ما لبث أن تركها، فانتقمت لى الأقدار، إنها فتاة مادية حقيرة، كيف كنت أحبها؟ هذا هو ما يزعجنى يا هدى. لكن مالى أذكرها الآن؟ لقد انتهى كل شىء.

ومع ذلك فإنه ظل يتحدث عنها نصف ساعة؟ وكان يعتذر قائلاً إنه كان يريد ألا يذكر لى شيئا أول الأمر، لكن يبدو له الآن أن إخبارى بقصته معها معناه أن علاقته بى قد استوعبت علاقته بزينات، وهذا معناه أن حاضره معى قد شمل ماضيه، وهذا هو طريق الخلاص الوحيد من ماضيه.

من الغريب أن ما تبادر إلى ذهنى منذ أيام كان صحيحاً، ولست أفرق كثيراً بين الكره والحب، فالكره- مثل الحب- ليس سوى درجة من درجات الاهتمام بالآخر. وإننى لأكره أن يهتم زوجى بأخرى.

١٣ من إبريل.

ليس نقيض الحب هو الكره، بل هو عدم الاكتراث. إن زوجى لا يزال يعيش- بفضل كرهه - مع زينات هذه وكأنما يجد فى كرهه هذا ما يبرر له أن يجتر أيامه معها، لقد حدثنى عنها اليوم ما يقرب من الساعة الكاملة، مبررا ذلك بأنه يريد الخلاص من ماضيه، وأن يستوعب حاضره-يعنى أنا- كل علاقاته السابقة، وحين ذكرت له أنها لا تستحق كل هذا الكره والاهتمام، قال: وهل تظنينى أكرهها؟ بل إننى أحتقرها، تصورى أننا كنا نسير على شاطئ النيل فى ضوء القمر وهى تقول لى : لن أعرف حبا غير حبك، ثم تدع يدى تضغط على يدها برفق، وبعد ذلك بشهر واحد، شهر واحد يا هدى أراها تهيننى؟

ورأيته يتحول أمامى إلى طفل فى حاجة إلى الرعاية والحنان، وإننى لأخشى أن يكون زواجه بى مجرد محاولة للانتقام من زينات، فلا شك أننى أجمل منها، وأننى لأكره أن أكون مجرد أداة انتقام عاطفى.

٣ من مايو.

يا إلهى! إننى لم أشغل بزوجى من قبل مثلما شُغلت به هذه الأيام! لقد دخلت أنا وزوجى مطعما مساء الأمس، وفجأة وجدنا زينات أمامنا، فبادرت بتحيتها وتقديم زوجى لها، لقد حاولا أن يجيدا التمثيل باعتبار أنهما لم يعرفا بعضهما من قبل أمام ثالث يعرف أمرهما، لكن زوجى أخطأ فى التمثيل، فقد حياها تحية رقيقة جدا لم أسمعها منه لأحد من قبل ولا حتى لى.

وقلت فى نفسى إن مجرد ابتعاده عنها يضخم كرهه لها ويشغله بها دائما، أما الآن عندما يتقابلان ويتعاتبان بالنظرات ، فإن كل شىء ينتهى. أليس هذا ما كان من شأن محسن معى؟ لقد ظللت أكرهه عامين، ومع ذلك فمجرد أن تقابلنا وتعاتبنا لم أعد أذكره إلا لماما وهذا ما كنت أريده تماما.

وجلس ثلاثتنا فى المطعم، وتناولنا الطعام معاً، وتحدثنا عن الجو وعن الأخبار السياسية وعن ألوان الطعام، ويبدو أن كره زوجى قد تبخر تماماً، كان لطيفا وأنيقاً ورقيقاً جدا، حتى لقد اندفع فى حماسة عاطفية يدعوها إلى زيارتنا، ويذكر لها أننى اقترحت أن تكون اسم مولودتنا "زينات"

وقد عاد إلى المنزل، وعليه آثار الارتياح، كأنما انتصر أخيراً فى معركة كان قلقاً على نهايتها.

٢٠ من مايو

لقد صح ما توقعته، فلم يعد يذكر زينات بالخير أو بالشر، لقد قضيت على وسيلة الاهتمام بها.

٧ من يونيه

زارتنا زينات بالأمس، لم يكن زوجى موجوداً بالمنزل، وقد كنت أتأمل طيلة الوقت فيما يمكن أن يجذب قلوب الرجال نحو هذه المرأة. هل هى رقتها حين تضحك أم وحشيتها حين تغضب؟ على أية حال ظللنا ننتظر مجىء زوجى عبثا ونحن نستعيد ذكريات الدراسة وصديقاتنا وما انتهين إليه اليوم. لكنها ما كادت تخرج حتى أقبل زوجى، فلما أخبرته بمجيئها بدا عليه الاهتمام، وقذف بما كان فى يديه على المائدة، ثم عاد بعد دقائق يخبرنى أنه لم يتمكن من اللحاق بها.

٢٩ من يونية...

فوجئت بالأمس حيث رأيت زوجى مقبلاً مع زينات! وظلا يتضاحكان أمامى دون اكتراث لعواطفى. هذه المرأة أهانتنى فى أنوثتى، لماذا مهدت لزوجى سبيل الاتصال بها؟ إننى أنا التى أطالب اليوم ألا تدخل منزلى ، ولنْ تدخل.

من قال إن الكره يمكن أن يتحول إلى عدم اكتراث؟ ومن قال إن ما حدث بينى وبين محسن يمكن أن يحدث هو بنفسه بين زوجى وهذه الفتاة زينات؟ الكره قد يتحول إلى حب كما أن الحب قد يتحول إلى كره!

١٥من أغسطس..

أحس صداعا شديدا فى رأسى. لست أذكر سوى أننى تذكرت ذات لحظة أننى شُغلت بزوجى عندما رأيته يُشغل بأخرى فأردت أن أحمله على أن يُشغل بى بالطريقة نفسها، فأخبرته بقصتى مع محسن وادعيت أننى لا أزال أحبه، ولدهشتى وخيبة أملى حدث عكس ما توقعت، فقد قال لى جاداً: ولماذا لا ننفصل، وتتزوجين أنت محسناً هذا، وأتزوج أنا زينات، وأحسست الجنين يتحرك فى أحشائى، والدم يغلى فى عروقى.

لن يحدث هذا أبدا، فليكره زينات من جديد ما دام اهتمامه بها ضرورة له. إن كرهه لها كان يعطيه القوة لكى لا يقترب منها لأنه يعرف أنه إذا اقترب منها فسيعود إلى حبها، لقد كان محقا فى اعتراضه على دخولها منزلنا، ولن تعود إلى دخوله.

٣ من سبتمبر.

كنا نحتفل الليلة بمضى أسبوع على ولادة ابنى الأول. وبعد ما انفض الأصدقاء وبقينا وحدنا، أحسست لأول مرة أننا لم نعد اثنين.

نظر إلى طفلنا وقال: كلا، لم يكن حبا لها من جديد. إن الحب ليس سلعة يمكن أن نفقدها ثم نعود نستردها، إن من شوهت الأحقاد حبه لا يمكنه أبدا أن يستعيده من جديد. بل الأرجح أنها كانت محاولة لاسترداد كرامتى، وكانت هذه المحاولة تحمل فى طياتها رغبة فى الانتقام فأفعل معها ما فعلته هى من قبل معى. وزينات لم تكن قد دخلت المعركة لكى تُهزم، وإلا لظلت بعيداً، كانت تريد أن تظفر هى أيضا بانتصار جديد. لكنها لم تكن شريرة بالدرجة التى تصورتِها يا هدى. كانت تريد أن تتمتع بإشفاقها علىّ وبهذا تمحو من نفسها ومن نفسى ما كنت أتهمها به من قبل. ولم يستسلم أحدنا للآخر، وعرفنا أننا نعذب بعضنا. وتنبهتُ فجأة إلى أن الانتقام عاطفة الرجل البدائى، وأن الكرامة أيضا لا تُفقد ثم تُسترد، بل هى شىء ننمو به فى كل مجال جديد يبدو أمامنا، وخفت أن تكون هذه جميعها وسائل أبرر بها رغبة لا شعورية فى الاقتراب منها، ومن الإنسان الذى سبب لى ألما ذات يوم كالمجرم الذى يدور حول مكان جريمته، وكنت أعلم أن محسن وهم خلقته أنتِ لكى تبرز أمامى معركة علها تصرفنى عن معركتى التى كنت جدُّ مشغولا بها، وكان ثمة طفل ينتظرنى. إن زينات لم تكون سوى الجانب المؤلم فى حياتى أما أنت .. ثم ضمنى إليه يقبلنى.

عند ذاك انحدرت من عينى دمعتان، وسمعته يقول: لماذا لا نكاد نعبأ بجانب النور فى حياتنا، يجب أن نمرن عواطفنا على ذلك ، وسنساعد بعضنا يا هدى. وغاب عنى صوته حين ارتفع صوت طفلنا العزيز وأنا أغمغم قائلة: أنت زوجى الآن!

قراءات
في
العشاق الخمسة

بأقلام

فوزى العنتيل

عادل سلامة

محمد جعفر

علاء الدين وحيد

بدر الديب

العشاق الخمسة

بقلم : فوزى العنتيل

الحديث عن هذه المجموعة شاق وعسير، وذلك أن الذى يريد أن يتناولها سيجد نفسه أمام كل ما عرف من المذاهب التى تُكتب فى ضوئها القصة.. وعلى ذلك فلابد من تفسير كل قصة على حدة، حتى يمكنه فى النهاية أن يؤلف من هذه الخطوط المتنوعة فى المجموعة مفهوماً عاماً لمنهج "يوسف الشارونى" وطريقته فى تناولها وتشكيلها، وإبراز نمو القصة وحركتها فى المجال الفنى، ومدى قدرة الكاتب على امتصاص زمن القارئ النفسى، وارتباطه بها.. وذلك ما لا سبيل إليه!

فلا مفر إذًا من الانطلاق الراكض خلال هذه المجموعة، لإثارة جوانبها بصورة خاطفة.

والقصة الأولى هى " العشاق الخمسة" قصة خمسة من العشاق، وفتاة واحدة تنتهى بأن تتزوج الفتاة واحداً غيرهم . وليس فى القصة أحداث مرتبة، ترتفع إلى ذروة تنتهى عندها وليس فيها موقف معين، أو لحظة باهرة تنمو الشخصيات فى إطارها الزمنى. وكثير من القراء معذورون إذا ما هزوا رؤوسهم أسفا بعد فراغهم من مطالعتها، ذلك لأنهم لن يخرجوا بحادثة محددة المعالم يستطيعون حكايتها، ولن يتعرفوا إلى شخصية واحدة فيها تعيش معهم، أو يعيشون معها، لكنهم سيخرجون من جو القصة العام بأشياء مثيرة لأفكارهم وعواطفهم، غامضة إلى حد ما، وهم معذورون فى خطئهم إن ظنوا أن هذا عبثاً لا يطيقونه فقصة "العشاق الخمسة" ليست عبثاً ولكنها جادة أكثر مما ينبغى.

ولعل هذا أحد عيوب "يوسف الشارونى" . هذه القصة تفسر منهجه بصفة عامة، وتبين فهمه للقصة بصفة شاملة، فهو فى كثير من الأحيان لا يرسم للقصة جوا ولا يبرز حياة

الشخصية فيها بوضوح، ولا يتتبع أحداثاً تتجمع لتنتهى فى عمل ما، أو زمن متوقع.. لكنه يضغط العالم فى كلمات تفسلف القيم العارية للمجتمع، وتفسر متناقضاتها الشاملة فى ضوء القصة، فإذا تتبعت حياة شخصياته فلن تجد أنها تستمد أهميتها من فرديتها كنماذج حية فاعلة، أو منهزمة، إلا بمقدار ما تحقق التعبير عن هذا الاشتباك الحضارى، وإلا بمقدار ما تتحمل من أفكاره ، وهى تمر فوق جسر عواطفها وملامحها وحديثها.

ونترك "العشاق الخمسة" إلى "العيد" التى تهز وجداننا بصدقها وبساطتها، وهى قصة تعكس حياة الفقراء النفسية والواقعية، وتتبلور فيها عاداتهم وتقاليدهم الساذجة التى تستمد ألوانها مما يعانون من شظف وحرمان، وهى حافلة باللحظات والمواقف الإنسانية لأشخاصها الذين لا نملك إلا أن تحبهم، وتتنفس خلال مشاعرهم، وعواطفهم الطيبة، وارتباطهم بشعبيتهم وبالأرض التى امتزجت بعرقهم، ودموعهم وكفاحهم. وهى أحدث قصص المجموعة ، كما أنها متميزة ببساطتها، وعفوية التناول والوضوح، والإخلاص فى الانفعال بالتجربة وتنميتها مما وهبها حياتها المستمرة فى نفس القارئ. ونجد بعدها "قديس فى حارتنا" قصة متطورة ذات هدف واضح. تصور لون من ألوان الصراع بين السلبية الراكدة، وبين إيجابية الحضارة المتجددة الطالعة. فمشروع الضريح الذى قرر سكان الحارة إقامته للشيخ إسماعيل "حطمه شخص يبدو عليه أنه من رجال الأعمال الذين لا يملكون وقتاً. ومضى يقيم عمارة ضخمة فى حارتنا الصغيرة المتواضعة..".

وقد تدخل المؤلف بعد أن انتهت القصة نهاية طبيعية، فأبى إلا أن يسوق تفسيراً متيقظاً أفسد القصة، فلم يكن ثمة ضرورة لأن يقول: "وليس هناك سبيل للمقاومة. فلقد تقدمت بى الأيام. وكونت بعض الثروة، وهأنذا أنوى أن أزوج ابنى..الخ"

وأما "الطريق" و"القيظ" و"الوباء" التى جمعها المؤلف مرتبة، لتعطى لوناً واحداً، فهى قصص رائعة.. وقد تم تشكيلها فى مجال التداعى الذى نما وامتد فى نفسه، ثم انعكس عملاً مترابطاً بالنسبة للقارئ. وهذه الطريقة متسقة مع منهج المؤلف الأصلى. وهو ربط الشخصية بالحياة بطريقة أشمل تتعدى حدود العواطف الإنسانية، النابعة من المشاركة الوجدانية التى تعتمد على الإحساس الفطرى. بل تنتقل إلى الترابط فى حدود الاشتباك البشرى فى العالم فى إطار هذا الاشتباك الذى يحكم واقع الحياة المادية فى هذا العصر الذى نعيشه أكثر مما نعيش فيه.

ومن قصص المجموعة المتكاملة "المعدم الثامن" و"دفاع منتصف الليل" وهما قصتان واعيتان، محمَّلتان بكل طاقات الاندفاع الإيجابى. وهناك قصة ثالثة مكتملة أيضاً وناضجة، ومع أنها مختلفة تماماً عن سابقتيها، لكنها تصف واقعاً حقيقياً بطريقة رائعة متمددة، هى "المعذبون فى الأرض" التى قتلها "العنوان" فمثل هذا العنوان يصلح لمقالة أو كتاب، ومن ناحية أخرى فهو

مرتبط بكتاب معروف "للدكتور طه حسين"، ومن عيوب الأعمال الفنية أن ينتقل تفكير القارئ إلى المقارنة بين عمل "آنى" وبين ما يشبهه على أية صورة مما مر به فى الماضى.

ونرى فى بعض قصص هذه المجموعة، أن المؤلف كثيرا ما يترك القصة تتحرك وتتغذى فى جو "الحلم" فتحس وأنت فى مجال القصة بعكسية الحياة، تماماً كما تنظر إلى "مرآة" فترى الناس يسيرون على رؤوسهم . فتستغرق فى هذه الانعكاسات الذاهلة. ترى ذلك فى "سرقة فى الطابق السادس" و"جسد من طين" والأخيرة غامضة، لا تتضح أحداثها بسبب تشابك الحلم بالحقيقة. ولكن جو "الحلم" يظهر بصورة طبيعية فى "هذيان" التى احتشدت فيها كل الأساطير القديمة وإيحاءاتها، لكن القارئ لا يفقد مفتاح القصة التخيلى.

والأساطير والرموز الدينية ظاهرة تزدحم عند "يوسف الشارونى" لأنها متلبسة بنفسه. وقد يبدو أن هناك تناقضا بين الواقعية التى يهدف إليها كغاية ويصورها كموضوع يحاول أن يبرز فيه مضموناً حقيقياً متفاعلا وبين هذه الرموز العقيدية. فالواقعية تقتضى تنقية مجال العمل الفنى فى ذبذبة الغيبيات لتكون أكثر جرأة على الدفع. لكن هذه الرموز جزء من تكوين المؤلف وطبيعته النفسية، جزء يتفاعل بطريقة غير شعورية مع أفكاره وعواطفه. وربما أفاد من ذلك حصوله على اطمئنان القارئ، وإمداده بالقدرة على التأثير فيه.. لو أن هذه الرموز ليست ذاتية خاصة بمدلولاتها.

تشع هذه الرموز فى أكثر قصصه، وتستعلن بصورة مركزة فى "سياحة البطل" وفى "أنيسة". التى تحس بعد قراءتها أنك أمام قصة أخلاقية، تربوية بمعنى أدق. ولقد أراد المؤلف أن يصور واقعاً لكنه انتهى بهذه القيم التعليمية. أما "سياحة البطل" فتبدأ بالعبارة الآتية: "مؤمن عبد السلام عيد، استطاع أن يحصل على وظيفة كاتب.." و"مؤمن" هذا خطب فتاة اسمها "عنايات" وفى صباح كل يوم من أيام "الجمعة" يقوم كأنه ذاهب إلى عمله اليومى. يقوم كأنه يؤدى واجبه الدينى. يقوم كأنه أمامه رحلة طويلة شاقة" وبعد ذلك تجمعه الغربة برجل "فمضى يدلى باعتراف كامل عن تاريخ حياته" ويتحدث المؤلف عن رحلة الرجل. خلال أزقة المدينة وشوارعها . ويقدم لنا صديقه "صلاح" الذى يعرف الطريق الذى نوى أن يسلكه بعد قليل من الزمن.. وهو وحده يمكن أن يكون واسطة بينى وبين صاحب البيت الذى نقصده. ويخرجان، فيذرعان طرق المدينة دون تحديد.. ويلاقيان مشاق ومتاعب لا تنتهى. وبعد طواف لا نهاية له فى عالم لا نعرف حدوده ، يوقفنا المؤلف إزاء رجل اسمه "يونس" والمؤلف يختار أسماءه عامداً. ونحن نعلم أن "يونس" نبى من الأنبياء. ثم يقدم لنا المؤلف "يونس بك" الذى يصبح بدوره وسيطاً بين الرجلين وبين صاحب المسكن. ويمضى صلاح يلعب الشطرنج مع "يونس" ويدور بينهما صراع رهيب ينتهى بأن يبحث "يونس بك" عن طريق للخلاص. ونحن نعلم أن هذا شبيه باللون الذى كان سائداً فى العصور الوسطى. و"سياحة البطل" هى سياحة المسيحى ومحاربته الخطايا التى كانت تتجسد له. لكن "يوسف الشارونى" نقل المعركة من

السماء إلى الأرض، ومن البحث عن القيم الدينية، إلى البحث عن القيم المادية. عن الطعام، والحب.. وبطريقة رائعة، يستيقظ فى نهاية القصة، وفى خطوط سريعة منسقة وموجهة، يجذب كل الخيوط التى تجمعت فى يديه، ويعود من تطوافه فى لحظة حاسمة، إنسانية أيضاً ليضع القارئ فى بوتقة المشكلة، ملهبا ظهره بكلماته فيندفع إلى الأمام، مع "مؤمن عبد السلام" الذى يخاطبه المؤلف فى محبة عظيمة "اجمع حولك كل من لا بيت له، فأنت بطل من أبطال هذا القرن، لأنك استطعت الحصول على وظيفة، والحصول على حب، ولا بد لك وللآخرين من الحصول على بيت".

ويبقى معنا بعد ذلك. مشكلة قصتين " زيطة صانع العاهات"، و"مصرع عباس الحلو" فليس لهما مكان فى المجموعة. فكلتا الشخصيتين من خلق "نجيب محفوظ" وقد عاشا فى "زقاق المدق" حياة كاملة، كما يعيش كل الناس ويموتون. ولكن الأستاذ الشارونى، أعادهما مرة أخرى، ليفسر لنا حياتيهما تفسيرا نقديا. لكنه لم يستطع أن يهب واحدا منهما شيئاً جديداً، لأن حياتهما تكاملت من قبل فى "زقاق المدق" وامتدت فى نفوس القراء. فعمل "يوسف" لا يزيد عن عمل القارئ الذى تتحرك الشخصية فى نفسه، وليس عمل القصاص، ولم يكن "لنجيب محفوظ" كقصاص يفهم عمله، أن يتدخل فى مجال القارئ، ليقول له "إن عباس الحلو مات بسبب الحرب" أو كما يقول "يوسف": "لقد عاد"الحلو" من "التل الكبير" فوجد كل شىء معدا لمصرعه" . ولم نكن فى حاجة بعد أن قدم لنا "نجيب محفوظ" "زيطة" إنسانا شامخا قوى العضلات، محروما ، أن يجىء "يوسف" فيقول لنا مثلا: "وكان لزيطة أحلامه البهيمية مثلما لى ولكم." فالذى قام به يوسف هو تفسير للظروف التى أحاطت بحياة هاتين الشخصيتين تفسيرا عاما شاملا- لكن روعة هذا التفسير الإنسانى الكبير لا تغير من طبيعته وهو أن التفسير لعمل موجود متكامل نقد لهذا العمل.

ونحن أخيراً نستطيع أن نلخص خصائص "يوسف الشارونى" كقصاص متميز بطابعه. فهو جاد أكثر مما ينبغى، وهو متيقظ صارم اليقظة كثيراً. حتى أنه يقطع طريق القصة ليقول ما يريد بطريقة مباشرة فى أحيان كثيرة. وهو قصاص مثقف، ناضج الثقافة، تطفو ثقافته على سطح القصة بطريقة مقصودة، بل وتندس فى طياتها، فتطبع أسلوبه بطابع خاص، مرتبط بهذه الأفكار العلمية، التى لا يستطيع القارئ العادى أن يتذوقها بصورة كاملة، وتوجه أسلوبه المتلبس بجفاف هذه الفكرية الذهنية خلال سرده لخيوط القصة. فالرموز الدينية المتغلغلة فى أرض القصة تسير مع أمواج هذه الثقافة بما فيها من اصطلاحات علم النفس، ونظريات الفلسفة وقوانين المنطق التجريدى الصارم، إلى جانب تهويمات ما وراء الطبيعة، والرواسب الخرافية.

والقارئ مكره على أن يهبط معه فى الفراغ السديمى، إلى أغوار الطبقات الجيولوجية المتراكمة على وجه متألم . ثم يقفز من طواحين الهواء، إلى المطاحن البخارية، أو يسير خلال

الزمن مع المسيح الذى أقبل إلى العالم ليشفى الناس. إلى "زيطة" الذى يصنع العاهات، أو يقف مع الحرية عندما تكون ضرورة ، ليقابل الناس الذين قتلتهم روح الحرب التى ازدحم بها العصر.

لكن مع كل ذلك . فإن "يوسف الشارونى" قد أسهم بطريقة فعالة فى بناء الأدب الجديد بهذه المجموعة . والأمر الذى لا شك فيه أن "يوسف الشارونى " يملك إمكانات ضخمة بانية، يستطيع أن يتسلح بها فى معركة التحرر الثقافى والفكرى الجديد. وهو - دون ريب - واجد نفسه فى الصف الأول مع حملة المشاعل الذين يؤمنون بالإنسان.

الآداب - بيروت - مارس ١٩٥٥

العشاق الخمسة

بقلم : عادل سلامة

فى مصر كان بعض شباب الجيل يحاول ما استطاع أن يتعرف على زعماء الفن والفكر فى العالم. وأن يصل إليهم ضجيج الحضارة التى تنهار. وذلك فى نفس الوقت الذى كانت فيه القنبلة الذرية قد اختُرعت، والأدوية المهدئة للأعصاب قد انتشرت والبشرية كأنها تعانى آلام المخاض.

كانوا يحسون أنه يجمعهم جيل واحد، ورعب واحد، وأمل واحد، ويضمهم كذلك شخص واحد. هو تلك المرأة التى أقبلت صورتها فى هذا الهزيع من الليل تشيع بعض الطمأنينة فى أرواحهم القلقة الأسيانة.."

هذه صورة واضحة، للأزمة التى يعانيها الضمير العالمى الحديث وما تعكسه هذه الأزمة فى نفوس شباب الجيل على وجه العموم، وشباب مصر على وجه التخصيص من شعور بالقلق، ومن فقدان للثقة، بعد أن انهارت القيم، وتحطمت المثل التى آمن بها هؤلاء الشباب ردحا من الزمن، كما آمن بها الجيل الذى سبقهم.

ويوسف الشارونى هو أحد هؤلاء الشباب، وإن كان يتميز عنهم بمقدرة فائقة على التعبير عن نفسه ، وعن المشاكل التى تخالج المجتمع فى عصر كهذا العصر الذى نعيش فيه.

وكتاب العشاق الخمسة هو مجموعة من القصص، اتخذت موضوعاً واحداً، وإن اختلفت الأشخاص والحوادث. هذا الموضوع هو موجة القلق التى تسود القرن العشرين، نتيجة لتقدم الحضارة، ونتيجة لسيطرة الآلة على التفكير البشرى أولاً، ثم على عواطف البشر ونوازعهم

بعد ذلك، ذلك أن يوسف الشارونى يؤمن بأن هذا العالم وحدة واحدة، وأن أى حادث يقع فى أقصى الأرض يتردد صداه فى أدناها وأن أى اتجاه فى الثقافة أو فى الفكر، أو فى تطور الحضارة بمعناها العام، سيؤثر من غير شك فى العالم كمجموع واحد لا يتجزأ، فالبشرية ترجع إلى أصل واحد، ومن ثم فإن مكونات النفس الإنسانية وميولها لا تختلف فى قليل أو فى كثير فى بقعة من بقاع العالم عنها فى أية بقعة أخرى.

ولعل أبرز ظاهرة استطاعت أن تلفت أنظار الأدباء والمفكرين فى العالم إلى الصلة القوية التى تربطهم وتوحد بينهم كأعضاء عاملين فى المجتمع الإنسانى، لعل هذه الظاهرة هى ظاهرة الحرب. فإن الحرب لا تعنى التطاحن والانشقاق فحسب، ولكنها تحمل إلى جانب ذلك معنى آخر، فإنها تذكّر الإنسان دائماً بأن البداية والنهاية قريبتان ، وأن فكرة اللانهائية والخلود فكرة عرضية بالنسبة إليه، ذلك أنها تبرز فى الإنسان عوامل الغرور. وهذه العوامل ترتبط، فيما تقول الأديان وأساطير الشعوب، بنشأة الإنسان.

ومهما يكن من شىء، فقد قصد يوسف الشارونى فى كتاب العشاق الخمسة وهو خلاصة ما أنتجه قلمه فى عشر سنوات إلى أن يرسم صورة واضحة للجانب المظلم فى حياة البشر فى القرن العشرين بعد الميلاد. وليس معنى ذلك أن يوسف يؤمن بوجود جانب آخر للحياة بالإضافة إلى ذلك الجانب المظلم ، وإن كنا نلمس فى ثنايا كتاباته بصيصاً من أمل فى أن تستقر أمور العالم على نحو أكثر أمناً وسلاماً.

وعلى ذلك فإن الفلسفة التى تختفى وراء كتاب العشاق الخمسة هى فلسفة قدرية مادية أولاً وقبل كل شىء. قدرية لأنها تؤمن بفكرة الصراع بين النفس الإنسانية، وبين القوة الهائلة التى تدير دفة العالم. وهو صراع مرير ما فى ذلك شك، لأن النفس الإنسانية متعددة الميول، متعددة الرغائب، شديدة الطموح، وهى بين هذه الميادين. وينتهى الأمر دائماً، كما انتهى بقادة الفكر وأولى الأمر الذين يسوسون القرن العشرين بحالة هى أشبه بالخراب والدمار منها بأى شىء آخر.

العشاق الخمسة هم نفر من شباب الجامعة فى مصر " شاهدوا الماضى ينطفئ وراءهم، وشاهدوا المستقبل لغيرهم ، ولم تستطع أقدامهم أن تثبت فى الحاضر" " كانوا يكافحون فى بطولة حتى تتحطم أعصابهم، وتمزق الوحدة أحشاءهم فيفقدوا الثقة فى أنفسهم وفى العالم، ومن هذا الجيل كانت مصر تتطلع إلى القادة الذين سينقذونها من الانحلال والتأخر ومن كل ضروب الشقاء الذى تعانيه".

هؤلاء الشباب من طلبة الجامعة كانوا يحملون فى طيات أنفسهم بذور البطولة الهوميرية، ورغم ما يحيط بهم من مظاهر الفقر والعوز وكانوا يعيشون أيضاً فى بيئة تحس فى نفسها جدارة بأن ترتفع إلى مرتبتهم، فهناك مكوجى"الأمراء" و"صالون السعادة" ، ومطعم " الحرية"

وبقالة "الأمانة" ومقهى "الوطنية" كانت البيئة تحس نفسها جديرة بهذه المكانة العلوية، وكان كل شاب من هؤلاء الشباب الخمسة، يمثل أحد مراكز الصراع بين الإنسانية والقدر، بين الإنسانية فى طموحها نحو تحقيق حياة أفضل، وأكثر استقراراً، وبين القوة الخارجية الهائلة التى تصطرع معها.

ولسنا نريد هنا أن نقول إن أساس الصراع فى قصص يوسف الشارونى هو أساس ميتافيزيقى، كما هو الحال بالنسبة لكاتب كتومس هاردى مثلا، حين آمن بوجود إرادة خارجة قوية واضحة المعالم، تتحكم فى مصير العالم وتسيطر عليه. ذلك أن هذه المقدرة لا تظهر فى قصص العشاق الخمسة بشخصية متميزة كما تظهر فى قصص هاردى، وإنما نحن ندرك آثارها فى أفعال الإنسان وتصرفاته. فى قصص هاردى يمكن أن نعد القدر هو الشخص الشرير الذى يقف أمام البطل فى الرواية ، أما فى قصص يوسف الشارونى فإن الإنسان هو الذى يقف أمام الإنسان "فكل مأساة تحمل معها عنصر خلاصها، وإن النور يضىء فى المظلمة" ومهما يكن من شىء فذلك موضوع سنطرقه فيما بعد حين يتاح لنا الحديث عن الفن الروائى عند يوسف الشارونى بصورة أكثر تفصيلاً.

غير أن فكرة القدر تعد جزءاً من الفلسفة العامة التى تسيطر على يوسف الشارونى فى كتاب العشاق الخمسة، بل ان الواقع أنها تمثل المقدمة لهذا الفلسفة، فالإيمان بالقدر يرتبط عند يوسف بإيمانه بالوحدة الواحدة التى يتكون منها هذا العالم. وإن كان ذلك لا يتضمن إيماناً بأن تطور الأحداث فى العالم إنما هو سلسلة مترابطة حتمية، أو فى تعبير أهل الفلسفة إيماناً بالعلة والمعلول. فإن مثل هذه الفلسفة تؤدى إلى نوع من الاستقرار والهدوء النفسى لأنها تستند إلى أساس علمى من ناحية ولأنها انتهت آخر الأمر إلى تفسير لمجريات الأمور فى العالم. وهذه هى الفلسفة التى اتخذها لنفسه كاتب كتوماس هاردى، بل لعلها كانت الفلسفة السائدة فى أوائل القرن العشرين، والتى ترجع فى نهاية الأمر.

إن الفلسفة التى آمن بها يوسف الشارونى ، فلسفة تختلف فى طبيعتها عن هذا وذاك. فإنه وإن كان يؤمن كما ذكرنا من قبل بوحدة الطبيعة الإنسانية التى مرت بتجارب عنيفة، أظهرت قوتها وضعفها فى آن واحد، وخاصة التجارب التى مرت بها فى القرن العشرين، إلا أنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً واضحاً للسبب الذى أدى إلى هذه التجارب ، وإنما هو يعزى الأمر أولا وآخراً إلى الجانب المظلم فى الطبيعة الإنسانية ذاتها. لقد مجد يوسف الإنسان، كما مجده المفكرون من أهل القرن العشرين، وجعله المركز الرئيسى الذى تدور حوله أحداث العالم. ومن هنا كانت المادية التى تلغى الوجود الميتافيزيقى للعالم.

وعلى كل فإن اتجاه يوسف الشارونى فى القصة يعد امتداداً لما يسمى فى الأدب الإنجليزى بمدرسة التيار الشعورى التى ينتمى إليها جيمس جويس وفرجينيا وولف من كتّاب

القصة فى الأدب الإنجليزى الحديث. تلك المدرسة التى نقلت ميدان الصراع فى القصة إلى النفس الإنسانية ذاتها، واعتبرت ما يحدث فى الخارج انطباعات قد تكون مترابطة، وقد لا تكون فى هذه النفس ذاتها، وإن كانت هذه المدرسة لا تلغى العلاقة بين النفس والخارج، أى بين الفرد والمجتمع.

ففى قصة كقصة " هذيان" نجد مثلاً واضحاً لهذا الاتجاه:

نجوى هو اسم الفتاة التى أحبها، وديعة وجبانة، مثقفة ولا لباقة فى تصرفها وذات جسد جميل. وأنا أعرف أننى إنسان ملعون، فقد شاهدت أهلها ذات يوم وقد صبغوا وجوههم بالنيلة وهم يلطمون، وأنا فى حاجة إلى خمسة مناديل وجوربين ومجموعة محاورات أفلاطون وهذه موسيقى شهرزاد لريميسكى كورساكوف لا تزال فى نفسى أصداؤها، فقد كان يُحكى أن ملكاً اسمه شهريار وجد امرأته تخونه مع عبد أسود فقتلتها، وجعل يتزوج كل ليلة بامرأة وفى الصباح يقتلها.

ومن الطبيعى أن تكون هناك رابطة نفسية، تربط بين هذه الأفكار المشتتة، ذلك أن هذا الفتى المعذب بطل مجهول بين ملايين الأبطال الذين يتعذبون فى صمت وليس لديه شاعر يذيع بطولته فى أنحاء الأرض وأنه أحس إحساسا عميقا بما يضطرب فيه هذا العالم من حياة بائسة مرة مظلمة، فصرخ من أعماق نفسه " أضيئوا الأنوار" .

ولعل هذه هى الصرخة التى يود يوسف الشارونى أن تمتلئ بها أسماع القادة وأهل الرأى فى القرن العشرين . أولئك الذين أعمتهم الحضارة عن تدبير المصير الغادر الذى يحيق بالإنسانية جمعاء بعد أن ضاعت بين أيديهم المُثل التى دافع عنها الخيرون قرونا وقرونا.

فى قصة "زيطة صانع العاهات" مثل رائع حى، يسخر فيه الكاتب من هؤلاء الذين سيطروا على العالم. فكما صنع المصنع السيارات وكما صنعت المصانع القنابل وكما صنع المسيح المعجزات، فقد صنع زيطة العاهات. وزيطة هذا فتى من هؤلاء الفتية ، الذين نشأوا فى التراب، فى زقاق مظلم من أزقة القاهرة، نشأ على الوحل وعاش فيه حتى أصبح يعد نفسه قطعة من الأرض التى يعيش عليها. عرف نفايات الطعام والهواء السابحة فى المياه الراكدة، بل لعله قد أنس إليها، وأصبح كما يقول الكاتب يجد لذة حين يلتصق بالطين، يتصنع الآخرون الجزع منها. ومن هنا كان افتراقه عن الناس، وتفرده عنهم. ومن هنا أيضا أدرك " المعنى المخلص للعاهة والقيمة المطهرة للتشويه".

ويستطرد الكاتب يحكى لنا سيرة بطل عظيم، فينبئنا أن فترة من حياة زيطة مجهولة لدينا، غير أننا عرفناه بعد ذلك، ذلك الفنان الرائع الذى يخلق شيئاً من لا شىء حين يشوه وجهاً، أو يقطع ذراعاً، أو ما إلى ذلك من فنون التشويه التى يتخذها نفر من الناس وسيلة لاستدرار العطف والاستجداء وإلى هنا يعد الأمر طبيعياً.

غير أن زيطة فى حقيقة الأمر لا يختلف فى قليل أو كثير عن الشخصية الأسطورية التى تمثل المنقذ. تلك الشخصية التى تظهر بين بنى البشر آخر الأمر لتمنحهم الحياة بعد العدم، وتحيى فى نفوسهم الأمل وتبعث فيهم القوة والمقدرة على الصراع.

زيطة هو الفنان الخالق الذى استطاع بفنه أن يجد وسيلة للحياة لهؤلاء الناس الذين وقفت صحتهم وفتوتهم دون تحقيق مآربهم. زيطة إذن هو العالِم الحديث هو مفكر القرن العشرين ورجل السياسة فيه، هو ذلك الرجل الذى يمثل التطور الحديث الذى أدى إلى انقلاب المُثل والقيم، حتى أصبح من ضرورات الحياة ووسائل النجاح فيها أن يتنازل المرء عن أية صفة لها سمة أخلاقيات الشباب اليافع.

ولئن كان "زيطة " يرضى حاجته، وحاجة المجتمع على نطاق فردى، فإن العالم، وقادة الفكر والساسة فى القرن العشرين قد أرضوا هذه الحاجة على نطاق جماعى، فقامت الحروب، وأصبحت صناعة التشويه مبدأ عاماً، ومثلا أعلى لكل الذين يديرون أمور الحياة فى هذا العصر.

فى كل قصة من قصص العشاق الخمسة تجد هذا الاتجاه، فى قصة القيظ، وقصة الوباء، ودفاع منتصف الليل، وقديس فى حارتنا،وغيرها من القصص. غير أن هناك قصصاً لجأ فيها الكاتب إلى تصوير بعض المواقف الفردية، إن كان ذلك يتضمن تصويرا أعم وأشمل للمجتمع الإنسانى. ولنضرب مثلا لهذا قصة العيد. ففى هذه القصة يركز القصاص جهوده على تصوير الأثر الذى أحدثته البيئة المضطربة فى أحد أفرادها. وبطل القصة خادم بسيط، توفى أبوه، وأتت أمه يوم العيد لتصحبه معها إلى البلدة. ولعل أبلغ تصوير لما بداخل هذا البطل الصغير من فقدان للأمن والثقة، أنه حالما وصل إلى البلدة أخذ يعدو إلى البيت " مخافة أن يحسدنى الناس لأنهم لا يرتدون ملابس نظيفة جديدة كملابسى، ولأنى أبيض البشرة، أحمر الخدين ، أصفر الشعر، فإذا رأونى لن يلبثوا أن يقولوا: " صلاة النبى، على عبد الفتاح، شوفوا ياختى أبيض زى الفل ازاى".

ذلك إلى جانب ما فى هذه القصة من تصوير للبيئة المصرية الصميمة.

ومهما يكن من شىء فقد قصد يوسف الشارونى فى كتابه "العشاق الخمسة" إلى تصوير بعض المواقف الفردية التى تحمل فى طياتها رمزاً للموقف العالمى المضطرب وهو لهذا السبب يعد فتحاً جديدا فى عالم القصة العربية بأسره.

بقى لنا أن نعالج نقطة مهمة تناولها الكتاب، وهى علاقة الرجل بالمرأة، وارتباط هذه العلاقة بالفلسفة العامة التى تختفى وراء هذه القصص. فكما تمثل هذه الفلسفة موجة القلق التى تسود العالم نتيجة لاصطدام المدنية الحديثة بالمثل والأخلاق أو بمعنى أدق نتيجة

لاصطدام العلم بالغيبيات، فإن الجانب الجنسى وهو جانب حيوى بالنسبة للإنسان قد تأثر من غير شك بهذا الاتجاه.

ويظهر هذا واضحاً جلياً فى اختلاط النزعة الجنسية فى بعض أبطال يوسف بالإحساس بالذنب. لأن البيئة المحافظة قد فرضت بعض القيود على هذه النزعة وأصبح الوضع التنفيذى لها مشوبا بالخطيئة.

ويتمثل هذا الاتجاه واضحاً جليا فى قصة " جسد من طين" حيث تشعر الفتاة "ليزا" بأن لجسدها عليها حقاً ، وأن لها فرديتها الخاصة بها. استطاعت أول الأمر أن تجد منفذاً لهذا النداء فى الأحلام، كما كانت تطرد الشيطان بالقراءة فى الكتاب المقدس. ولكنها لم تستطع فى نهاية الأمر أن تقف أمام نداء الجسد، فانهارت أمام جارها طالب الطب، وانتهى بها المطاف بالانتحار.

وفى قصة المعدم الثامن، قصة حب بين الجندى وصديقته حسنية، ولكنها قصة لا تنتهى إلى شىء، إلا إلى قبلة عابرة ثم الفرار. وإلى جانب ذلك. فإن الإطار الذى وقف فيه الحبيبان يتمثل فى رائحة كريهة تفوح من مدخل الدار، بينما زحف صبى صغير على تراب الأرض، تاركاً وراءه خطاً طويلاً من براز أصفر سائل، وأتت حسنية وهى الحبيبة بورقة مسحت بها البراز.

ومعنى ذلك أن الكاتب لا يصور لنا عاطفة الحب، علوية طاهرة منزهة، كما هو الحال مع بعض الكتاب والشعراء الذين يربطون بينها أحياناً وبين عاطفة الدين، فى شىء يشبه التصوف، أو يجعلون منها الدين نفسه كما فعل و.هـ. لورانس القصاص الإنجليزى المشهور. كما أنه لا يصور الحب بالصورة الجميلة التى صورها به شكسبير عندما وقف روميو فى المنظر المشهور والمعروف فى أدب شكسبير فى منظر الحديقة يناجى حبيبته جولييت فى أعلى الشرفة، وذلك المنظر الذى يباعد به شكسبير بين هذه العلاقة وبين أية شهوة جسدية.

وكلمة أخرى نقولها حول التركيب الفنى لقصص " العشاق الخمسة" فقد ذكرنا فى مطلع هذا المقال أن الفن الروائى فى هذه القصص يرتبط بالفلسفة المسيطرة عليها، فكما أن يوسف يؤمن بأن هذا العالم، رغم الصلة الوثيقة التى تربط أجزاءه بعضها بالبعض الآخر يجرى على سنن غير منتظمة، لأن القوة الخفية التى تسيطر عليه تريد ذلك، وكذلك كانت الحياة إنما هى سلسلة من الإحساسات المتناقضة والمتشابهة فى حين واحد، لا نفهم لها مغزى ولا هدفاً. وكان لذلك من غير شك أثره فى تكوين القصة عند يوسف فهو لا يبدأ من بداية معينة، ولا ينتهى إلى نهاية مقدرة، كما أنه لا يتبع المبدأ الذى سنه أرسطو، والمعروف بمبدأ الوحدات الثلاث الزمان والمكان والعمل. فيوسف الشارونى كما ذكرنا من أتباع مذهب التيار الشعورى ولا يستطيع الإنسان أن يحدد نقطة لبداية هذا التيار أو نهايته وإنما يتلخص الأمر فى انطباعات متتالية قد لا تكون مترابطة ترابطاً منطقيا. خذ مثلاً قصة " دفاع منتصف الليل" فهى قصة

رجل قد اشترى ليفة ، وهى حاجته الحقيقية للخلاص مما هو فيه، قصة رجل يشعر أنه مطارد، " وأن عينين لزجتين تنتظراننى فى مكان ما ، وتتعقبان طريقى لسبب ما" .. ثم يمضى هكذا، من ركوب سيارة أجرة، إلى مغادرة السيارة، إلى السينما، ثم خروجه إلى الخارج فى شوارع مظلمة، وشوارع أكثر ظلاماً، وقد كانت الظلمة هى ملجأه الوحيد، وينتهى به الأمر إلى أن يفقد "الليفة" حين يصل إلى منزله بعد أن كان يمنى نفسه بحمام رائع يتخلص فيه من العرق. وأدرك أنه أمام قوى تسلبه كل شىء. وتفقده فى عراكه معها كل شىء حتى الليفة التى كان يحلم بما ستنعم عليه من حمام رائع وسعادة مطهرة. وينتهى به الأمر إلى شىء يشبه المحاكمة، لأن رجلين من رجال البوليس اشتبها فيه، ولكنه صمم فى عزم على الدفاع عن نفسه، صمم على أن يعلن أمام الجميع أنه ما أراد يوما أن يكون بطلاً ، أو رجلا مشهوراً، بل كائنا تطمئن أقدامه إلى الخطوة التالية.

وبعد فإن كتاب " العشاق الخمسة" يعد فى نظرى فتحاً جديداً فى القصة العربية الحديثة، لأن كاتبه استطاع أن يتحرر من قيود الزمان والمكان والتقاليد التى تسيطر على كتّاب الأدب العربى فى العصر الحديث، واستطاع أن يخرج إلى ميدان أعم وأشمل، فنظر إلى المواقف الجزئية التى تمر بحياتنا فى نطاق المشاكل الإنسانية العامة.

الأديب، بيروت، فبراير ١٩٥٦

مهمة الفنان أن يرى طريق التطور

«العشاق الخمسة» صورة من الأدب الواقعى

بقلم : محمد جعفر

لعل الحروب العالمية على ما فيها من بشاعة وقسوة ليست كلها شراً. بل إنها باعتبارها ظاهـرة تاريخية واجتماعية- ليست سوى مرحلة من مراحل التطور " الساخن" والحرب العالمية الثانية دفعت بالجماهير الكادحة وخاصة فى المستعمرات وأشباه المستعمرات إلى الصدر.

وفى هذه الفترة من تاريخنا أى فى الأربعينيات من هذا القرن كنا قد بدأنا نحس بآسيا وإفريقيا تفوران. شعوبهما تطرد المستعمرين الذين أظهرتهم الحرب على حقيقتهم وشعوب غيرهما كانت تدفع بأبنائها وقوداً للحرب. فأبناء المستعمرات الفقراء المعوزون. هم الذين يستغلهم الإقطاعيون الرأسماليون. إنهم الشعوب. إنهم النواة الحقيقية. وهكذا كانت تندفع هذه الشعوب إلى الصدر.

وعندما تندفع فئة جديدة إلى الصدر وتصبح موضع الاهتمام والتعبير فإنها تدفع معها إلى الصدر قيما جديدة وعلاقات جديدة.

وفى الحرب العالمية الثانية كانت القاهرة ملتقى لكل هذا. لشباب إفريقى وهندى وعربى، وثقافات وآمال فى الحرية وفى حياة أفضل.

وكان عدد المثقفين من أبناء الشعب يزداد. ويزداد إحساسهم بالتناقض بين البيئة التى نشأوا فيها وبين ما فى رؤوسهم من ثقافات ومبادئ وقيم. وكان ثمة شعور يقوى بأن المستقبل للفئات الكادحة التى تصنع التاريخ.

ولكن حياة الناس وهم تحت حكم الإقطاع والاستغلال تكون مليئة بالبؤس والشقاء والألم والضيق والفزع مليئة بالأحلام الرخيصة وبالضياع.

وفى أكثر الأحياء يكون الشارع حارة ضيقة تتداعى منازلها على ما فيها ومن فيها وتمتلئ بالأتربة والأوحال والأطفال والقاذورات هى فى الشتاء مستنقع وفى الصيف جحيم مقيم.

ولم يكن ثمة موضوع آخر للفن وللفنان الصادق، وقد يكون التعبير عن مثل هذه الأشياء خالياً من البهجة. ولكن منذ متى كانت رسالة الفنان إشاعة البهجة بين الناس فقط. إن الفن تعبير عن وجدان متفاعل بواقعنا وبكل متناقضاته.

وفى هذه الفترة من تاريخنا- فترة ما بعد الحرب بدأت الصحف تنشر قصصا ذات طابع جديد بتوقيع يوسف الشارونى. ولم يكن بعد من الأسماء التى ألفتها المطابع أو القراء.

أبطال الشارونى

ولم يتخذ الشارونى أبطال قصصه من أبناء الأسر الغنية أصحاب السيارات الأنيقة، رواد النوادى والسيارات. حيث المغامرات العاطفية الدافئة والتى كانت تشغل الغالبية العظمى من موضوعات القصص حتى ذلك الحين- بل ولم يتحدث عن البواب النوبى المطيع ذى الرطانة المضحكة أو الخادمة اللعوب فى قصر الباشا. إلخ.

ولكنه كان يتحدث عن قوم آخرين . عن سيد أفندى عامر المدرس الابتدائى الفقير الوحيد المنطوى الذى باعد فقره وانطواؤه بينه وبين الناس فعاش فى غربة وعزلة ووحشة. وذات يوم سُرقت بعض ملابسه ووقع فى حيرة واضطراب ولكن حيرته واضطرابه لم يكن مبعثهما مجرد السرقة وإنما إقبال الناس عليه وشعوره فجأة أنه موضع عطف واهتمام الجميع. كان حادث السرقة مناسبة فجرت ينبوع العواطف. وأظهرت تلك الطاقات الهائلة من المحبة والألفة والتعاون التى تربط الناس بعضهم ببعض فى هذا الشعب الطيب الكريم. وهذه هى نفسية الجماهير الصادقة وحقيقة الشعوب النقية. وسيد أفندى واحد من أبناء هذا الشعب.

وفى قصة أخرى يتحدث عن محمود أو الأستاذ محمود الشاب المثقف. الذى لا تدور حياته حول الدرجة والعلاوات. ولا حول الارتفاع إلى مستوى طبقة المدير أو .. إلخ.. مما كان يشغل أحلام المثقفين فى ذلك الوقت. ولكن مشكلته تنبع من ذلك القلق الروحى الناتج عن الإحساس بالضياع بسبب التناقض الذى تمتلئ به بيئته. التناقض الذى جعل من الثقافة أزمة. والثقافة التى لا تتكامل مع الواقع هى بلا ريب أزمة شديدة. والأزمات تؤدى إلى الهروب

والضياع وتلمس المعاذير لعدم اتخاذ موقف إيجابى. ومحمود يشغل باله كيف يهرب من إلهام. كيف يهرب من اتخاذ موقف إيجابى حيالها. أن يتزوجها. إن فى رأسه قيما ثقافية مطلقة عن الحرية. الحرية المثالية الحالمة. الحرية كما هى فى أذهان المراهقين.

وفى قصة ثالثة باسم " دفاع منتصف الليل" . يتحدث عن الكابوس المرعب الرهيب الراقد فى صدور الناس. الخوف الشامل الذى يحيط بهم فى كل مكان وزمان. والشعوب التى تعيش فى ظل الإقطاع والرأسمالية فى ظل الكبت والإرهاب والطغيان. شعوب فقدت حريتها وأمنها وفقدت حتى نفسها. لا تعرف أين تضع قدمها. وبطلنا هنا شاب ابتاع لنفسه "ليفة" للاستحمام. ووضع اللفافة تحت إبطه وانطلق إلى منزله ولكنه لمس فى عيون الآخرين وفى أقدام السائرين وفى أصوات المتحدثين والهامسين . شيئا غريبا وخيل إليه أنه مطارد. لعلهم يظنون بلفافته سوءا وبمشيته ريبة وبهيئته توجساً. وتملكه رعب قاتل وتحولت العيون والأقدام والأصوات إلى قوى غامضة رهيبة وأشباح. ولعله الجنون ذلك الذى يمكن أن يحل بالناس فى مثل هذه الظروف.

مهمة الفنان.

ولكن الفنان عندما يعرض لطبقة " الجموع" ويتخذ نماذجه منها لا يقف عند حد التقاط النماذج. لأن النماذج تعيش من خلال قيم ومبادئ وتحكمها أخلاقيات. فلا بد من أن يعرض الفنان فى تحليله هذه القيم والمبادئ والأخلاقيات.

والمعروف علميا أن لكل طبقة من طبقات المجتمع قيمها وأخلاقياتها والمعروف علميا أيضا أن الشعوب المكبوتة تعيش فى قيم وأخلاقيات متحجرة..

ومهمة الفنان أن يرى طريق التطور وبوسعه لينفذ منه النور. وخلال تلك الفترة كانت هناك بوادر قيم تتمزق تحت وطأة الحرب والثقافة والتطور. وازدياد المتناقضات بين القيم والمبادئ فى حياة الناس كان يصيبهم بالحيرة والقلق والتوتر.. وأحيانا بالانتكاس مما جعلهم فى حاجة إلى النور. والمزيد من النور.

والحب قيمة من القيم الكبيرة التى تؤمن بها المجتمعات الحرة المنفتحة. وتنكرها وتأباها المجتمعات المكبوتة المغلقة. ولست على يقين مما إذا كان أحد علماء النفس قد ربط بين كبت الشعوب وحرياتها وكبت العواطف وقتل الغرائز. ولكن مما لا شك فيه أن التزمت والعنف ملازمان للعنف والتأخر.

ويقع فى هذا التناقض الذى يتفجر فى داخله " محجوب" الذى عاش حياته حاجباً فى المحكمة يشاهد سيف القانون الباتر ينزل على رقاب المجرمين المارقين من الخارجين على القانون. ثم يجد نفسه بعد تفكير بسيط. معرضا لنفس السيف لأنه يحب. ويلقى حبيبته من

وقت لآخر. وهو مضطر إزاء تزمت المجتمع، أن يلقاها خفية وبعيداً عن أعين الرقباء. ولا يغفر له أن عاطفته نبيلة وقصده شريف. وغايته بناء أسرة. فهذه أسباب ودوافع لم يرد بشأنها نص فى القانون. أو حتى العرف.

بل إن أمثال هذا التناقض على قسوته يتفجر فى نفس غضة لطفلة بريئة رباها أبواها على التزمت الدينى والنظرة الصارمة للثواب والعقاب. فتتأزم وتقاسى وتتخيل فى رعب الشيطان الذى يرتع فى داخلها لأنها أوقعت عفوا عش يمامة من فوق شباك المطبخ.

واختيار المثال فى قصة أنيسة فيه ما فيه من السخرية. والتنبيه القاسى إلى خطورة مثل هذا التزمت على التربية النفسية للأجيال الناشئة دعوة قومية إلى السماحة والمرونة. وسعة الأفق.

وغير ذلك من القيم والمبادئ والأخلاقيات التى يعرض لها فى تحليل عميق يصل بنا إلى أعماق النفس البشرية من خلال المجتمع أو إلى أعماق المجتمع أو خلال النفس البشرية.

مع نجيب محفوظ:

وفى هذه الأثناء يلتقى بالروائى الكبير نجيب محفوظ ويثمر اللقاء قصتان من أروع قصص المجموعة أولاهما " زيطة صانع العاهات" ويرى فيه يوسف عبقريا استطاع أن يتفهم حاجة ماسة من حاجات المجتمع الذى نعيش فيه فلباها. وهو بهذا الوصف مواطن نافع. بل هو مثال المواطن النافع. أما الحاجة فهى حاجة لا توجد إلا فى مجتمع. يسقط فيه الناس من حساب الحكام. وينحدر منهم كثيرون إلى ما تحت " خط الفقر" بينما يؤمِّن غيرهم أنفسهم ضد الفقر بالإحسان إلى الفقراء وتنشأ طبقة الشحاذين. وكلما كان المتسول عاجزاً استطاع أن يستدر عطف المحسنين، ومن هنا ظهر زيطة. ومهمته صنع العاهات المثيرة للشفقة والعطف. لأولئك الذين يزمعون امتهان التسول. فسد بذلك حاجة أوجدها المجتمع الذى خلا بحكم تكوينه من المسئولية الاجتماعية والعدالة. إلخ.

وفى هذه القصة أعمق تحليل للعلاقات الاجتماعية والقيم الأخلاقية التى تسود المجتمع الرأسمالى الإقطاعى فى طبقاته الدنيا.

ولا تقل عنها روعة وقوة قصة " مصرع عباس الحلو" وهو أحد أبطال قصة نجيب محفوظ الخالدة "زقاق المدق.

وبعد فلست أنوى هنا أن أسرد مجموعة قصص " العشاق الخمسة" ولكنى أحاول أن أتناول بعض الجوانب التى تعبر عن شخصية يوسف الشارونى الفنية.

أدب الجماهير:

ومن الإنصاف بل من الواجب علينا أن نقرر أن يوسف الشارونى كان واحداً من العمد التى انتصب عليها هذا الصرح الأدبى. وكان بنماذجه الشعبية الحية وبطريقته فى التحليل والكشف عن العلاقات التى تحدد الحدث وتحكم مساره وتعطيه منطقه. وكان فى أسلوبه اللاذع القاسى الذى تحمل مرارته وقسوته كل عناصر القوة الفنية بل والجمال الفنى. من رواد الأدب الجماهيرى الحديث.

والكاتب الناشئ اليوم لا يجد كبير عناء فى أن يلتقط نماذجه من الشارع ولكن يوسف وجد فى هذا كبير عناء فى البداية. لأن هذه النماذج لم يكن من المألوف أن تكون موضوعا للكتابة الفنية بكل ما يحيط بحياتها من بؤس وشقاء وتعاسة. إلخ. بل إن هذا الجو قد يسيطر على كثير من قصص الشارونى أو أن الشارونى قد كان من الصدق فى نفسه بعيدا بحيث عاش وجعلنا نعيش هذا الجو بكل سماته. كأنه يوقظ فينا شيئاً ضده حتى أن كاتبا كبيرا قال فى معرض حديثه عن الكاتب الناشئ حينذاك " يوسف الشارونى" أنه كاتب مبدع وفنان صادق لولا هذا الجو الملىء بالقذارة والبؤس الذى ينتشر فى قصصه.

ونحن اليوم نقول إن هذا الجو هو السمة الأولى لفن الشارونى وصدق الشارونى وأنه وأمثاله من رواد القصة الحديثة أصحاب فضل فى توجيه الأدب للاتجاه الجماهيرى الإنسانى التطورى.

ولا شك أن الفنان الذى يوجد فى مرحلة انتقال اجتماعية. ويقع عليه عبء نقل " الذوق" الفنى من طبقة لطبقة يقاسى كثيراً ويتحمل أكثر ولكنه يعيش أكثر.

المساء ، ٢٢ يونيو ١٩٦٢

يوسف الشارونى وقصص «العشاق الخمسة»

بقلم : علاء الدين وحيد

- ١ -

أغلب الظن أن محاولة يوسف الشارونى مستمرة فى الموازنة بين الناقد فيه وبين كاتب القصة وهذا الصراع الذى ينشب فى أعماق كاتبنا، ينعكس أثره على كتابته نفسها التى يمتزج فيها النقد مع الإبداع. ولست أدرى لم يشعر القارئ بأن فنانه - وهو مع ألمع نقادنا - يكون فى أحسن حالاته وهو يكتب القصة .. ربما لأن قصته القصيرة أكثر حرارة ودفئاً. أكثر حتى من شعره المرسل الذى كان يكتبه فى شبابه الأول ولم يعد يفعل.

ولهذا السبب على ما أتخيل، كان أول ما نشره يوسف الشارونى من كتبه هو مجموعته القصصية " العشاق الخمسة" التى ظهرت طبعتها الأولى فى سلسلة " الكتاب الذهبى" فى ديسمبر ١٩٥٤.

- ٢ -

ولا أظن أن أول قصة فى المجموعة التى تحمل اسمها، قد وُضعت فى ترتيبها عبثاً.. لأنها يمكن أن تعد "المفتاح" الذى يصور المناخ النفسى لشباب تلك الفترة التى ينتمى إليها أو يسبقها بقليل يوسف الشارونى نفسه، ولذا فأهميتها تجىء من أنها تشير إلى الهموم والقضايا التى كانت تشغل جيل أو أجيال تلك السنوات فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. كما أن اختيار قصة: "العشاق الخمسة" بهذا الشكل، جعلها الإطار الزمنى الذى يتاح له أن يحيط بكل ما تنبض به الشخوص والأحداث فى الأعمال الأخرى فى المجموعة.

"فى منتصف القرن العشرين بعد الميلاد، كان يعيش فى مصر جيل من الشباب، شاهدوا الماضى ينطفئ وراءهم، وشاهدوا المستقبل لغيرهم، ولم تستطع أقدامهم أن تثبت فى الحاضر.. وكان هذا الجيل يقرأ الأدب على ضوء مصابيح بترولية، ويتابع دراساته وهو يستمع إلى ضجيج المذياع فى أقرب مقهى.. وكانوا يبحثون عبثاً عن الفرح ، فمن حولهم تنتشر الأوبئة والأوجاع، كما كان يشقيهم قلق وحرمان، وهم يكافحون فى بطولة حتى تتحطم أعصابهم وتمزق الوحدة أحشاءهم، فيفقدوا الثقة فى أنفسهم وفى العالم.. ومن هذا الجيل كانت مصر تتطلع إلى القادة الذين سينقذونها من الانحلال والتأخر ومن كل ضروب الشقاء الذى تعانيه".

" فى ذلك الوقت كان شباب الجيل ينتشرون فى مدن مصر ، ما بين المقاهى يقتلون الوقت وبين الطرقات الكبيرة يتسكعون وراء الفتيات، وقد ربط بينهم إحساس الشقاء والفزع، وتأرجح ما بين اليأس الكبير والأمل الأكبر. وكان الشيب يدب فى أفوادهم والشيخوخة تشيع فى أرواحهم وهم لا يزالون فى شرخ الشباب ، وشباب الفلاحين فى قرى مصر وريفها يذوون ويتساقطون فى الأرض. فى أرضهم، بل فى أرضنا الخصبة السوداء".

ولم يكن هذا الإحباط الذى يحاصر، هو وحده الذى يجعل القتامة تسود قصة " العشاق الخمسة" فقد كان لمواجهة الموت لأول مرة –إذا انتقلنا من العام إلى الخاص– وهو يختطف من بين الأصدقاء الخمسة واحداً من مجموعتهم الشابة وهو حامد، ، تأثيراً مرعباً أفزعهم وخلخل كيانهم. ولما كان حامد أكثرهم صفاء وكان شاعراً، فقد جاء فقده كأنه تحقيق النبوءة الشعبية التى تسرع بالأطهار والأبرار فى زمن الفساد إلى الموت، بجانب أن الأحداث الأخرى التى تتابعت خاصة زواج سلوى الفتاة الوحيدة فى المجموعة والتى عشقها الأصدقاء الخمسة جميعاً، والفراغ الذى تركته فى عواطفهم وتجمعهم معاً، والذى جعل البعض منهم يسارع إلى الزواج، عملت على تفتيت شمل الصداقة القوية والتى كانت تبدو أبدية.

ولكن مع هذا الواقع القاسى كله، فقد كان هناك بارقة أمل جاءت فى السطور الأخيرة بعد أن كادت النفوس تستسلم لليأس، تتبئ بانفراج أزمة الحصار عملاً بقاعدة أن لكل ليل آخر، أو كما يقول فناننا " إن كل مأساة تحمل معها عنصر خلاصها، وأن النور يضىء فى الظلمة". ومن الطريف أنها لم تأت من الداخل سواء من أعماق النفس أو من المجتمع المصرى ذاته، بل أطلت من الخارج. من تقدم العالم العلمى أو بفضل الإنجازات الحضارية. فقد اكتُشفت طريقة لعلاج شلل الأطفال. وابتُكر أسلوب جديد لحفظ المعادن والآلات من الصداء، وتقدم الكمبيوتر. وغيرها. وكأن التطور الإنسانى فى مده سيصل إلينا.. حتما!

- ٣ -

ويتردد كثيراً فى قصص الكتاب الأول ليوسف الشارونى تنفس الإنسان المثقف، مما يجعله يشكل العلامة البارزة فى دنيا " العشاق الخمسة"، وقد أكد فناننا ذلك وهو يستجمع ملامح

هذه القصص المبكرة من شخوص وأحداث ومفاهيم.. وهى بجانب الوقع الذى تستلهمه، تعتمد أيضا على الأثر الذى يتركه إبداع الأدباء فى قرائهم. ومن هنا جاء اهتمام الشارونى بعالم إحدى روايات نجيب محفوظ وهى "زقاق المدق" التى تعاطف معها كاتبنا كثيرا، خاصة بالنسبة إلى حدث فيها وهو مصرع عباس الحلو وكذلك بالنسبة إلى إحدى شخصياتها وهى زيطة. صانع العاهات فاستوحاهما يوسف الشارونى فى قصتين قصيرتين. يندد فى الأولى بالحرب وقيم الدمار، وفى الثانية بالحياة الشاقة التى تعانيها الطبقات الفقيرة.

وإذ لا يتاح التقسيم الصارم أو محاولة تصنيف الناس والأشياء إلا على المستوى النظرى، لأن الحياة أو التنفس البشرى على العكس، يستوعب المتناقضات. فإن الواقعية التى تصبغ أغلب أعمال "العشاق الخمسة" بطابعها، تسمح بترحاب للحظات الرهافة والرقة وعذوبة الوجدان أو ما يطلق عليه البعض خطأ: رومانسية، أن تشارك فى عالمها. بأكثر من صورة. مما أضاف إليها بعداً جديداً.

وهذا الملمح الشاعرى يشارك أيضاً فى تصوير مواقف شخصية المثقف المصرى، سواء بشكله الطبيعى أو المغرق. وفى الجانب الثانى نجد إحدى السمات التقليدية التى كانت منتشرة فى قصص ذلك الحين، وهى الصداقة التى تربط أبطال القصص من المثقفين ببنات الليل. فيتناول الشارونى هذا الصنف من الفتيات فى "الوباء" من خلال علاقة وثيقة بين نعمات وراوى القصة بدت فيها بائعة الجسد كالعادة نموذجاً مجسدا للإخلاص!

ولن تكتمل صورة المثقف المصرى فى قصص الكتاب الأول ليوسف الشارونى من غير أن نلم بقصة "دفاع منتصف الليل" وهذا العمل يعالج بشكل غير مباشر الإرهاب البوليسى الذى اجتاح البلاد فى غياب الديمقراطية. ولقد بدا فناننا الشاب نضجه فى عهد الملكية فى أواخر سنواتها، فعاش إرهاب حكم أحزاب الأقلية الحديدى. الذى عفا عليه ما جاء بعد ذلك من تسلط حكم الفرد، بعد أن تنكبت ثورة ٢٣ يوليو طريقها. وسواء أكتب أديبنا قصته من واقع مصر قبل ١٩٥٢ أو استشعر مبكراً الجنوح نحو الدكتاتورية بعدها ـ ولنذكر أن المجموعة نشرت فى ديسمبر ١٩٥٤ أى فى العام الأشهر الذى حددت الثورة فيه خطها التسلطى بعد أزمة مارس- فإن هذه القصة تواكب القضية الشعبية ضد قوى القهر وما لاقته الجماهير من حصار أدوات الأجهزة الحاكمة.

تصور "دفاع منتصف اليل" ـ فى مناخ الشك الذى يفرضه الإرهاب ـ فزع بطلها الذى يحمل ليفة استحمام اشتراها، من أن تساء به الظنون. فهو من ناحية يشك فى أنه مراقب تتبعه الشرطة، ومن ناحية أخرى يخاف أن يكون فى عملية فراره من متابعيه باعثاً للشك فيه لدى الآخرين كواحد من المباحث! ولذلك فإن عالمه يحتشد بالعيون " والناس يمشون فى حذر فرادى بجوار الحائط كأنما سيلتقون عند نهاية الطريق بفاجع، أو هم يتدحرجون على

حـافة الأرصفة تمـاماً كـأنما يعـدون خطواتـهم" وفى مثل هـذا المناخ لا غرابة فى أن يعتقل بطلنا!.

وعالم البغى فى تجاوزه للقواعد والحدود. يفعل ذلك بالنسبة إلى المادى والمعنوى أيضاً، ولهذا لا تكون الواقعية وحدها كافية لتجسد ما يحتشد فى هذا العالم من أشياء لا تمسك باليد وأشباح تتلصص وعيون تتربص تظهر وتختفى فى نفس اللحظة، بل يحتاج التناول إلى لون وألوان أخرى من المعالجة. ويوسف الشارونى الذى جرب ذلك منذ وقت مبكر، يفعله هنا كذلك ليستوعب ما وراء الملامح الظاهرة وما يقع فى بؤرة النفس، من ألوان الصراع والهواجس ومقاومة الضغوط الخارجية، وهكذا تستخدم المعالجة بعض أسلوب الكاريكاتير ليقرب ما يحمل الواقع من بشاعة وقسوة . هذا الواقع الذى يضطر فيه السوى إلى أن يقلد الشاذ حتى يتسق مع نبض المجتمع المضطرب!

ولا يقتصر مثل هذا التناول على المجرى ذى الطابع السياسى للأشياء، بل يمتد إلى كل ما يستهدف استغلال الإنسان وإذلاله -وفعل المرض ذلك أيضاً فى قصة "هذيان"- كما عرضت قصة "سياحة البطل" والقاص يصور المقهى الذى يرتاده صاحب العمارة المستغل.. "كان رواد المقهى من سن واحدة تقريباً، يكادون يرتدون زيا متماثلا كأنهم تلاميذ فى مدرسة. كان أكثرهم لا يسير باعتدال، بعضهم يسير كأنما قدماه صناعيتان، بعضهم يخب كأنما له قدم أطول من الأخرى، وبعضهم يفسح ما بين رجليه كأنما به شئ من كساح أو كأنما هنالك مسامير داخل حذائه. ورغم اختلاف السن واختلاف الزى بينهما وبينهم إلا أنهما شعرا أنه من الواجب عليهما أن يعرجا قليلاً فى مشيتهما حتى لا يلفتا الأنظار"!

وانتماء أديبنا إلى المثقفين، لم يجعله يتعصب لهم. بل كان يقظاً فى الالتفات إلى عيوبهم وسلبيات الكثير منهم، ومن هنا جاءت إدانته لهم فى أكثر من موقع فى "القيظ" تبدأ السطور بهذه الكلمات: محمود شاب مثقف ، وهذه لعنة كافية فى هذا العصر! وتعالج القصة فى شخصية محمود اللون الغالب من المثقفين الثرثارين الذين يستعرضون العضلات ويرفعون الشعارات وينتفخون كالبالونات، فيجعل بطلها - وهو إنسان كما ننتظر من نموذج المثقف أن يكون شديد الرقة يجرح النسيم لمس خذه أو بمعنى آخر قليل الجهد ضعيف الإرادة - يجد فى شدة القيظ، مبرراً كافياً لإنهاء العلاقة بينه وبين فتاته الثالثة تحت زعم أنها ترفض مطالبته لها أن تكون مثقفة. مثله طبعاً! فهذه القصة تعرى ادعاء المثقف وتفضح تفاهته وتدينه فى النهاية. وفى قصة أخرى يشير فناننا ساخراً إلى جدل المثقفين التقليدى " حول معنى الحياة والرغبة فى الموت" .

- ٤ -

وفى ذلك الحين فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، كانت النغمة الأولى السائدة فى كتابات القصاص خاصة الشبان الناضجين الذين كونوا أسماء أو الناشئين فى بداية

الطريق، هى مهاجمة الطبقات الغنية والإقطاعية التى تستأسد فى حماية مصالحها المستغلة واتخاذ موقف الجماهير المستذلة، ولم تكن هذه القضية أيامها- كما سيحدث فى الستينيات بعد ذلك- أسيرة للشعارات الصارخة. فوقتها لم تعرف مصر هذه البدعة وفى عالم الفكر بالذات، التى تجعل مساندة الشعب فى قضاياه قاصرة على فكر أو فرد دون آخر أو مجموعة دون أخرى. وهكذا نجد حماس يوسف الشارونى واضحاً فى إدانة الرأسمالية والرأسماليين المصريين. فى قصة "الطريق" يسخر مؤلفنا من عدم احترام الكدح الذى يتفشى عند الطبقات الحاكمة، فيقول متخذا أسلوبهم فى تصوير حركة الشارع فى الصباح المبكر. "والهواء بكر لم يلوثه بعد عرق الكادحين ولا جهدهم المتواصل المستديم" وفى قصة " زيطة صانع العاهات" يرسم فناننا الروح الرأسمالية فى الحياة المصرية بشكل عام فى إحدى لقطاته، فيكتب: " فى الطرق والميادين، وفى الموالد والأعياد، وقرب المساجد والكنائس وفى المقاهى والمقابر. كان المتصدقون والمحسنون يطالبون سائليهم بما يؤهلهم للشفقة والإحسان، وكانوا ينظرون شزرا - كما ينظر أصحاب الشركات ومديرو المصانع إلى طالب لا مؤهل له - كلما وجدوا واحداً منهم صحيح الجسم معافى ، فى عينيه النور وفى لسانه الذلاقة، وفى جسده الامتلاء. كانوا أشخاصا عمليين، لا يريدون أن ينفقوا أموالهم بلا عاهات تستدرهم، ولا أن يبعثروها على غير مستحقيها، كانوا يريدون عميا وعرجا وبلها كى يغدقوا عليهم مما يغدقونه على عشيقاتهم وهم يتطلبون العاهة فيهم تطلبهم الذلة والحاجة من عشيقاتهم".

ويجد الفنان الشاب أن الميدان الأنسب للاغتراف من قصص الكادحين ، هو قاع المجتمع والبيئات شديدة الفقر، فيلجأ إليها سواءً فى الحياة المعاشة أو عند الروائيين الكبار الذين تناولوا خباياها. وقضايا هذا القطاع متنوعة لا تقتصر على لقمة الخبز وامتلاء المعدة كما يظن البعض فى محتوى الفقر، بل يدخل بناء أسرةٍ جديدة، أيضا فى مشاكله. تعرض قصة "المعدم الثامن" أزمة حاجب فى محكمة، يلتقى كل يوم بإفراز المجتمع الصديدى- كما يصور الشارونى- من اللصوص والمدمنين والقتلة والعاهرات وغيرهم.

وتصل حدة هذه الكثافة إلى أن يكون للمجتمع"عبقرية" فى هذا الإفراز. أما هذه الأزمة فهى حاجته إلى المرأة والارتواء منها بشكل آمن مطمئن من خلال علاقة مشروعة، لا تقتنص فى الخفاء كما يفعل السارق. فالفقر كما يعرض صاحب " العشاق الخمسة" لا يتيح الحد الأدنى من الإمكانات الذى يسمح بالزواج وتكوين أسرة حتى على مستوى قاع المجتمع. ويعالج أديبنا هذه القضية وبطل القصة يفزع لأحد أحكام الإعدام الذى صدر فى نفس اليوم فى قضية خيانة زوجية، قتل فيها العشيق الزوج الذى ضبطهما متلبسين. لقد انتبه الحاجب وهو يستمع مع من فى القاعة إلى الحكم، إلا أنه وهو "يرتكب" غرامياته فى الظلام يقع فى نفس الجرم الذى صدر من المحكوم عليه بالإعدام ويمكن أن يتعرض مثله إلى ذات الإدانة، وهو يذود عن نفسه ثورة الأب أو الابن أو الزوج الذى تنتهك حرمته!

وتناول كاتبنا لهذا الجانب، يسوق إلى الفلسفة التى اتخذها الشارونى فى قصصه وهى الالتزام. ولعل فناننا الشاب من أوائل الذين اتخذوا هذا المنهج بمعناه الموضوعى، قبل أن يفعل غيره ويحول مساره ويجعله شعاراً فاقعاً عقائدياً. يقتصر على الماركسية.

وهذه الفلسفة جعلت أعمال "العشاق الخمسة" تنبض بما تعكس رؤية الخط الفكرى، فمن التجول بين المواقع الكادحة والشخصيات المطحونة إلى استشراف تشابك مصالح الدول الاستعمارية وتأثيرها البالغ على البلدان الفقيرة. ومرة أخرى نغرق بين هذه الرؤية الثورية أو " اليسارية" إذا أحببت (يختار الشارونى لبطله فى قصة "هذيان" أن يذكر موسكو "تمثال لينين والنظام الحضارى الجديد"، وعن نيويورك "الأحياء الخلفية المظلمة الرطبة"ص١٥٨ وصاحبها المتزن عادة يكبح انفعاله كما طالعه المتلقى فى أعمال الأدباء الماركسين- ومجال حديثنا الفن القصصى- من المغالاة فى غرس المشرط وارتفاع الصوت ورفع الشعار واستعراض العضلات، فالشارونى يحدد موقفه بدقة ويعرف فنه جيداً. فلا سبيل إذن إلى تجاوزهما.

- ٥ -

وكما لا يستطيع القارئ أن يبعد "حضور" الناقد الشارونى فى قصص الشارونى فكذلك الأمر أيضاً بالنسبة إلى كتابة فناننا عن الطفولة بالذات. فإن الإنسان الناضج يقطع على الطفل الذى كانه... عودته إلى دنياه، فتجىء مشاعر الصغير غير خالصة الطفولة لأنها لم تنطلق من عقالها إلا من خلال "مرشح" مثقل بالنضج والتجارب وليس كذلك طبيعة صاحب العمر الأخضر. ولذلك فإن قاصنا وهو يكتب "العيد" ويقدم بطله الخادم الصغير، يحيطه بأبعاد الكبار وفكر المثقفين - ولا يعنى هذا الملمح الأخير فجاجة استعراض العضلات، فإن يوسف الشارونى الإنسان الناضج دائماً غير المراهق لا يفعل ذلك أبداً- فيصل إلينا تنفسه بشكل يكاد يكون مباشراً، فكأنه أسقط فى هذه الأثناء ما تأخذ الترجمة من لغة إلى أخرى.

ولعل أكثر أعمال المجموعة التى تناولت الطفولة انزلاقا إلى هذا الضعف، قصة جيدة هى "الطريق إلى المعتقل" . ولا تناقض بين جودة قصة وضعف إحدى شخصياتها، فمن الأشياء التى أتقن فناننا الشاب تصويرها فيها الهلع على الأخ المعتقل والشكل اللامفهوم الذى تبدو به الحياة ومتاعب الزيارة إلى المعتقل الذى يقع وسط الصحراء والأحاسيس التى تنفجر بها أول زيارة إلى الابن والأخ المعتقل. ولكن بجانب هذا كله هناك أثقال مشاعر الولد الصغير بتفسير الكبار ومفاهيمهم. الذى ينوء تحت حمله ويكاد يخرجه عن طوره! ولنكتف ببعض اللمسات التى تجىء على لسان الراوية الصغير. "أمسك السائق عجلة القيادة بكلتا يديه، وأبى كأنما لا ينظر فى شىء، وأنا لا أستطيع أن أشيع الاضطراب فى التسلسل اللامتناهى للأفكار المتداعية عليه- بدأ (القطار) بعرباته الست الضيقة المنخفضة ونوافذه الكثيرة المتعددة وسطحه المقوس كأنما هو سلسلة فقرية لحيوان جيولوجى هائل بائد- كان مكانا يضطرنا إلى العزلة، وهى عزلة موحشة لا قداسة لها، فهو يعزلنا حتى عن أنفسنا"!

ومما يلاحظ القارئ على "العشاق الخمسة" أنه من الأعمال القلائل فى الكتاب الأول التى تتميز بنضج واضح لا يتوفر عادة فى الأعمال المبكرة لأصحاب الأقلام. مما أتاح لتناول فناننا الشاب للأجيال الخضراء والطفولة الا تستغرقه طويلاً. فسارع إلى معالجة قضايا الكبار والشيوخ وامتدت إلى أراضى أخرى يزاول فيها سلطاته. كما فعل مثلا وهو يتناول عالم الجنون أو ادعاءه فى قصة "قديس فى حارتنا".

وأهم السمات فى رأيى التى عكست نضج القاص الشاب، هى تجسيده فى أحيان كثيرة لأعماق الشخصية التى يعرضها. كما فعل فى قصة " سرقة بالطابق السادس"، وهو يتابع تشرب بطله بالروح الصوفية حتى بعد أن بعد عهده بها، عندما فشل فى غرامه وأخذت الأيام تنسيه بعض ملامح الحبيبة فعول على أن يحتفظ بهذه الملامح عن طريقة صنع تمثال لوجه فتاته. واقعا فى التناقض بين جوهرى الفناء فى الذات العليا والفناء فى جسد صاحبته. "كان حريصاً أن يصنع التمثال بيديه كأنما تجربته الوثنية لا تزال تشوبها هنا تجربته الصوفية الأولى حيث يكون عمل التمثال طقسا من طقوس عبادته".

وأعماق الحب كانت محور قصة أخرى هى "زوجى" تناول فيها موقع الحب السابق الذى انتهى بالفشل فى حياة كل من الزوجين.

إن اللمسات الإنسانية التى تتعمق الأغوار السحيقة فى النفس وتقف منها على ما يضطرب فى دهاليزها الملتوية، هى المجال الذى يبدع فيه يوسف الشارونى. فى إحدى القصص الجيدة فى المجموعة، يكون اتخاذ بطلها سيد الذى يعمل مدرساً لسلوكه الانطوائى متفقاً تماماً مع طبيعته التى تميل إلى الوحدة، ومع فشله فى غرامه ومع شرور الناس. ويتعرض سيد لحادث سرقة فى حجرته على السطح، فيفاجأ بتعاطف جيرانه والناس بشكل عام.. ليس هذا التعاطف السلبى الذى يقف عند حدود الكلام وشقشقة اللسان، بل تعداه إلى الموقف الإيجابى النابع من صدق العاطفة والمشاركة الإنسانية. فيذهب معه البعض إلى البوليس يبلغ عن الحادث، وتقدم إليه جارته اليونانية التى لم يكن ليلقى عليها السلام. بعض ملابس زوجها. وإزاء تدفق حرارة العالم الخارجى والالتقاء بأفراده بلا قيود على وحدته الباردة. بدأت انطوائيته تتبعثر، وأخذ الحاجز الصفيق بينه وبين الآخرين يتحطم. نعم إنه لم يبلغ تماماً ولكنه انكمش بما يكفى أن يعرف طعم الحياة التى تمضى بلا عُقد.

- ٦ -

وقصة "انيسة" إحدى قصص الكتاب الأول ليوسف الشارونى، تستأهل وقفة، يدعو إليها فى المقام الأول قضية تُتجاهل كثيراً وهى تناول المفاهيم القبطية فى الإبداع الأدبى والفنى فى الفكر المعاصر لا فى التراث بالطبع! ومن الطريف أن معالجة هذه القضية تدخل فى منطقة حظر غير مفهوم من الكاتب والناقد على السواء. فالقاص القبطى مثلاً يتباعد بوعى أو بلا

وعى - لست أدرى - عن التعبير أو بلورة رؤيته الروحانية المتصلة بقيم دينه. صحيح أنه ليس من الضرورى أن يكون هذا الكاتب دائما قوى الصلة بعقيدته السماوية وبالتالى يكاد لا يجد ما يقول فى هذا المجال، ولكن أن يتكرر هذا التجاهل فى معظم الأحيان، فهى الظاهرة التى تستوقف النظر. وهى بالنسبة إلى الكاتب القبطى أكثر شيوعاً مما هى عند الكاتب المسلم. وهذا لا يحدث فى مصر فحسب بل فى معظم منطقتنا العربية. بعكس ما يقع خارج هذه الحدود وبين الجاليات العربية وبالذات فى المهجر. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى النظرة الضيقة أو المزيفة التى ورثناها عن أيام الاحتلال البريطانى والطبقات الإقطاعية و"الراقية" تجعل من الفنان أو الأديب بوهيميا منغمسا فى التحرر الذى يكون مع تعاليم أى دين سماوى على طرفى نقيض.

ويعطى لهذه القضية طعمها غير المستساغ أننا فى بلد تؤثر الأديان السماوية فى نفوس أبنائه تأثيرا شديد القوة ويورث أبا عن جد: وتربط العلاقات الحميمة فيه بين أبنائه المسلمين والمسيحيين. فلا يجد الأب المسلم غضاضة فى أن يرسل صغاره إلى مدرسة قبطية، ويتعايش مع المواطن القبطى إلى درجة حفظ آيات من القرآن الكريم والاستشهاد بها وصوم بعض أيام رمضان. ولهذا كله يكون إغفال البصمات المسيحية فى كتابات فنانينا الأقباط، أمراً يدعو إلى الدهشة ويتهم أصحابه التصنع.

تعرض " أنيسة" لأسرة هذه الطفلة القبطية التى أعطت للقصة اسمها، والقيم التى تستوحى تعاليم الأناجيل ويؤصلها الوالدان المتدينان فى نفوس أبنائهم. زيادة إلى العبادات اليومية خاصة فى الصباح وقبل النوم التى تشارك فيها الأسرة جميعاً. وقد أكد هذا الاتجاه ما تفعل المدرسة التى تتلقى فيها الصغيرة تعليمها. وتعالج القصة الصراع الذى ينشب فى أعماق الطفلة وهى تعيش فى هذا المناخ، بعد أن أخطأت وكذبت وألقت تبعة فعلتها فى إفساد عش اليمامة على الخادم الصغير، وما عانت من عذاب نفسى تحول إلى عذاب جسدى عندما قصت مدرستها حكاية خيانة يهوذا للمسيح وعقاب الله له. وعاش القارئ لحظات حية غير مفتعلة لأسرة عادية فى بلدنا تناضل فى سبيل أن تحيا فى سلام متعايشة مع عقيدتها.

وفى قصة أخرى هى "جسد من طين" - كتبت بسرعة - يتناول فناننا مجابهة القيم الدينية لإغراءات الحياة فى نفس فتاة قبطية متدينة ذات جسد جميل ووجه أصابه الجدرى وقاربت الثلاثين ولم تتزوج بعد. ويدور الصراع فى أعماقها قوياً مطالباً بحقها فى الحياة وظل الرجل، ويثور الجسد لحرمانه، ويكون سكن طالب الطب الذى جاء من سوهاج فى المنزل المجاور ليدرس فى القاهرة - لم تكن أيامها الجامعات الإقليمية قد عرفت بعد! - مفجراً لهذا الحرمان. فلا تملك إلا أن تلبى مطلبه وبعد أن ارتوت وأخذ الجسد يطالبها بالمزيد، أدركت

بشاعة ما اقترفت. والمعنى الدينى لهذا الارتواء، فهلعت وركبها الفزع وخيل إليها بل تيقنت أنها لم تعانق بشراً بل شيطاناً حقيقياً. "روحا خبيثة مضت إلى عالمها بعد أن أغوتها" ، وتأكدت من ذلك وهى تنادى على محيى فلا تجده فى حجرته، التى أغلقت ويصور الشارونى هذا الرعب الذى تغلغل فيها حتى ليدفعها إلى الانتحار على الفور.

أيام الرعب (العشاق الخمسة)

بقلم : بدر الديب

مقدمة لمجموعة جديدة من القصص ليوسف الشاروني:

ما الذى يدفعنى للكتابة عن يوسف الشارونى ؟ لقد عرفه قراء مجلة الأديب معرفة حميمة منذ مدة طويلة خلال مجموعته الأولى " المساء الأخير" ومن خلال مقالاته: ولقد استطاع أن يحصل خلال ذلك على ألفة قرائه به ومحبتهم له، وأكاد أخشى وأنا أقدم مجموعته الجديدة أن يُظن فى أننى أدخل بينه وبين قرائه أو أننى أحاول أن أشكل الصورة التى كونوها له ولفنه ولكننى فى الحقيقة ما قصدت لشىء من هذا بل إنى أعرف أننى لست أهلا له لو أردته لكن يدفعنى إلى هذه الكتابة عاملان أحتسب لهما الخطورة وأفصلهما تماماً- أو أكاد- عنه وعنى، ولا أكاد التفت بهما إلا إلى تاريخ الفن الذى يخدمه يوسف ويطوره وإلى المجتمع المصرى الذى خرج يوسف منه وعبر عنه وعما فيه من تناقض ووعى وأمل فى مستقبل يخلصنا من أيام الرعب، فمما لا شك فيه أن تطور الأدب المصرى —أو العربى على العموم- لن يسرع فى خطوه، ولن تزداد قدرته على التشكل والتكيف إلا إذا صاحبه وعى نقدى يحلله قبل أن يقوّمه، ويتكشف مراميه قبل أن يخلص للحكم عليه، كما أن المجتمع العربى بشكل واسع لن تزداد قدرته على قبول الفن حتى يعرف كيف يستبصر بالتيارات التى تعمل فيه، ولن يهب الفن هذه المعرفة أو التبصر إلا- مرة أخرى - عن طريق هذا الوعى النقدى الذى يدرك أن الفن، ليس مجرد تعبير أو تصوير لمجتمع ما وإنما هو قدرة وظيفية تشارك فى تغيير المجتمع وبنائه.

هذان العاملان إذن: تاريخ الفن القصصى العربى وتاريخ المجتمع المصرى هما اللذان يدفعاننى إلى الكتابة، بل ويحددان أهدافى منها، إلا أننا لا نستطيع أن ننزع الفن القصصى العربى، أو التاريخ الاجتماعى لمجتمعنا المصرى أو العربى من الإطار الواسع العالمى الفنى

والاجتماعى على السواء. أو ليست أيام الرعب التى نحياها والتى حياها يوسف إلا ساعة من تلك الأيام المرعبة الواسعة التى تشمل العالم كله ؟

أو ليس التركيب والمصطلح الفنى الذى يستخدمه فى فنه إلا محاولة جديدة فى سلسلة من المحاولات الفنية، لها تاريخ. ولها تراث؟ ولئن كان الفن العربى الحديث قد استطاع إلى —حد ما- أن يجد لتطوره الجديد تراثا وتاريخا فى الآداب العالمية يغذيه وينميه، فإن النقد العربى لم يستطع أن يحقق ذلك بعد ومازال- إلا من بعض تحقيقات لامعة تأتينا من الأقطار الشقيقة ولا نستطيع أن نتبين لها اتصالاً- أقول ما زال إما فى قوالبه القديمة وإما مرتجلا منتثراً خاضعاً لمشاعر الناقد وأحاسيسه الفردية. ولست أشير هنا إلى النقد وما هو عليه، إلا أننى أعتقد أن هذا التفاوت الموجود بين تطور الأدب العربى الحديث لم يستطع بعد أن يجد جذوراً وتاريخاً فى مجتمعه نفسه، بحيث يستطيع أن يخلق تقبلا شاملاً خلاقا يعد النقاد ويطورهم، وإلى أن هذا الأدب قد حاول بجذوره الغربية - ومازال - أن يتدرج فى تطوره منعزلاً عن هذا المجتمع بحيث يواصل إيساع الشقة بينه وبين قرائه ومتلقيه.

الحذاء:

مأمون يستشعر السر الموجود فى كيانه الخفى حتى عنه، كل ما يعرفه عن نفسه أن له قدرات لا يسمح عمله بتحقيقها وأن الاضطراب بين الإمكان والتحقيق يخلق فى نفسه-إلى جانب السر- رغبة فى جريمة، كأنما هى فى الحقيقة قتل لسره. تخلص من نفسه. ولكن هذا المعنى الداخلى يتركز فى إحساس جسدى خاص ويتطور مع علاقة فردية منعزلة بين مأمون وحذائه ، ويدرك مأمون فى الإحدى عشرة مرة التى رقع فيها حذاءه كل ما فى المجتمع من اضطراب إدراكاً تعبر عنه المظاهرات المتوالية والأحداث الخاصة به كانتحار أخيه ومرض أمه. ونكاد نحس- نحن- خلال هذا العرض أن السر الفردى، أن المكان الأبله، قد أصبح إدراكاً أو معرفة بالمجتمع ، وأن الجريمة الكامنة قد تصبح حدثا خطيراً وعظيماً ينتظره ولا يخشاه.

إن القصة تحكى عن انقلاب فى الروح يتطور فيه السر الفردى إلى تقرير- على الأقل- للمشكلة الاجتماعية، أى أن المجتمع قد يكون كسب إدراكاً جديداً، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم أنه قد كسب عاملاً جديداً فاعلاً فى الواقع والحياة.

زيطة صانع العاهات:

" كان يشيع فى نفوسنا إدراك عام لمعنى الزمن المتقلب والطمأنينة التى لا وجود لها. ونحن أكسل من أن نحاول النفاذ إلى بواطن أصدقائنا وعشيقاتنا وشحاذينا، وكان زيطة يدرك هذا الضعف فينا ويوفر علينا ما يتطلبه ذلك من مجهود لا قبل لنا ببذله، فكان يبرز لنا فى يد مبتورة أو رجل مشلولة أو عته أو بله آخر صورة من صور المأساة التى يمكن أن ننحدر إليها والتى نجد أسبابها ونحس بأصولها فى أرواحنا ومجتمعنا" .

مرة أخرى نرى الاضطراب فى المجتمع. الذى يحاول الفرد أن يحله حلا سريعا عارضا، لا ينفذ إلى بواطن الأسباب بل يعطيه لحظه عارضة من التخلص، فإذا كان صانعو العاهات بالجملة أرباب الحروب يجسدون المأساة التى نجد أسبابها ونحس بأصولها فى أرواحنا ومجتمعنا فإن زيطة يصورها لنا فى لحظة، كلحظات الفن، تظهر نفوسنا، بأن تعرض علينا المأساة على نحو لا يمسنا إلا من خلال التخيل. أى أن نضع نفوسنا مكان المصابين، وأظن أن الأستاذ يوسف الشارونى قد استطاع أن يدرك فى هذه الصورة لونا من التهكم بالفنان بل وبنفسه هو فلا شك أن قصر الفن على التطهير هو قصر لوظيفة الفن يجعله ينحصر فى مجال كمجال زيطة صانع العاهات والرمزية هنا رمزية ثقافية أكثر منها حدسية أو صورية، رمزية فيها حكم وفيها تهكم.

مصرع عباس الحلو

تطور آخر لموقف الفنان من الحدث الفردى. فهنا فى مصرع عباس الحلو نجد أن الفنان يقرر أن هذا التطور الشخصى لعباس الحلو الذى أفضى به إلى عزمه على قتل حميدة لم يكن حادثاً مستقلا بل حادثا يشارك فيه المجتمع، حتى أنا وأنتم، وأن هذا المجهول الذى وضع فى التقرير هو نحن فعلاً جميعاً.

القيظ: تدفعنى القيظ إلى أن أورد الملاحظات التالية:

١ - القيظ - ككل القصص - تصور لنا موقفا فردياً تجاه المجتمع يتحدد فى وعى حقيقى لا غبار عليه بمشاكل المجتمع الحاضر التى تجعل الثقافة لعنة كافية فى العصر الحاضر أولاً، وتجثم على المثقف وتجعله يظل يحيا حياته المنحرفة المظلمة الكئيبة. ولكن هذا الوعى لا يبدو فى فعل أو فى محاولات شخصية لحل المشاكل الفردية. ولا شك أن الوعى بمشاكل المجتمع على أنها ملتصقة بحياة الفرد لا يستقيم مع مثل هذه المحاولات فى الحل، فينتج عن هذه المحاولات إحباط تصوره القصة على أنه حياة منحرفة مظلمة كئيبة.

٢ - إن ثمة محاولة دائما لربط مشاكل الفرد بالمشاكل الاجتماعية والدولية الكبرى، ولكن هذه المحاولة لم تخرج - حقيقة - عن محاولات فنية لم تستكمل دلالتها الموضوعية فبقيت محاولات صورية.

٣ - فى القيظ، يعبر الكاتب بوضوح عن طبقته ، ويضع فى محمود بائع السجائر جانباً مقابلاً counter part لمحمود المثقف، رجل استطاع أن يحسم أمور حياته لأنه فى جهله. لا يتطلب - ولأنه- بفقره وجهله معاً لا يستطيع أن يطمح أو أن يتمنى خارج حدود أفقه.

الطريق: ملاحظات سريعة:

١ - عجور أفندى، فى إحساس غامض من القرف، يجد نفسه فى الطريق الممتلئ دون هدف واضح؟

٢ ـ المهم أن مركز تفكيره هو هذا القرف، أولا يحاول أن يجد سببه فيستعرض حياته، حتى إذا وجده فى اللحظة التى أراد فيها أن يتفادى ذكرى قديمة ـ الدكتور قدرى ـ بدأ يغرق نفسه فى الطريق. حتى واجه رئيسه الشاب فتغيرت مشكلة القرف إلى مشكلة الهدف.

٣ ـ مرة أخرى فى الطريق هناك شخصيتان متميزتان فى الوضع الاجتماعى يتحركان فى مجال القصة: الواحد قدرى بك يستسلم رغم عدم موافقته، لرغبة ابنته فى الزواج، بل ويحضر لها هدية من الجواهر، وما أشبه استسلام قدرى بك من لا هدفية عجور أفندى ، كل عمل أصبح بلا قيمة حقيقية، لأنه لا يمس السر الداخلى.

٤ ـ أما الطريق فهو الواقع المتشكل المتغير، الذى يحمل أفراداً أقل حيرة وأكثر وضوحاً فى حل مشاكلهم اليومية. يكفى أن يوجه الفنان يوسف نظره إلى فرد حتى تزداد حيرته ويضيع الوضوح فى حل مشاكله اليومية، إنه يعانى، يعانى فحسب، ويجرؤ على أن يقرر. أما بعد ذلك ، فليس ثمة إلا الطريق، الطريق من جديد كما ذهب عاد.

الوبـاء:

١ ـ أحمد هو نفس محمود القيظ، محمود المثقف طبعاً له حياة غير متكيفة، تتركز أزمته فى حبه اللاواقعى بفتاة ظل حبا " نظيفا" وأنهما متحابان منذ أربع سنوات حتى أتت أزمة سخيفة فصلت بينهما ولكنه ما زال يتلقى منها فى خياله أحكاما وتوجيهات لتصرفاته.

٢ ـ وأحمد ككل أبطال قصص هذه المجموعة- عليه أن يسلك فى الحياة سلوكاً غير متعلق بما له من سر وماله من فردية، وعليه أن يجد فى السلوك الظاهرى مجرد محاولة للبقاء لا تبعث فى الداخل إلا تحطيما أو إشهارا يؤكده الوعى المتكرر بما فى العالم والمجتمع المباشر من مشاكل.

٣ ـ أما نعمات فعلى الرغم من التشابه الموجود بين اسمها وبين اسم فتاة داخله أنعام. فهى فتاة تمت للخارج تماماً، وتصور له درساً عليه أن يعلمه: إذا حاولت أن تغير مصيرك فلن ينالك إلا الرفض.

٤ ـ انه ليس مستقلا عن الأرض، فمن هذه الأرض تنبعث قيود وعلاقات مفزعة خطرة تجذبنا دائماً نحو مصيرنا الذى نحياه ونحاول الفرار منه، فليبق شاعراً أنه "قوى بما أحمله من مرضى" وليكتف بأنه يخيف بمرضه، أو بغربته عن نفسه ، هؤلاء الأصحاء وليقهقه فجأة أو يصمت فجأة فهو يحمل فى نفسه هذا الازدواج الذى يمكّنه من كليهما معا.

أيام الرعب: (العشاق الخمسة):

١ ـ هى من جيل من الشباب شاهدوا الماضى ينطفئ وراءهم وشاهدوا المستقبل لغيرهم ولم تستطع أقدامهم أن تثبت فى الحاضر.

٢ ـ فى هذه القصة يرسم لأول مرة طريق الخلاص، ولكن هذا الخلاص لا ينتج عن السعى بل عن الألم الفادى. فهم يلتقون عند امرأة توجههم إلى المشاركة فى السعى الحقيقى لاكتشاف ذواتهم، إلا أن واحدا منهم لا يستطيع أن يواجهها أو أن يعترف لها بحبه شاعرين أن الاعتراف أمامهم (بعضهم لبعض) هو التعبير وأن الاعتراف أمامها هو الفعل.. ومكتفين بالتعبير دون الفعل والمعاناة إلا معاناة الحصول.

٣ ـ ولكن هل ثمة خلاص حقيقى، لقد اعترف أحدهم لها (الشاعر) فمات، ولما روعوا جميعا أقدم واحد منهم على الزواج، أقدم عليه على أنه نوع من الانتحار الذى يدفع إليه اليأس إلا أنه يبدو أن زواجه اليوم لهو نوع من الخلاص الذى يفديه الألم. فهل هذا خلاص؟

٤ ـ فى القصة نغمة من التفاؤل مستمدة من الإشارة العارضة السريعة إلى ما فى العالم من قدرة على الاستمرار والاكتشاف والتمسك بالخير.

المعدم الثامن:

١ ـ اتجاه نادر فى المجموعة إلى درجة من درجات الموضوعية، وأقصد بها هنا بالذات خلق بطل لا تكون مشاكله هى نفس مشاكل الفنان، بل يكون من البعد عنها بحيث تصبح مشكلة الفنان مشكلة المعالجة والعرض. وليس مجرد التعبير داخلهما.

٢ ـ لكننا لو حاولنا أن نلخص أزمة محجوب لوجدنا.

(أ) لذة غريبة فى اكتشاف مفاجئ هو إغراق بيوت النمل بالماء وتأمل " الطرق التى يحاول بها النمل إنقاذ نفسه" مستشعراً " لذة مرهقة فى أن يسد عليه كل منافذ الخلاص".

(ب) " احساس بالاشمئزاز وبالحقارة وبالضعة وبالكراهية التى تبلغ حد الجريمة".

وهذا " الاكتشاف المفاجئ" هو فى الحقيقة اكتشاف لكلا الكاتب والبطل، فلقد وجد فيه الأخير تنفيسا عن هذه الجريمة التى لا يستطيع أن يبلغ حدها وتخلصا من هذا التخوف من ارتكابها (المعدم الثامن). أما الكاتب فلقد استطاع أن يجد فيه رمزاً موضوعيا لتوقف النشاط الفردى لبطله. ولانحرافه غير القادر على التكيف فى مجتمعه، كما استطاع أن يجعله نغمة يتهكم بها كلما أراد إثبات الضحالة الحقيقية فى نفس البطل وعدم قدرته على أن يستخلص لنفسه من نفسه أو من مجتمعه، نبعاً للسلوك وقد بدأ يحس بحاجته إلى الحماس كى يواصل سيره. فقد أخذ يغادر الطريق ويخترق الأزقة من جديد وراودته الرغبة فى أن يقفل راجعاً إلى الحوش ليصب الماء فوق بيوت النمل.

٣ ـ إلا أننا نلاحظ بعد ذلك الصلات التى تربط هذا البطل بأبطال القصص الأخرى.

١ ـ الجوع الجنسى، فهو أبدى أزلى.

٢ ـ أن مجتمعه كابوس جائم منذ الأزل وإلى الأبد على معدته وروحه.

٣ ـ أن الخلاص هو دائماً فى ال Absurd أو العقم. ليس فى التكيف أو التغيير بل فى معاودة معايشة الأزمة فى مستوى رمزى " وتذكر فكرة الماء الساخن الذى سيصبه على بيوت النمل فى الحوش بحارة الزرايب. فضمها إلى صدره ضمة قصيرة عنيفة وطبع على جبينها قبلة ثم خرج يهرول".

سياحة البطل: سياحة البطل نوع جديد أو متطور فى المجموعة.

فعلى الرغم من أن الموقف الأصلى من حيث عدم القدرة على التكيف والإحساس الدائم بالسر الوجودى، إلا أننا نجدها تتميز بالتالى:

١ ـ لقد نشطت جداً حركة النفس الفردية واستطاعت أن تعتدى فى تصويرات منظرية على الواقع، فتصبه فى مناظر مصنوعة لها منطق خاص بأسر الفرد فى آليته ويجعله مرغما مضطراً. " فى هذا المكان وخطواته التالية، كل ذلك لا يدع لى مجالا للاختيار، فعلىّ إذن أن أواصل كفاحى بقية النهار" انظر كذلك منظر المقهى.

٢ ـ على الرغم من أن المطلب الحاسم المتواضع للبطل عسير للغاية- كما يبدو من إخفاقه المتتالى ـ فهو لا يريد سوى مسكن متواضع بأجر متواضع، مسكن به يؤدى غرائزه الأولى: غرفة للنوم وأخرى للاستقبال ومطبخ للطعام ومرحاض. وكان هذا -فيما يبدو- عسيرا للغاية وأن هذه الصعوبة مرتبطة فى القصة بمشكلة اجتماعية هى الفارق الدائم بين ما يقدمه الأقوياء الأغنياء فى المجتمع وبين حاجات أولئك الأفراد الذين يكونونه فعلا. إلا أن الفرد نفسه البطل، يعد غير قادر على مواجهة المشكلة الاجتماعية فى حد ذاتها لأنه مازال يعانى من مشاكل سره الوجودى وأن هذا ليبدو فى وضوح فى معاملته لصديقه ، فلا شك أن فى هذا إنباء عما يمكن أن تكون عليه علاقته الغرامية، أو حبه، فهو فى القصة يطلب بيتاً، بيتا فحسب ولكن هل استقر فعلاً فى العمل والحب؟

٣ ـ التأريخ بين ضمير المتكلم وضمير الغائب يحدد بدء ظهور العدوان النفسى على الواقع الذى سيتطور فيما بعد..

الهذيان:

فى داخل الهذيان تتحدد أشياء:

١ ـ ليس للمعلومة الثقافية قيمة خاصة إلا ممارستها كتجربة شخصية.

٢ ـ إذا كان ثمة انحناء إلى قيمة ثقافية خاصة مستقلة، فهى إلى فكرة النبوة أى حمل الرسالة والألم ولكنها مرتبطة أشد الارتباط بهاملت ودون كيشوت أى بالوقوف عند حد الوعى أو تمام الانفصال عن الواقع.

٣ ـ أن ثمة تجربة شخصية، هى تجربة العشق الفاشل المتمخض عن ابن مقتول، هذه التجربة هى الصدمة الشخصية التى تتشكل لها الصور الثقافية الأخرى، تتشكل لتقويها ولتحدد بوضوح مدى الفشل فى الرسالة، ومدى ضياع الألم.

٤ ـ كبقية القصص لا يغادرها هذا التفاؤل الواعى، الطفل الصغير ينفخ منتصرا فى نومه وكأنه يعلن عن عالم جديد ولكن البطل لن يراه، لأنه قد أغلق عينيه، هل قدم ألمه لهذا المستقبل؟

وتعد الهذيان ضغطاً واضحاً من هذا العالم الداخلى، دون الجرأة بعد على الاعتراف بتحوير الواقع، فهذا الضغط يتم عن طريق الهذيان.

المعذبون فى الأرض:

قصة موضوعية تتحرك بطلتها على جمل مجردة تصوغ الموقف الجديد أو الطارئ وتلخصه وتكاد تفصح إفصاحاً حاسماً عن النتيجة.

ولكن نلاحظ على الرغم من هذه الموضوعية:

١ ـ الإحساس الدائم بالمصير المنبعث من داخل النفس فى وسط المجتمع الذى تم انقطاع الفرد عنه، ويرتبط المصير الفردى بتعسف القانون الاجتماعى.

٢ ـ أن ارتباط الفرد بمشكلته كان ناتجاً من جديد عن ذلك التشويه الجسدى (القرع) وهذا يذكرنا بالحذاء.

٣ ـ أن تحقيق الرغبة هو الغاية ، وأن الخلاص دائماً مروع.

٤ ـ أن المشكلة هى دائماً مشكلة الفرد أو النمط، ولا شك أن عدم قدرة الفرد على خلقه ولو فى مجتمع صغير، يستطيع به أن يقاوم، هو السبب فى فقدان الإحساس بالخلاص الحقيقى وفى الفاجعة العزلاء التى ينتهى بها مصير الفرد.

سرقة فى الطابق السادس:

سيد أفندى عامر خطوة جديدة من خطوات الصراع مع الواقع، إلا أن البطل لا يُقدّم لنا فى هذه القصة وهو يتحطم ويُنتزع من الواقع بل هى سخرية من محاولة العودة إلى هذا الواقع يقوم بها بطل أو فرد تم تحطيمه، فسيد أفندى عامر له مظهر لعب الأطفال الخشبية، وفى نفسه أحاسيس من تصوف وروتينية تلتف حول " سديم فى فراغ" هو حب قديم. لقد قرر

سيد أفندى قبول حياته كما هى: نوم وحلم ومحاولة فن ، أما العمل الذى يؤجر عليه والقهوة التى يجلس فيها وحده فهما كابوسان واقعيان لا يلجئه إليهما إلا الحاجة القاهرة. فهو شاب مجرد عن العمل الحقيقى والحب الحقيقى والبيت الحقيقى، وفجأة يعيش الواقع، فتتدفق عليه العلاقات تدفقاً يحيره.

يوسف الشارونى
موجز السيرة الذاتية

- ولد ١٤ أكتوبر عام ١٩٢٤.
- حصل على ليسانس الآداب - قسم فلسفة - كلية آداب - جامعة القاهرة - عام١٩٤٥.
- تدرج بالعمل فى المجلس الأعلى للثقافة حتى أصبح وكيلاً للوزارة به .
- نشر أكثر من ستين كتابا ما بين قصة ودراسة أدبية وتعريفا وتقديماً للتراث، وديوانا من النثر الغنائى، ومختارات فى القصة والنقد، وكتب فى السير والتراجم، ومسرحيات مترجمة من الإنجليزية إلى العربية .
- صدرت عنه ثمانية مراجع اشترك فى ثلاثة منها عدد كبير من النقاد .
- نوقشت أعماله فى رسائل علمية بالجامعات المصرية، ورسالة دكتوراه بجامعة لندن.
- ساهم فى الحياة الثقافية عن طريق المشاركة فى الندوات والمؤتمرات داخل مصر وخارجها.
- رئيس نادى القصة بالقاهرة (٢٠٠١ - ٢٠٠٦) ورئيس شرف النادى حاليًا.
- عضو لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- عضو لجنة الأدب بمكتبة الإسكندرية .

وهو حاصل على :

- جائزة الدولة التشجيعية فى القصة القصيرة عام ١٩٧٠.
- جائزة الدولة التشجيعية فى الدراسة الأدبية عام ١٩٧٨.
- جائزة الدولة التقديرية فى الأدب عام ٢٠٠١.
- جائزة العويس الثقافية فى القصة القصيرة عام ٢٠٧

كما حصل على :

- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .
- وسام الجمهورية من الطبقة الثانية .
- كان عضو فى هيئة تحرير مجلة المجلة .
- وأستاذاً غير متفرغ لمادة النقد الأدبى للدراسات العليا فى كلية الإعلام بجامعة القاهرة من عام ١٩٨٠ - ١٩٨٢.
- يشارك فى كثير من برامج الإذاعة والتليفزيون الثقافية وفى التحكيم فى المسابقات الأدبية.
- تُرجمت قصصه إلى كثير من اللغات الأجنبية .

أقام المجلس الأعلى للثقافة فى ديسمبر ١٩٩٩ حفل تكريم بمناسبة عيد ميلاده الماسى شارك فيه عدد من الأدباء والأصدقاء والتلاميذ والنقاد، واختُتم بلوحة درامية مستوحاة من سيرته الذاتية بمصاحبة فرقة الآلات الشعبية .

مؤلفات يوسف الشارونى

قصص قصيرة :

ـ العشاق الخمسة طبعة أولى، الكتاب الذهبى، روز اليوسف، القاهرة، ١٩٥٤ طبعة ثانية الكتاب الماسى، الدار القومية ١٩٦١ط ثالثة مهرجان القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

ـ ـ رسالة إلى امرأة ، الكتاب الذهبى، روز اليوسف، القاهرة، ١٩٦٠.

الزحام، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٩حصل على جائرة الدولة التشجيعية فى القصة القصيرة.

ـ حلاوة الروح، كتاب اليوم، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٧١.

ـ مطاردة منتصف الليل، سلسلة اقرأ ، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٣.

ـ آخر العنقود، كتاب اليوم، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٨٢.

ـ الأم والوحش ، ١٩٨٢.

ـ الكراسى الموسيقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠.

ـ المختارات ، رياض الريس ومشاركوه، لندن، ١٩٩٠.

ـ المجموعات القصصية الكاملة، جـ١ العشاق الخمسة ورسالة إلى امرأة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.

ـ المجموعات القصصية الكاملة جـ٢ الزحام والكراسى الموسيقية وما بعد المجموعات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.

ـ الضحك حتى البكاء، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٧.

ـ أجداد وأحفاد ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٥.

روايات :

ـ الغرق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦.

نثر غنائى :

ـ المساء الأخير، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣ ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤.

سيرة ذاتية :

ـ ومضات الذاكرة ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، ٢٠٠٣.

دراسات :

ـ دراسات أدبية ، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٦٤.

ـ دراسات فى الأدب العربى المعاصر، مؤسسة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٤.

ـ دراسات فى الحب، كتاب الهلال، القاهرة ١٩٦٦ .ويتناول مؤلفات التراث العربى فى موضوع الحب والصداقة، وقد أعيد نشره بعنوان "الحب والصداقة فى التراث العربى والدراسات المعاصرة "، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٦، ط٢ ـ ١٩٨٢، ط ٣ ـ١٩٩٢.

ـ دراسات فى الرواية والقصة القصيرة، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٦٧.

ـ اللامعقول فى الأدب المعاصر، المكتبة الثقافية، مؤسسة التأليف والنشر ١٩٦٩.

ـ الرواية المصرية المعاصرة، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة ١٩٧٣.

- القصة القصيرة نظرياً وتطبيقياً، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة ١٩٧٧.

- نماذج من الرواية المصرية، مشروع المكتبة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧ (حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى النقد الأدبى) .

- القصة والمجتمع " سلسلة كتابك" دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧.

- شكوى الموظف الفصيح، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة ١٩٨٠.

- الروائيون الثلاثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠ . ط٢ مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٣.

- رحلتى مع القراءة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

- مع القصة القصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥.

- رحلتى مع الرواية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦.

- مع الدراما ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩.

- مع الرواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤.

- أدباء ومفكرون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤.

- القصة تطوراً وتمرداً ، كتابات نقدية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٥.

- مع التراث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦.

- مع الأدباء ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩.

- مختارات من حوارات، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، ١٩٩٩.

- الخيال العلمى فى الأدب العربى المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠.

- أدباء من الشاطئ الآخر، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢.

- مبدعون وجوائز، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣.

- من جراب الحاوى (دراسات فى مجموعات قصصية)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٣.

الأذان فى مالطة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٥.

- قراءات فى إبداعات من عالمنا العربى، الهيئة العامة السورية للكتاب ،دمشق ٢٠٠٧

- قراءات فى روايات ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨.

- الحكاية فى التراث العربى ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٨.

مؤلفات عن سلطنة عمان :

- سندباد فى عمان، ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.

- قصص من التراث العمانى، توزيع مجان، سلطنة عمان، ١٩٨٧.

- أعلام من عمان، رياض الريس ومشاركوه المحدودة، لندن، المملكة المتحدة، ١٩٩٠.

- ملامح عمانية، رياض الريس ومشاركوه المحدودة، لندن، المملكة المتحدة، ١٩٩٠.

- فى ربوع عمان، رياض الريس ومشاركوه المحدودة، لندن، المملكة المتحدة، ١٩٩٠.

- فى الأدب العمانى الحديث، رياض الريس ومشاركوه المحدودة، لندن، المملكة المتحدة، ١٩٩٠.

- فى الأدب العُمانى ، مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠٠٠.

- البوسعيديون حكام سلطنة عمان، مركز الحضارة العربية، القاهرة ، ٢٠٠٤.

- سلطنة عُمان بين التراث والمعاصرة، مركز الحضارة العربية ، القاهرة، ٢٠٠٦

مؤلفات أخرى :

- التربية فى علم التغذية، كتاب الجمهورية، القاهرة، ٢٠٠٩.

تحقيق :

- عجائب الهند لبزرك بن شهريار ، رياض الريس ومشاركوه المحدودة، لندن، المملكة المتحدة، ١٩٩٠ .ط٢ الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.

أخبار الصين والهند، سليمان التاجر وأبى زيد حسن السيرافى،-الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٩.

إعداد وتقديم :

- سبعون شمعة فى حياة يحيى حقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب "مشروع المكتبة العربية"، القاهرة، ١٩٧٥.

- الليلة الثانية بعد الألف، " مختارات من القصة النسائية فى مصر" الهيئة المصرية العامة للكتاب، مشروع المكتبة العربى، القاهرة ١٩٧٦ .ط٢ سلسلة الكتاب الفضى، نادى القصة، القاهرة ، ٢٠٠٣.

- عشرون قصة حب، مختارات من القصة النسائية، كتاب اليوم، دار أخبار اليوم،١٩٩٥.

ترجمات :

- سينيكا، أوديب، إعداد تِدْهيوز، سلسلة المسرح العالمى، وزارة الإعلام بالكويت ١٩٧٦.

- صوفى تريدويل ، الآلية، سلسلة المسرح العالمى، وزارة الإعلام بالكويت ١٩٨٨.

- جون بولدستون، ميدان باركلى، سلسلة المسرح العالمى، وزارة الإعلام بالكويت،١٩٩٠.

- سير روبرت هاى، دول الخليج الفارسى ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.

مجموعات قصصية بلغات أجنبية :

بالإنجليزية :

Blood Fued trans Denys Johnson-Davies Heinman (London, ١٩٨٣), pp. ١٢٧ In Arab Authors (١٩٨٤) The American University Cairo press (1991)The Five Lovers. General Egyptian Book Organization, Cairo, 1988.

بالألمانية :

Nachrichten Aus Agypten, (Deutch von Nagi Naguib J.C.B. Editionen (Berliner Kunster program des Dad ١٩٧٧).

كما تُرجمت له قصص إلى لغات أخرى : مثل الفرنسية والأسبانية، والهولندية، والسويدية، واليونانية، والروسية، والصينية، والدانمركية والإيطالية.



الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg



فى عام ١٩٥٤ - أى منذ أكثر من نصف قرن - نشرت سلسلة الكتاب الذهبى الذى كان يصدره نادى القصة بالقاهرة هذة المجموعة ليوسف الشارونى فحفرت له طريقًا فى عالم القص، كما كانت مَعلَمًا من علامات تطور القصة القصيرة المصرية خاصة والعربية عامة، ومؤشرًا لما تطورت إليه على يد جيل ما يعرف بنكسة ١٩٦٧، لتثبت أنها قصص قديمة متجددة، محتفظة ببريق حداثتها.

وقد أضيفت إلى هذة الطبعة مختارات مما كتبه بعض كبار النقاد على مدى سنوات عن هذه المجموعة.

ISBN# 9789774212464



الهيئة المصرية العامة للكتاب